ابن الشمس

رانيا مأمون

دار العين للنشر







ابن الشمس

ابن الشمس

رانيا مأمون

الطبعة الأولى / ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس:٢٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

تصميم الغلاف: إيمان شقّاق - لندن

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣١٠٩ /٢٠١٢
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 201 - 7

ابن الشمس

رواية

رانيا مأمون

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

مأمون، رانيا
ابن الشمس: رواية/ رانيا مأمون.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٣

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٠١ ٧

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٣١٠٩ / ٢٠١٢

تمّت كتابة ونشر هذا الكتاب (ابن الشمس) بمنحةٍ من الصندوق العربي للثقافة والفنون AFAC ومؤسسة المورد الثقافي.





This book (Son of the Sun) was made possible through Culture Resource's Production Awards Programme & The Arab Fund for Arts and Culture (AFAC).



إلى الشجرة والثمرة..
أمي فاطمة
وابنتي رغد



بــاب التِّيه



1

إنَّ الموتَ يليقُ به.

هناك أناسٌ مزاجهُم مزاج الموت، وآخرون مزاجهم مزاج الحياة.

وكان مزاج كرم عدمياً باحتراف.

سحب الغطاء من وجهه وبقي راقداً على قفاه، صباحٌ جديد ويومٌ إضافي متكرر وسخيف. وأنا معلقٌ على حوافِ الوقتِ والأمل الشارد للبعيد. أففففف!

انقلب على جنبه الأيمن محاولاً العودة للنوم.

الغطاء عند كرم من أساسيات النوم، مثله مثل إغماض العين أو مثل اتكاءته القلقة على صدرِ أحلامٍ متصدِّعة، لا يتخلَّى عن غطائه. هذا لا

شتاءً ولا صيفاً، يغطي جسده حتى في أشدّ أيام الصّيف رغم الحرّ الخانق والعرق المتصبّب، كان يُغيِّر الغطاء فقط بثوبٍ أبيض، الأبيض من أيقونات الموتِ كذلك.

الثوب كان خفيفاً، من ثياب أمه البيضاء التي كانت تلبسها أيام حدادها على وفاة أبيه، أي قبل اثنين وعشرين عاماً! ربما غيَّره مرتين أو ثلاث مرات أو أربع، خلال هذه السنوات بثوبٍ شبيه له، بذات اللون، ومن ذات القماش رخيص الثمن.

يتغطى من رأسه حتى قدميه، وينام دائماً على ظهره، وبعد استيقاظه مباشرة كل يوم، ينقلب على جنبه الأيمن ويحاول النوم مجدداً لدقائق، ثم ينقلب على جنبه الأيسر ويحاول العودة للنوم مرة ثانية مدة عشر دقائق إضافية، وعندما يفشل يكوِّر شفتيه ويقول: أففففففف! ثم ينزع عنه الغطاء بضيق ويُنزل قدميه باحثاً بهما عن حذائه دون أن ينظر إلى الأسفل، أثناء ذلك تبحث يده اليسرى تحت المخدة عن كيس السّعوط.

يفعل هذا كل يوم وبالتعاقب ذاته مثلما يتعاقب النهار والليل دون خطأ منذ الأزل، لم يخطئ أبداً فينقلب على جنبه الأيسر أولاً مثلاً، أو ينام خارج غرفته ذات السريرين الحديديين، والكرسيين، والدولاب والطاولة الحديدية التي على الركن تئن من الكتب والورق، وطاولة أخرى تتوسط السريرين عليها دائماً أكواب وصحون بحاجة للغسيل. في غرفته أيضاً شمّاعة حديدية تتراكم عليها الملابس حتى تفيض، وتقع الملابس على الأرض الترابية حيث يتركها زمناً، بعد أن تتشبع تماماً بالتراب. و لم يخطئ

كرم إطلاقاً وينام على بطنه، أو تبحث يده اليمنى، بدلاً عن اليسرى، عن كيس السعوط تحت المخدة ، كما لا يحدث وأن يضع الكيس على الطاولة، إنما يلبِّده أبداً تحت رأسه وكأن وجود الكيس هناك يرمم أحلامه المتصدعة!

كرم يظل يلعن عمله على الدوام، ويحمِّله مسؤولية عُري أيامه ويباسها، لكنه لا يتركه، كثيرة هي الأشياء التي نلعنها ولكننا نداوم على فعلها بتكرار عبيط، ربما بفعل الخوف من فقدانها، أو لعدم الثقة في المدسوس في كفِّ الأيام القادمات، أو بفعل العادة، أو ربما بفعل اليأس.

كان عمله يسحبه من الحياة رويداً رويداً ويسحب منه الحياة. أن تعمل وأنت محاط بالصمت والغموض والأجساد المسجاة منتظرة دورها في ذهابها لدارها الأبديَّة، أمر يقربك من الموت حدّ الدخول فيه، لكن، ألم يكن هذا يماشي مزاجه؟

الأقدار تستجيب لرغبات أصحابها وتوقعاتهم، تأتي مشابهة لهم، لدواخلهم وعقولهم وأمنياتهم الغائرة في نفوسهم، قدره هو ما ساقه ليجد نفسه طافياً في هذا الفراغ العريض، في هذا الصَّمت الضّاج، في هذا الحزن اللاينتهي.

يحدِّث نفسه: أربعون عاماً أشعر بأنها تسرَّبت من عمري مثل خيوط الدُّخَان، رمادية، شفافة، يعبثُ بها النسيم.

هكذا مضت حياته وستمضي على ذات المنوال كما يشعر ويخشى،

وإن كان يتمنى دفيناً في أعماقه أن يعيش الحياة لا أن يبقى على حافتها الحادَّة، متأرجحاً بين الدخول إليها أو الانزلاق في جُبِّ العدم.

بإحساسٍ ينتصب على طرفي نقيض يمضي، فهو من جهةٍ يشعر بأن عمره مضى، وأن الأربعين عاماً انسلَّت من بين أصابع الزمن مثلما ينسلّ خيطٌ من خرم إبرة، مثلما تنسلّ شعرة من فروة رأس. أحياناً عندما ينظر إلى نفسه في المرآة يخاطب صورته متحسراً: عمري انقضى كتفوّهك بكلمة، كنَفَسٍ باردٍ يخرج من رئتيك، عمري انقضى دون حصاد.

من جهةٍ أخرى يشعر بأن الوقت ثقل وعبء على قلبه وروحه المتشوِّقة لما قد لا يأتي.. لفرحٍ مقيم.

حاول ذات يأس أن يُنهي حياته، جاء بعلبة دواء وأفرغها في جوفه، لتنتهي هذه المحاولة به إلى المستشفى يتعافى من الاكتئاب الحاد كما قال الطبيب، لكنه كان يعرف مرضه، كتب على ظهر روشتة الداوء: مرضي ليس اكتئاباً إنه الحاجة للحياة، هو رؤيتي للنهر جارياً ولا أستطيع منه الارتواء، ارتوائي هناك، في موتي، صمتي المبجَّل.

أمه بكتْ وظلت تبكي طويلاً وهي تعاتبه:

– عاوز تخليني لمنو يعني؟ أنا عايشة عشانك!

وهو أيضاً قرر أن يعيش من أجل أمه، وإن وافاها الأجل سينفِّذ مخططه ما لم يجد ما يجره للغوص في النهر الدافق. الموت والحياة متلازمان، داخل كل موت حياة، وفي كل حياة موت، الفيروسات ميتة، غير أنها تحيا

عندما تدخل وسطاً حياً، هي كائن ميت لكنها تحمل سر الفتك في داخلها. في الحجر حياة، وداخل الإنسان موت، تموت خلايا لتحيا أخرى، تفنى حياة لتتجدد أخرى. كرم ككل البشر يجتمع الموت والحياة في داخله. منذ ذلك اليوم، قبل أحد عشر عاماً وهو في الانتظار، انتظار حدثين: مجيء الموت أو مجيء الحياة، وبعدها تبدأ حياته أو تنتهي!

أمه هي حبه الوحيد العميق، حبله المتين الذي يظل يشدّه للدخول.

أنهى كرم حمامه الصباحي وتكرَّف رائحة القهوة التي تضخ اليقظة في مفاصل روحه الكسولة وتملأ فراغاتها. عمَّت رائحتها في البيت كلّه وفتَّقت جيوب السكون. للقهوة تأثير واثق، إنها كصعقة الكهرباء تحفز كل خلية فيه. نادته أمه:

– تعال القهوة جِهزت.

كانت تحب أن يشرب القهوة معها. يشربانها معاً صباحاً قبل خروجه للعمل، ومساءً وهما يشاهدان التلفاز صامتين إلا من صوت الرشفات والخواطر، ومن بعض الجُمل المبتورة والمتناثرة، وبعض أخبار الحيّ التي لا تهمه في شيء ولا تربطه بأصحابها أيَّة رابطة.

تسأله دوماً عن عمله، الإجابة هي ذاتها دائماً: مثل كل يوم لا جديد. لا تمل من السؤال، ولا تمل – رغم تعبها – من إعداد السندوتش الذي يحمله معه للعمل يومياً، وغسل البلحات السبع التي يأكلها بعد الفطور.

شرب القهوة، كوَّر سفَّة من السعوط وضعها تحت شفته السفلى، حمل

حقيبته السوداء المتهالكة، ها أنا أخرج ليومٍ جديد من أيام العمر الماحل، ثم خطا نحو الشارع.

نحيلاً ضئيلاً واسع الثياب يخطو تجاه محطة المواصلات. وجهه محايد، لا يمكنك معرفة ما يشعر به، نظرة عينيه باردة، تهرب منها سريعاً إن تلاقت أعينكما. رأسه أصلع في المنتصف، صَلعته هذه ليست وراثية مثل عمله، وإنما تكوَّنت من رقدته الدائمة على ظهره طول اللّيل، بدأ الشَّعر يتساقط من تلك المنطقة ويخفُّ تدريجياً إلى أن صار إلى صلعةٍ برَّاقة تحت الشمس، ملساء تتدحرج قطرات العَرق منها على جبهته عندما يحني رأسه، وتنزلق على حاجبيه بلورات شفافة صغيرة مالحة. شعرات كثيرة بيضاء تراها متناثرة فيما تبقَّى له من شعر، يزعجه هذا الشيب، يعمل على إخفائه بالصبغة أحياناً وأحياناً بالحناء. شعره بُني مثل شعر أمه التي تصبغه له بالحناء مخلوطة بالكركديه، يكتسب بعدها لوناً جميلاً لامعاً مضاهياً للمعان الصَّلعة التي تتوسطه.

لن يراه الرّائي إلا وهو يحمل حقيبته الجلدية السَّوداء طويلة اليد، والتي يدرعها على كتفه الأيسر على الدّوام، حقيبته أكبر قليلاً في حجمها من حقائب رجال الأعمال، تقشّر جلدها الأسود في زواياها وموضع فتحها فظهر قماش دمور بلون بيج غَمق من تراكم الأتربة والأوساخ عليه. بها ثلاثة أقسام، قسم به أوراق كبيرة مُسطَّرة يشتريها من المكتبة كل فترة، هو لا يشتري دفاترَ، فقط أوراقاً وأقلاما لذا تعجّ غرفته بالورق المتناثر في أرجائها، ربما الورق يشعره بالأمان، أن يتخلص من خواطره دون أن

يترك أثراً، ليس كالدفتر فالدفتر مفضوح عندما تنزع منه ورقة سواء أكان مرقَّماً أم لا؛ الورقة المنزوعة لن ترضى إلا أن تترك أثرها وإن كان نتفةً دقيقة. يكتب في هذه الأوراق بعض شذرات قصص الموتى، أو تحليلاته للشخصيات من إنصاته وقراءته لآذان أصحابها. يكتب هذه التصورات ويصدّقها فهي الحقيقة، ولا حقيقة عداها. والقسم الثاني من الحقيبة فيه كتبٌ صغيرة أغلبها صفراء، في حين يحتفظ في البيت بالكتب الكبيرة التي يهوى شراءها من الورّاقين بالقرب من حديقة وقيع الله في السوق الكبير. الكتاب الأكثر قيمة عنده هو الكتاب المستعمل والأكثر اهتراءً لأنه يشير إلى كثرة تداوله بين الناس، وفي هذا القسم أيضاً يرمي قلماً احتياطياً في جوف الحقيبة، ويضع آخر في جيب القميص الأبيض دائماً ليكون في متناول اليد. أما القسم الأخير به فطوره المكوَّن من سندوتش ملفوف داخل كيس صغير وسبع بلحات. وقد يراه الرّائي إضافة لحقيبته حاملاً كيساً بلاستيكياً يحوي خضاراً وعدساً وأرزاً وبصلاً ولحماً.

كان يحب الجلوس في آخر الحافلة، في ذلك المقعد المسمى بـ: (كنبة شكراً. سُمي كذلك لأنك وأنت هناك سيُدفع لك ثمن الركوب، فآخر من يصله الكمْساري هم ركاب المقعد الأخير، الذين يقولون شكراً لمن دفع لهم من الرُّكاب في مقدمة الحافلة، لكن ليس هذا السبب في حبه لهذا المقعد، ليس لديه معارف كثيرون ليدفعوا له على أيَّة حال. يجلسُ فيها لأنه يحبها، ببساطة، ومن هناك يستطيع أن يرى كل الحافلة، الطَّالع والنَّازل والمنتقل من مقعده إلى مقعد آخر خلا للتو، ويرى ظهور وأقفية الرُّكاب وآذانهم ويجد فيها إلهامه أو ملهاته.

كان يحدِّق في الرؤوس ويقارن بينها. يحدِّق في ثياب النساء وطِرَح الفتيات. يتوه في تعرجات الأذنين ويُحجِّمها ويصنِّفها: هاتان أذنان كبيرتان، وهاتان مفلطحتان، وتلكما أُذنان مطويتان من الأعلى، آذان ملتصقة بالرأس، آذان منكفئة نحو الصَّدْغ، آذان متمردة تميل للخارج تبحث عن الانْعِتاق.

هذه أذن جميلة، تلك قبيحة وذي عادية الشكل، أما التي هناك فهي جذّابة. صاحب مثل هذه الأذن النافرة شخص بخيل وأنْاني، أما من شكل هذه الأذن الموضوعة بتمهل فهو شخص شهواني محب للجنس والمتعة. تلك الأُذن الصغيرة صاحبها لا بُدَّ وأن يكون خجولاً، هادئاً وقليل الكلام. هذه الأذن المخرومة صاحبها عدواني وشرس.

كان يضع صفات لكل شخصية حسب شكلِ أُذنيها، لا يختبر هذه الصفات ولا يعرف أبداً إن كان تصنيفه صحيحاً وواقعياً أم لا، ولكنه لا يهتم. أول ما يقع نظره على امرئ تبحثُ عيناه عن أذنيه وكأنهما المفتاح الذي يلج به إلى عالمه، هما الراداران اللذان يُنفِّرانه أو يُقرِّبانه، يرحبان به أو يكشِّران في وجهه، وهذا غالباً ما يحدث، وهو أحد الأسباب في قِلّة أصدقائه، قلّة! بل ندرة أصدقائه مثل ندرة لبن الطّير إن كان للطّيرِ من لبن! في الحَقيقة ليس لديه أصدقاء، لم يكن لديه أصدقاء أبداً، رغم إعجابه ببعض الآذان لكنها لم تكن ترحب به، ثم جرف الوقتُ أي رغبة له في التقرُّب منها.

ما يستعصي عليه فعلاً هو قراءة شخصية الفتيات والنساء من خلال

آذانهن، إذ لا يتمكن من رؤية كل الأذن ليعرف ما تنطوي عليه نفس صاحبتها، جزء من الآذان مغطاة بالطِّرح والثياب، وحتماً سيتلقى ضربةً أو أكثر على وجهه إن حاول إزاحة طرحة فتاة أو امرأة لرؤية أذنها!

على العموم قراءة شخصيات النساء ستؤلمه أكثر مما تمتعه، فهو فاشل عالمي معهن، يخافهن ويتجنبهن ويستحي منهن، يستحي من النِّساء رغم أنه يحبهن ويرغب فيهن! المرأة الوحيدة التي حفظ كل تعرجات أذنيها وانحناءاتها هي أمه، وللسخرية هي الوحيدة التي انطبقت قراءته لها على شكل أذنيها تماماً وكأنهما كتاب مفتوحة دفتيه، دفة في كل أذن.

يرى أن الأذن أرهف قنوات الإحساس، يقشعر بدنك إن مسَّت أذنك أنفاسٌ حارة، ترتعش مشاعرك إن لامستها شفاه هامسة، وإن لعق لسان رطب أذنك تفقد قدرتك على التماسك، تذوب ويحتفل الجسد.

الأُذن هي قناة تواصله الأشدّ حساسية مع الوجود والموجودات، من خلالها يندغم فيه ومن خلالها يدخل إلى عوالم وحياة الآخرين ويتواصل معها. الأذن تفتح كل حواسه الأخرى، عندما يسمع شيئاً فإنه لا يسمعه صوتاً مجرداً ينقل كلاماً أو موسيقى أو همهمة أو سكوناً حتى، إنما ينقل معه عالماً مكتملاً بروائحه ومذاقه وملوماساته وقصصه. حينما ينصت إلى حفيف ورقة نبات، فإنه يرى هذه الورقة، ويعيش معها حياتها ويتخيل مداعباتها مع الأوراق الأخرى، يتخيل عالمها الأخضر، يتخيل الشجرة، الجذور وهي تدب في جوف الأرض، الثمار والزهرات، يشم رائحة الورقة، يرى الشعيرات الدقيقة وهي تتفرع على جسد الورقة، يسمع

هسيس أشعة الشمس تتمشى على سطحها، ويكاد يرى تسرُّب الماء بين خلاياها وهي تروي عطش خلية وراء أخرى.

الأمر لا يتعلق بقوة حاسة السمع لديه، وإنما ما يخلقه السمع في ذهنه من خيالات وتصورات وعوالم عمَّا سمعه، وما يتركه في روحه من أثر، ربما لهذا هو يحب الآذان، الآذان عنده ليست للسمع وحفظ التوازن فقط، بل هي أكثر من ذلك وأعمق. عندما يصيخ لصوت السكون ويهيم في خياله، أو يتبع خطى أفكاره المستغرقة، أو يلاحق زحف نملة على أرض غرفته وهي تحمل فتات خبز أو قطعة بسكويت، عندما يجلس قرب ميت ويغرق في تأمل أذنه وتأمل حياته التي عاشها محاولاً الدخول في موته، ومحاولته التلصص على حالة الموت، مدفوعاً برغبة المعرفة والاكتشاف لما بعد الموت، لما بعد العبور، لما يوجد في العالم الآخر، مدفوعاً بشوقه لموسيقى الصخب في عمق الصمت، وباستغراقه عندما يدخل داخل ذاته ويغيب عن الوجود.

الآذان عنده ليست مجرد آذان!

رغم كل هذا،

إنَّ الفراغ كبير!

هل يحتاج كي يدرك من الأذنين واليدين والرجلين والعينين والشفتين، المرأة والرجل، الأرض والسماء، الخير والشر، الشمس والقمر أن الحياة قائمة على الثنائية، ثمة اثنان من كل شيء رغم هذا فهو واحد، حتى أبويه

أنجباه وحيداً وأغلقا حساباتهما على هذا. في البيت هم ثلاثة، أمه، هو وكلبه؛ إنسانان وكلب، امرأة ورجل وكلب، أم وابن وكلب، لا غَير.

يشعر في البعيد، هناك في غوره السَّحيق بوحدته، أمه موجودة وهي رفيقته، لكنه وحيد، مع هذا يحتاج للسَّكن، ليس السَّكن بالضرورة أن يكون زوجة أو امرأة، يحتاج للسَّكن أينما كان ذلك السَّكن، في قلبِ حبيبة، أو مع صديق، أو رفقة (شلَّة)، أو دفتر ينفثُ فيه حزنه وألمه وأمله ويتمدَّد على صفحاته الخالية الرَّحبة، أو حتى في جوفِ عملٍ يشعره بوجوده، لكنه يفتقد كل هذا ويعجز عن خلقه أو الإتيانَ به، بًل يعجز حتى عن تخيّله محققاً، إنه جالسٌ أبدي على مقاعد العجز التي تهدهده على أهدابها الشاسعة!

فضفاضٌ هو رداء الوحدة، متسعٌ كالأرض ممتدٌّ كالسماء، وأنا مصلوب بينهما. أمدُّ يديّ على اتساعهما فلا تصطدمان إلا بالفراغ. غرف قلبي يتردَّد في أرجائها الصَّدى، خلاياه أحسّها مجوّفة ممتلئة بالهواء تستجدي الرفيق.

أشعر بأني معلّقٌ في الهواء بخيطٍ من عنكبوت، ليس بقربي شيء، لا أمامي ولا خلفي، لا فوقي ولا تحتيً شيء. أينما نظرت تقع عيناي على الخواء، وتستشعر نفسي طعم المرار.

تنتصب الوحدة أمامك تتحداك بصلف وغرور، لا تستطيع إلا أن تواجهها، لا تستطيع إلا أن تُهزم أمامها، لا مفر من تجاهلها، لا مفر من التّوهم بأنها غير موجودة، تذكِّرك بذاتها في كل ثانية، تتقاسم معك كل

لحظة تعيشها، كل ابتسامة تسرقها من جبور الوقت، كل طيف عَبَرَ مُحمّلاً بالأماني القادمات. لا تترك لك خياراً سوى التعايش معها، قبولها أو رفضها هو حقك الذي لا تمارسه معها مطلقاً، بأيِّ سلاح تحاربها وبأيِّ منطق تتحاور معها؟ وأنّى لك أن تفعل وأنت تشعر بأنك جزءٌ، بأنك شطرٌ، بأن اكتمالك لم يتحقق بعد؟

كيف لك أن تجتاز حصارها المحكم وأنت تشعر بالنقص والعجز وقلّة الحيلة؟ مبتورة أطرافك، مقطوع رأسك، مثقوب قلبك يتسرب منه الدخان، مشروخة روحك تغالب السهم المنغرس في طينها. تعيش برئة واحدة، كلْية واحدة، عينٍ واحدة، تعيش بواحدٍ من كل اثنين فيك، فكيًف يكون الاكتمال؟

وصل مكان عمله متأخراً كالعادة وجلس في حضرة الموت، الموت ليس بعيداً عنه، يحيط به من الجوانب كلها. إنه غارق فيه، في رائحة الموت التي تلبَّسته، غارق في سكونه ووسط هذه الجثث التي تلاشت ملامح بعضها وذابت في العدم.

عندما مات أبوه كان في الثامنة عشر من عمره، لم يدخل الجامعة بعد، رغم أنه كان يتمنى ذلك. بموتِ أبيه فقدت الأسرة معيلها، واقترح أصدقاء أبيه في العمل أن يَحِل محله، توسّطوا له عند مدير المشرحة بأن يردّ للميت بعض الجميل والوفاء في ابنه الوحيد.

يشعر نحو أبيه بنوع من الغضب ألم يجد ما يورثه له سوى هذا: حراسة الجثث؟! أين ستذهب الجثث على أيّة حال!

ترك الدراسة مجبراً وعزم في نفسه مواصلة دراسته في العام الذي يليه. ولكن تلته أعوام كثيرة و لم يفعل. الأحلام تزدهر بقدر مساحات الفرح في دواخلنا، تبسط أجنحتها وتظل تتنامى وتكبر وتعلو، أو تخبو ثم تذبل وتموت عندما تنبت في قلب منطفئ. لقد نَسي كرم حُلمه أو نسيه الحُلم كما يردد.

مكان عمله غرفةٌ واسعة باردة صامتة للغاية، إلا من خواطره التي ترفرف فوقه وقد تطوف حول الجثث قرباً وابتعادا، أو مما يصله أحياناً من أصوات تدفعه ليطل عبر النافذة إلى الفناء، يتابع المارين فيه من وإلى الكافتيريا التي يرى جزءاً كبيراً منها، أو الخارجين من مكتب والداخلين إلى آخر من موظفي المشرحة، أو الجالسين تحت ظلّ شجرة النيم السخية.

يفصلني عنهم هذا الجدار عدا العين التي تتوسطه، والتي تربطني بهم أنظر عبرها من بعيد ولا أقترب. وتفصلنا طبقات من الجُدر الأخرى مرئية وغير مرئية. هل أحبهم؟ كيف يشعرون بي؟ هل يحبونني؟ هل يرونني أساساً؟ لا أعرف ولا يهمني أن أعرف. يناسبني أن أظلّ نائياً، وأن أتطلع وأسمع من هذه الزاوية لا سواها. يناسبني عدم اقترابي منهم وتجاهلهم لي. إنهم يبدون لي ككائنات في حلم، حياتهم تختلف عن حياتي، إنهم كخيالٍ أراه دوماً لكنني أبداً لا أصل منتهاه. من يفعل على كل حال، من يصل؟

يراهم وتصله أصواتهم البعيدة ورنات ضحكاتهم التي تملأ الهواء، تتناسل الأسئلة وتسيل على جدار روحه: لماذا تلك البدينة أكثر حيوية؟

وكيف يحفظ ذاك القصير كل هذا الكم من النكات، فكل من يحدثه تصدح حنجرته بالضحكات؟ ماذا يملكون في الخارج؟ من أين يأتون بكل هذا القدر من حبِّ كل شيء، وأنا هنا أراقبهم وحسب؟!

لكن..

هل هم حقّاً كما أراهم؟ هل هم حقًّا كما يبدون لي؟

كان عليه أن يرافق الجثث ويؤنس وحشتها أو تؤنس وحشته. في حال جاء أحدٌ ليتعرف على ميت، عليه أن يدلّه على رقمه وموضع جثته، يسحبها من ثلاجة الموتى وينزع عنها الغطاء حتى المنتصف، المفروض أن ينزع الغطاء ليُظهر الرأس والوجه فقط ويرجعه سريعاً، لكنه يفعل هذا ليتيح للناظر أن يتأكد تماماً من الميت، ولسبب شخصي إضافي، أن يراقب صدمة رؤية الأموات على الوجوه، وهذه هي إحدى لحظاته المؤثرة ليس فرحاً أو حزناً ولكنه يشعر حيالها بالحماسة.. الحماسة فقط، وطبعاً لا ينسى أن يراقب الأُذنين أيضاً ويقيس ردّة فعلهما، أذنان تنكمشان، أذنان تنفتحان، أذنان لا تباليان رغم أن الوجه تكاد تتمزق عضلاته قرفاً أو استياءً أو هلعاً أو رهبةً لرؤية الموت.

لحظة التعرُّف على الجثة من اللحظات التي أحرص على تركيز انتباهي التام فيها، تلك اللحظة الصادقة التي لا يمكن لأحد مهما كانت قسوة قلبه أن يخفي وقعها عليه، الناس بعيدون عن الموت، لا يلامسونه ويجالسونه كل يوم مثلي، لذا فإن رؤيته هي صفعة مفاجئة لهم، لا يتمكنون حيالها من التحكم في انفعالهم. يعرف الواحد منهم أنه جاء ليتعرَّف على ميت،

رغم هذا يتفاجأ ويُصدم! تظهر هذه الصدمة على الوجه، وهذا عادي، لكنها بالنسبة لي تتجسد أكثر في الأذنين. في تلك اللحظة الأذنان تخبرانني بالكثير، ليس عن الميت فلستُ بحاجة لذلك، إنما عن مكانة الميت داخل هذا الشخص الذي يقف أمامي مواجهاً رهبة الموت، وعينيّ.

كرم مسؤولٌ أيضاً عن ترتيب الجثث ومواضعها على كابينات الثلاجة حسب أرقامها المكتوبة على بطاقة صغيرة تحوي الاسم - إن وجد - العمر، تاريخ الوفاة وتاريخ دخول الجثة للمشرحة، حيث تكون مربوطة في إبهام القدم اليمنى، إن كانت الجثة سليمة، أو إبهام اليسرى، وأحياناً في إبهام اليد اليمنى إن فقد الميت قدميه الاثنتين.

كانت سعة الثلاجة عشر جثث، لكنهم يكدسون فيها ثلاثين جثة، فهي لا تتذمر مطلقاً، تتراص الجثث بعضها فوق بعض، وفي الحالات الطارئة مثل حوادث المرور خاصة الباصّات السفرية، أو التقاتل بين مجموعة وأخرى، أو شجار السُّكارى الذي ينجم عنه عددٌ من القتلى، تتحول صالة المشرحة إلى ثلاجة كبيرة؛ وذلك باستخدام عدد كبير من ألواح الثلج حفاظاً على البرودة وبالتالي الجثث، في هذه الحالات يضعون الأجساد على أسرَّة عادية منسوجة من البلاستيك وتوزع ألواح الثلج في الصالة، تحت الأسِرّة وبينها إلى حين مجيء ذوي القتلى لاستلام جثامينهم.

هذا الوضع يربك كل من في المشرحة، أطباء وفنيين وكرم بالتأكيد، وقد تمتد يومها ورديته حتى العاشرة ليلاً بدلاً من السادسة، تعج المشرحة بالناس وتقرأ الهلع والذهول في العيون المحمرة والمنتفخة، نظراتهم تنكر

ما حدث وكأنها تبحث عن يقين أو تكذيب عن فقد حبيب أو صديق أو أخ.

في أوقات الحوادث تجد المدينة كلها في المشرحة وحولها وحتى الشارع المؤدي إليها تتعطل فيه الحركة. خوف وتوتر وعصبية تملأ الفراغ.

قبل أسابيع تعارك اثنان داخل المشرحة، أحدهما من أقارب القاتل والآخر شقيق القتيل الذي قُتل في شجار على كأس عَرقي.

حضر الشقيق ليتعرّف على الجثة ويستلمها، بعد التشريح، كعادة كرم فتح غطاء الجثة حتى المنتصف وركّز نظرة عينيه على الشقيق الذي رقصت أذناه ألماً وبدا أن الألم انتقل إلى قلب كل عصب من أعصابه، تلوَّن وجهه بلونِ الفجيعة، ثم خرج هائجاً منفعلاً. غطى كرم الجثة سريعاً ولحق به.

عمَّ الهياج المكان إثر هجوم الشقيق على قريب القاتل وهو يصرخ:

– قتلتوهو؟! عليّ الطّلاق ما أقيف إلا بعد عشرة منكم يلحقوهو بيدي دي.

كان يستمع للشجار من آذان المتشاجرين لا من حناجرهم.

ارتجفتْ أُذن قريب القاتل رجفتين قلقتين، أقسمُ إني سمعتُ عويلها، لكنِ شقيق المقتول أطبق بيديه على عنقه وخنقه وهو يلعن ويتوعّد. حاول التملّص منه والدفاع عن نفسه، تدخل بعض الحضور ونجحوا بعد جهد في خلخلة إطباقه على عنقه، فانزلقت يداه إلى رأسه وانكفأ عليه وعضّه. صرخةٌ فاقعة انطلقت من المعتَدى عليه ورعشة عنيفة هزّته، بعدها دفع

بكل قوته على صدر شقيق المقتول ثم لاحقه بلكمةٍ على خصيتيه جعلته يترنح ويتقهقر للوراء وهو يضع يده بين فخذيه، ويطبق عليها بيده الأخرى متألماً، جلس الشقيق ثم لفظ من فمه قطعةً سوداء على الأرض، انقلبت على وجهها وتَعفَّرتْ بالتراب. نظرتُ سريعاً إلى الرجل الآخر الذي كان في فوران ألمه يقبض بكلتا يديه المضرجتين بالدماء على صدغه، لقد قطع شقيق المقتول أذن قريب القاتل ولفظها في التراب!

2

خبط مشجعٌ مهتاج على الطاولة بقوةٍ أطاحت بأكوابِ الشّاي وانكسر أحدُها، هبَّ قائماً وهو يصرخ بغضبٍ في وجه محدثه. دفع الكرسي البلاستيكي بقدمه إلى الوراء فانقلب الكرسي رأساً على عقب فاتحاً قوائمه نحو السماء. نظرتُ إلى الكوبِ الملقى على الأرض وقد غاب عني الصوت الغاضب لحظةً: ح يحاسبني على الكبايّة دي؟ حذرنا المعلم ميَّة مرَّة من كسِّير الكبابي، أيّ كُباية تتكسر بغرَّمنا تَمْنها. طبعا ح يقول أنا السَّبب؛ عشان ما شلتها طوالي لما فضتْ! في اللحظة التي شردتُ بذهني فيها كانت هناك روح إنسان تفارقه. يا الله! هكذا.. هكذا فقط! لحظة ويموتُ إنسان!

لقد قطع وريده بشظية الزجاج من الكوبِ المكسور! في لمحة انحنى

والتقط شظية الزجاج وجرح بها عنق محدثه، بل قطع وريده!

رعبتُ ونظرت إلى إبراهومه، وجدته مرعوباً مثلي، كانت المرة الأولى التي أرى فيها شخصاً يموت أمامي، نافورة من الدم تنبثق من عنقه. يتطاير رذاذ الدم على ملابس الزبائن وعلى القاتل الذي تجمّدت نظرة عينيه. تجمَّع الناس وتصايحوا: خذوه إلى المستشفى. أسعفوه. أحمله معي. أحضروا عربة إسعاف. ما الذي فعلته يا رجل؟! أين الإسعاف؟ ليتَّصل أحدكم بالإسعاف. هيه يا رجل، تماسك.. تماسك، اصمت فهو لا يسمعك. هل مات؟ لا.. لا.. لم يمت. بل مات، مات يا غبي، انظر، انظر إلى عينيه لقد خبا بريقهما. يا إلهي!

تزاحم الناس، جمهورٌ غفير تجمَّع في لحظات، كلهم في لهفة لرؤية الضحية، كلٌّ منهم يريد اختبار معرفته بها. وكلٌّ منهم ادَّعى أنه كان يعلم أن هذا الرجل سيَقتل أحدَهم ذات يوم، طبعه حامي، بل لاهب كجمر الموقد، ومتعصب لفريقه وكان فريقه ذاك اليوم مهزوماً!

أخرجنا المعلم سالم من دهشتنا ومحاولة استيعابنا ما حصل، أمرنا بجمع الأكواب سريعاً وإدخال الطاولات والكراسي:

— ح يتحول الغضب لقهوتي.. أسرعوا.. أسرعوا.

بدأنا في جمع الأكواب والصَّواني بسرعة كبيرة. هذا الرجل لا يهمه سوى ماله، وكأن جريمة قتل لم تحدث أمامه قبل دقائق فقط! كنا نمرُّ من خلال الجمع الواقف مثل شعر المرعوب بخفَّة وارتباك، فنخطف الأكواب ونصطدم ببعضنا. نرفع الكراسي الملقاة علىَ الأرض ونُدخلها، قد يرفع

اثنان الكرسي ذاته ويحملانه معاً. نُدْخِل ما بأيدينا داخل المقهى، ثم نعود ركضاً لحمل الطاولات، حملها كانَ صعباً؛ قصار القامة يقفون على الطاولات حتى لا يفوتهم شيء، كنا نعاني في حمل الطاولات و لم تكن ثمة مساحة خالية تسمح لنا بحملها أو رفعها على أكتافنا، كان المكان يختنق ومهمتنا أصبحت شبه مستحيلة.

وحتى بعد أن غادرتْ عربة الإسعاف وهي تحمل القتيل في جوفها، وإلى ما بعد حضور الشرطة واقتيادها الجاني، ثم رسم الحادث، كان الجمعُ غفيراً، تعاونا كُلُّنا – نحن عمال المقهى – والمعلم يصرخ فينا ويُصدِر أوامر متلاحقة في عصبية موتِّرة ما أحدث لنا ربكة في الحركة والفعل. بعد جهدٍ جهيد أنقذنا الكثير من الطاولات وعَجِزنا عن الباقي.

جلس بعض الحضور على الطاولات وبدأوا في إعادة سرد القصة وتكرارها لكل من يسأل من الناس الذين استمروا في التوافد، وكل من يسمع القصة يحكيها لآخر. الكل يتكلم، لا تعرف من يستمع لمن! هذا يحكي، ذاك يحلِّل، وآخر يعلِّق، ذلك يسرد حكاية مماثلة سمع بها أو كان شاهداً عليها. تشعَّب حديثهم ونسوا القاتل والقتيل وبدأوا يتحدثون عن العنف، وكيف فقد النّاس الحوار مع بعضهم بعضاً! كيف ضاقت أخلاق الناس وصدورهم وما عادوا يقبلون أي نقد أو تعليق!

تحمّس أحد الحضور بجسد نحيل وشعرٍ كثيف، يضع أربعة أقلام بأربعة ألوان في جيب قميصه الأبيض المهترئ، قفز على الطاولة الحديدية الصَّدئة وخطب في الجمع ملقيا اللّوم على الحكومة من منبره:

تحمّس أَحد الحضور بجسد نحيل وشعرٍ كثيف، وكان يضع أربعة أقلام بأربعة ألوان في جيب قميصه الأبيض المهترئ، قفز على الطاولة الحديدية الصَّدئة وخطب في الجمع ملقيا اللّوم على الحكومة من منبره:

- يا جماعة الحصل دا كله بسبب الحكومة.. أيوه، الحكومة دي ما خلّت للناس جنبة يرقدوا عليها، كرَّهتهم في عيشتهم وشغلهم وخلَّت الواحد مننا دايماً زهجان وصَّارِّي وشّه، لحدي ما وِشوشونا إتكرفست وبقت زي الصِّرم القديمة. يا أخوانا لو الحكومة دي كانت حكومة عادلة ما كنا وصلنا للحالة البطَّالة دي، نقتِّل في بعضنا ونسرق من بعضنا و....

خطر لي أن هذا الرجل مسطول.

سأله أحد المتجمهرين عن دخل الحكومة في هذا؟ أجابه بعصبية واستنكار كيف لا دخل للحكومة بهذا! لو كان هذا القاتل مرتاحاً وشبعاً ومزاجه رائق لما ارتكب هذه الجريمة. رد عليه أحدهم، إن القاتل ارتكب هذه الجريمة لأنه إنسان عصبي وأخلاقه ضيقة ولا يتحمل الهزيمة. ثم تدخل آخر ورأى أن الحكومة ليست هي السبب وإنما هم اللاعبون الذين يلعب الواحد منهم مثل السكران لا هو قادر على الجري ولا التحكم في الكرة ولا التسديد بثبات.

قال الأول بلهجةٍ منتصرة:

- شفتوا ما قلت ليكم، كلّو من الحكومة يعني لو الحكومة اهتمت بالرياضة كانوا اللِّعيبة ديل بقوا زي لعيبة البرازيل لو غلبوك تطلع فرحان لأنك استمتعت بالمباراة والنتيجة ما مهمة.

صعد بقربه آخر على الطاولة أيضاً وخاطبه قائلاً:

– يا زول إنت زهجان من الحكومة ساي! أنا بشوف إنو المدربين هم السبب لأنَّهم ما شايفين شُغلهم همهُم كلّه المرتب آخر الشهر.

– لا، السبب ما المدربين، السبب الحكومة، الحكومة يا بني آدمين. عينكم في الفيل وتطعَنوا في ضُلُّه؟! إنتو شعب جبان بقيتوا زي الفيران تجروا تدّسوا في جحوركم وخالّين الحكومة تبرطع في البلد كأنه مِلك أبوها.

– الجبان والفار منو؟ يا زول صَلِّح كلامك.

– جُبنا وفيران.. كلكم جُبنا.. كلكم خوافين.. شعب جبان.. جبان.. جبااا..

ناوله لكمةً على صدغه أوقفتْ الكلمة في حلقه ودار عراك عنيف، وأين؟ على الطاولة، التي انكسرت قائمتها ووقع الاثنان على الأرض.

امتدت الأيدي متزاحمة لفك الاشتباك وتداخلت الأصوات:

– يا أخوانا روِّقوا المنقة.

– اختلاف وجهات النظر ما بخرب الودّ.. صلّوا على النَّبي.

– عليه الصّلاة والسّلام.

كّنا نتابع هذه الأحداث بفضولٍ وحماسة، متحفزين لالتقاط كل ما يقع: محفظة نقود أو علبة سجاير أو كيس سعوط أو أي شيء مما يُحمل في

الجيوب ونستفيد منه. وقفتُ بالقرب من إبراهومه مستندَين على حاجتنا، بعيداً عن مدخل المقهى نتابع ونتربص لما تجود به هذه الفوضى من عطايا. سيكون اليوم حافلاً.

كان عملي هو خدمة الزبائن وترتيب المقاعد ومسح الطاولات البلاستيكة والحديدية متصدِّعة الطلاء، وتجميع أكواب الشاي والقهوة والكركديه والحِلبة وغيرها، ثم حملها لتُغسل. لم تكن القهوة جيدة، كان الزبائن يتجرعونها على مضض. زبائن المقهى هم عمال وموظفو المؤسسة الفرعية للحفريات، وعمال وموظفو الإدارة القومية للكهرباء، والحرفيون والعابرون والمسافرون والقادمون وأصحاب المحلات والدكاكين وغيرهم.

مقهى الملك يقع في السُّوق الصغير أو السوق الجديد كما يطلق عليه أحياناً رغم قِدمه، فيه موقف البصّات والحافلات السَّفرية المغادرة والقادمة إلى ودمدني من القرى والبلدات القريبة. في الشارع المقابل للمقهى قسم شرطة القسم الجنوبي، ومكتب البريد وسينما أمير المتخصصة كغيرها في عرض الأفلام الهندية. يجاور المقهى مطعم ومقهى آخر ومخبز في ناصية الشارع، خلف المقهى تقع محلات الأقمشة والخياطين وتجار السُّكر، الذرة، التوابل، القمح، الفول المصري، البلح والكثير من المواد الغذائية، والطّواحين التي تطحن القمح والذرة، وعلى يساره في الشارع المقابل يقع استاد الكرة. وليس ببعيد من المقهى نادي الأهلي الرياضي.

المقهى مكوَّن من غرفة تحيط بها (برنده) واسعة مفتوحة يمكنك الدخول إليها من أية جهة، في الغرفة موقد ضخم به وعاء كبير لماء القهوة، أما الشاي فيغلي على الغاز، لا أعرف سبباً لذلك، أن توضع القهوة على الفحم والشاي على الغاز! جوالان من السُّكر في الركن أحدهما مفتوح والآخر في انتظار دوره. مصطبة عالية ترصّ فيها أكواب الشاي والقهوة وقناني السُّكر والهبهان والقرنفل والزنجبيل والكركديه، ودائماً يوجد كوب به ماء وملاعق. كل الطلبات يوضع فيها مقدار السكر ذاته، أحيانا نضطر إلى إعادة الكوب لأن أحدهم مصاب بسكري أو آخر يطلب المزيد من السكر. وهذه الحركة تزعجنا كثيراً نحن الذين نخدم الزبائن. ونطلب أن يوضع السُّكر في سُكريات صغيرة، لكن المعلم يرى أن جوال السُّكر، بهذه الطريقة، يفرغ سريعاً فيردِّد:

– النّاس ديل كان كبيتو ليهم رطل سكر ح يشربوه كلو، الواحد يملا ربع الكباية سُكر! عشان كدا ما تدوهم فرصة العاوز كدا بس، الما عاوز في ستين يمشي لغيرنا.

– راجل مفتري.

أقول في سري.

مياه تغلي على الدوام، الغرفة حارة جداً ودائماً يتصاعد بخارٌ كثيف مخلوط بروائح القرنفل والزنجبيل والهبهان والحُلبة. كان هناك معلم لإعداد الشاي والقهوة، في وردية الصَّباح وآخر في وردية المساء، أبوزيد من يعمل في وردية الصباح كان يتصرف وكأن المقهى ملكه، لذا كنا نلتزم

فقط بتوصيل الطلبات لطاولات الزبائن ولا نساعده إطلاقاً عندما لا يأت عامل غسل الأكواب والصواني، ولا نحضر له الماء من الحنفية ليزيد الماَء على النار. ونتعمّد التأخير حتى يصرخ فيه معلم سالم صاحب المقهى مؤنباً على تأخير الطلبات.

كانت طاولة معلم سالم في ركن البرنده، قريبة من باب الغرفة، راديو كبير استقرّ فوق رأسه على حامل خشبي حوله شبكة من أسلاك السكسبنده الرفيعة. مؤشر الراديو ركن عند إذاعة أمدرمان، حفظنا برامجها ومواعيدها وأصوات مذيعيها وتابعنا مسلسلاتها يوما بيوم، كنا نترك آذاننا عند الراديو وقت بث حلقة المسلسل، نؤدي عملنا بسرعة وبأي شكل وننصت بشغفٍ وانتباه. كان المعلم عندما يلاحظ أننا نتابع المسلسل يشغلنا بأي شيء:

(هاك يا إبراهومه أمشي جيب لي سعوط من عمك حسن).

(يا جمال لقّط الكبابي الفاضية دي ووديها جوّه للغسيل).

(أنا البدِّيكم القروش موش ناس المسلسل ديل، قوموا شوفوا شغلكم).

كنا نقوم ونعود بسرعة، وإن حدث وفاتت أحدَنا الحلقة يكون حريصاً على معرفة ما فاته، فيقصُّها له الآخر ويضيف عليها الكثير، لدرجة أننا عندما نتابع الإعادة تختلط علينا القصص. كنا نضيف قصصاً من عندنا ونتوقع أحداثاً مختلفة وغريبة ونصدِّقها، ونُحبط عندما لا تحدث. كل مسلسل جديد نتابعه كأنه أول مسلسل لنا. نخترعَ قصصاً جديدة ونتوقع

ولا يحدث أبداً ما توقعناه، لكننا نسعد دوماً بالمتابعة والإنصات.

معلِّم سالم كان رجلاً صعباً يجلس بنفسه على طاولة الكاشير، لا يأتمن أي شخص على تخليص الحساب مع الزبائن. دائم الصراخ والتوبيخ على أقل خطأ. لا يقبل بالأخطاء التي تكلِّفه مالاً. في النَّهار يكون المقهى مكتظاً بالزبائن، ويكون الجو حاراً، تغلّفه سحائب دخان السجائر والبخور وأبخرة الماء المتصاعدة من القدور، ورغم المراوحَ التي تدور طوال ساعات اليوم، يظل الجو حاراً وخانقاً وباعثاً على الضيق والتوتر. من حينٍ إلى آخر تسقط الأكواب منا أو من الزبائن وتتكسر، فيخصم المعلم منً يومياتنا إذا كُنَّا من تسبب في الكسر، ويطلب من الزبائن سداد ثمن الكوب المكسور. يردِّد عبارات كهذه:

– لو كل زبون يجي هنا يكسر لي كباية ويفوت ح أفضل شغال قُصْاد الكِبابي البتكسِّروها دي. إنتو قايلين كُباية على كُباية دي ما قروش.. الكَبابي ديل بجيبوهن ببلاش؟! بشتريهن بالقروش يا بشر.

ذات يوم كنتُ أحمل مجموعة كبيرة من الأكواب على صينية ضيقة مدلوقاً على سطحها قليل من القهوة، الأكواب تنزلق، تتزاحم وتصطك، كل واحدة تريد أن (تَتوهْط) في الصينية، أربعة أو خمسة منها مترادفة فوق بعضها، ساعة زحمة نهارية، أحد الزبائن كان مرتاحاً جداً في جلسته، كان غاطساً في الكرسي ومادّاً ساقيه خارج المنضدة، فردة من شبشبه الجلدي الضخم على الأرض والأخرى على قدمه المتشققة، بل على طرفها أقل حركة ستقع هي أيضاً، كان يرتدي جلباباً متسخاً، وعلى رأسه طاقية

برتقالية اللون مائلة إلى اليمين، ويتحدث بصوت عالٍ، مررتُ بجواره وتجاوزتُ قدميه بحرص، إن اصطدمتُ به ستقع الصينيَة. كدتُ أتجاوزه عندما مدَّ يده متحمساً أثناء حديثه، فاصطدمتْ بطرف الصينية وتناثرت الأكواب على الطاولة والأرض. هذا ما خفتُ منه. بعض الأكواب وقعت على حافة الطاولة وقفزت مرتطمة بالأرض. وقعت الصينية عليه وسالت القهوة على جلبابه.

نظرتُ إليه بحنق، ألا ترى، أعمى؟ اعتدل في جلسته ومسح على جلبابه فاتسعت رقعة السواد عليه. التقط الصينية ومدّها إليّ. وواصل حديثه!

جاء المعلم هائجاً

- يا جمال يا زفت قلت ليك مية مرة أعمل حسابك على الكبابي دي!

قلتُ بمسكنة:

- ما وقعتها أنا وقَّعها الزول دا.

- كانت في يدك ولا في يدهُ لما وقعت! لقِّط الكبابي الهرستها دي سريع وتعال لي.

أعطاني ظهره ورجع إلى مقعده.

شعرتُ بغضبٍ شديد، وبدأتُ في تجميع الزجاج وما تبقَّى سالماً من الأكواب. الرجلُ الذي كان يتحدث مع من تسبب في الحادث ساعدني

وقال لي:

- حصل خير.. حصل خير.

كنت سأبكي وأنا منحنٍ على الأرض، جرحتني شظية في سبابتي، لكنني لم اكترث لها. جاء إبراهومه ليساعدني حاملاً مقشة و(خمَّامة) ولكن المعلم انتهره وأمره بأن يتركني وشأني. كم أكرهه! ألقى لي إبراهومه بالمقشة و(الخمَّامة) وهو ينظر إليَّ، مسحتْ نظرتُه على كتفي مواسية، ومضى. جمعتُ الزجاج بيدي لم ألمس المقشة، أصررت على جمعه بيدي شظية شظية، وتمنيت أن تدخل إحدى الشظايا في قدم الرجل المتشققة وتتسبب في قطعها. جمعتُ الشظايا على الصينية، وحملتُ الأكواب السليمة القليلة بيدي الأخرى. جاء إبراهومه بعد أن غافل المعلم وكنس المكان، كنت أتَّابعه أثناء تأنيب المعلم لي، مرتدياً قميصه البني الناشف من تراكم الوسخ عليه دون المريلة الرمادية التي يطالبنا المعلم بارتدائها فوق ملابسنا المهترئة والمتسخة دائماً. تابعته وهو يمد يده بالمقشة أسفل الطاولة البلاستيكية، ثم وهو يدنيها نحوه ساحبة الشظايا الصغيرة جداً أمامها، ثم وهو يجمِّع كل الشظايا وبعض التراب وبقايا السجائر في نقطة واحدة، ويقرِّب (الخمَّامة) ساحباً كل ما حملته المقشة إليها.. شكراً يا صديقي الطيِّب. ضغطتُ على إصبعي محل الألم ولم أستمع لبقية التأنيب فكنت أعرف ما سيقوله المعلم. خصم مني راتب ثلاثة أيام، وقال لي:

- المرة الجاية أعمل حسابك، وإلا ح أطردك.

رميته بنظرة غيظ، هذا القصير البدين صاحب الكرش الكبيرة، تمنيتُ

لو قتلته وأغرقت جلبابه بدمه، بل كل جلابيبه القبيحة تلك التي لا يرتدي سواها.

لدى معلم سالم سيارة (سيهان) عتيقة صفراء اللون طلاؤها متقشّر في مناطق عديدة، باباها الأماميان يقفلان بترباس حديدي من الداخل. أحد البابين الخلفيين لا يُفتح إلا من الخارج، والآخر لا يُفتح مطلقاً. لا أظنه كان يحتاج إليه، فلم أرَ أحداً يركب معه في سيارته، لا.. لا.. غير صحيح رأيتُ أبوزيد، مرتين أو ثلاثاً، راكباً معه، هو الشخص الوحيد منّا الذي ركب هذه السيارة. فرشها القماشي الأسود ذو المربعات الرمادية الصغيرة ممزق عند حواف المقاعد خاصة الأمامية، طبقة كثيفة من التراب الناعم متراكمة على التابلوه الأمامي وعليه أوراق خضراء وصفراء يبدو أنها صفحات من دفاتر الحسابات. يضع أسفله مخدة قطنية لا يغيِّر كساءها مطلقاً ولكنه يغسله من حينٍ إلى آخر، كساؤها من قماش البوليستر رمادي به زهور صغيرة وردية اللّون. هذه المخدة ينزلها معه عندما يترجل من السيارة رافلاً في جلبابه، يجلس عليها على مقعده الطويل في طاولة الكاشير. وعندما ينتهي العمل ونقفل المقهى يأخذها معه مرة أخرى ويضعها على مقعده في السيارة.

عند وصوله يطلق (البوري) لنأتي، نمدُّ أيدينا كلُّنا لفتح الباب الذي يُفتح أساساً بالترباس من الداخل. ولكنه يحب هذا الأمر؛ أن ننتظره وأن نستقبله ونفتح له باب السيارة مثل الوزير، وإذا تأخر أحدنا يسمع ما لا يرضيه. يخرج بصعوبة، كرشه تكون محشورة تحت المقود، يسحبها ببطء، ويُخرج رجليه بتمهُّل، ساحباً المخدة معه ليضعها من ثَم تحت إبطه.

يقفل باب السيارة من الداخل بالترباس مرة أخرى، ثم يتوجّه نحو المقهى ونسير نحن كأذيال متعددة خلفه.

شغلتنا المخدة وحيرتنا كثيراً سألت صاحبي:

- حكاية المخدة شنو يا برهوم؟

- ما عارف والله يا جمال، لكن دايماً معاه، اتخايل لي هي ذاتها البنوم عليها!

- تكون مرتو ونحن ما عارفين!

غمزت له وضحكنا،

- ولا إمكن جِنْيَّة هي الجاَية ليهو القروش دي كلها!

- إمكن القروش جوَّاها يا عمك! أيوه، تلقى القروش جواها، عشان كدا شايلها معاه في كل مكان، وقاعد فيها عشان مافي زول يهبشها.

نظرتُ إليه بعد أن خطرت لي فكرة التقطها فوراً، وقال بتردد:

- لا.. لا يا فردة. الجُلك دا بقتلنا عديل كدا كان هبشنا المخدة دي!

- نعملها بحرفنة، بدون ما يلاحظ.

- كيف ما يلاحظ أنت جنَّيت عاوز تودينا التَّوج ولا شنو؟

- إنت خليها عليّ. أنا بتصرف.

- تتصرف كيف؟ قلت ليك دا ما ببعد من المخدة دي كان...

لمعت عيناه وأردف:

– إلا يكون ماشي الحمّام.

– أيوه كدا، خليك تفتحية ومعاي في الخط.

وتربصتُ بها. أربعة أيام بعد حديثنا ذاك لم أستطع أن أنفِّذ الخطة. لا يعني هذا أنه خلال هذه الأيام لم يذهب إلى الحمّام، ولكن الجو كان مُلَغْماً، كان المقهى مكتظاً أول يوم. ثاني يوم كان أبوزيد يقف في الباب وأكيد سيخبره إن رآني أقترب من طاولة الكاشير، المعلِّم يقفل على النقود في درج الطاولة ويأخذ مفتاحه معه، لن يقول له إنني حاولت أن أكسر الدرج مثلاً، ولكنه سيخبره أنني اقتربت من المنطقة المحرَّمة وأنني أنوي شيئاً. أما اليوم الثالث فقد أرسلني المعلم لعم سليمان تاجر الجُملة الذي يتعامل معه لأستدين بُنّاً وشاياً وقرنفلاً. تأخرتُ في الدُّكان، فقد كان عم سيلمان قد ذهب لصلاة الظُّهر وطلب مني مساعده انتظاره ليُقيِّد بنفسه الحساب، وبعد عودتي لم يتزحزح المعلِّم من كرسيه، وأخبرني إبراهومه أنه خرج وعاد أثناء مشواري وهكذا ضاع اليوم الثالث.

نوينا إذا وجدنا المال في بطن المخدة أن نأخذه ونهرب إلى الخرطوم، هناك لن يجدنا مهما بحث، فالخرطوم واسعة ليست كمدني، وسنجد مخبأ حتى الشرطة لن تتمكن من الوصول إليه. جهزنا ملابسنا القليلة وحزمناها في صُرّة صغيرة هي جزء من ملاءة أتغطى بها في الشتاء. و لم نخبر أيّ أحد أو حتى نلمِّح إلى أننا مسافران.

كانت في جيبي موس جديدة اشتريتها لهذا الغرض، نبّهني إبراهومه أن أتحسس أولاً المخدة وأن أفتح الكيس قبل أن أمزّقه بالموس، كنت أفضّل أن آتي من الآخر وأمزّق المخدة وكيسها اللعين، ولكنه قال لي:

- لو ما فيها حاجة ح نتكشف ونروح فيها، وعمك دا ما بِرْحَم عشان كدا أعمل حسابك.

الحمامات العمومية كانت بالنقود، تدفع أولاً، ثم تدخل لتتغوّط وتتبول، يجلس رجل تحت شجرة في مواجهة بابها وأمامه طاولة صغيرة ودرج صغير، ويعطيك تذكرة صغيرة بـ(خُمْسُميَّة)، وهو ثمن سندوتش طعمية قبل الزيادات في الأسعار. تكون الحمامات مكتظة أحياناً تضطر أن تنتظر فترة، وإن كنت (مزنوقاً) فهذا شأنك، لن يجاملك وتضطر لتتصرف حينها تحت أقرب حائط، وهو حائط الحمام ذاته لتدخل في شجار عنيف مع حارسه ويصرُّ على أن تدفع الخُمْسُمِيَّة وستدفع في النهاية حتى لو (مِيْتَينِ) قرش.

عندما ذهب معلم سالم إلى الحمام، أشرتُ بيدي لـ إبراهومه، اقترب مني أعطيته ظهري كما أعطيت ظهري للزبائن. وقف هو بيني وبين الزبائن ليغطيني. سحبت المخدة من على المقعد الطويل، تحسستها أولاً، ولكن لتوتري لم أستطع أن أُكثر من اللمس. وضعتها تحت قميصي الواسع الذي أرتديه منذ أربعة أيام لهذا الغرض. وتسحبتُ ببطء وحملتُ بكلتا يديّ جردلاً به ماء ليسمح لي بالانحناء وتخبئة المخدة، لم ينتبه لي أحد.

خرجتُ إلى الخلف، عند مكان الحنفية حيث تُغسل عِدّة الشاي.

تركت وجهي ناحية الحائط وأخرجت الموس، هممت بشق الكيس، لكنني تذكرت كلام إبراهومه:

– قبل ما تشرط الكيس هبِّش المخدة دي كويس، لو شرطته مافي طريقة للخياطة تاني ورقابنا ح تطير.

قلَّبتُ المخدة بين يديّ، كان وزنها عادياً، تحسستها، ثم بدأت أضغط عليها وأقلِّبها، لم تكن بها نتوءات أو صُرر وحزم نقود، كل ما لمسته كان قطناً.. قطناً فقط. الله يلعنك يا عمك.. دي مخدة.. مخدة بس!

كان حلمنا كبيراً، اتسع أكثر في أيام الانتظار تلك، مع كل يوم يكبر ونتمدد تحت مظلته. فاضية ليس بها أي قرش. رميتُ المخدة على الأرض بضيق فوقعت في الماء المتسرِّب من الحنفية، ابتلت ولطَّخ الطين أحد جانبيها.

– وين ما قَبْلَنا نلقى حظنا الكَعَبْ دا لاحِقنا! يلعن أبو دا حظ! في الكرشة نلقى عضم!

رفعتها سريعاً، ولكن رغم سرعتي تأخرتُ، فقد ابتلَّت المخدة بللاً شديداً، وطين كمان؟!

(ما في حلّ غير إني أجدعها قَبَلها وأشتت. العملية فارشة).

فكرتُ.

جاء إبراهومه وأظنني كنت أسمع دقات قلبه، نظر إليّ دون سؤال:

– ما تفرح.. فاااااااضية غير القطن ما فيها شيء، وكمان إتبلّت بالموية.

– موية شنو يا زول؟ اتبلَّت كيف يعني؟!

– جدعتها ووقعت في موية الماسورة وإتَّملت طين.

– إنت رَطُل ولا شنو؟! جادعها ليه بس يا جمال؟ هسى المعلم أكيد ح يعرف إننا سرقناها وح يقطع رقبتنا.

– يلقانا وين؟ نجدعها هنا ونَكُبْ البَيْرْك.

– بلاهي! ونمشي وين؟ لو لقينا القروش كان شتتنا، لكن بدون قروش نمشي وين؟!

– ما عارف. نمشي وخلاص!

– كدي جيبها!

أعطيته المخدة أمسكها ونظر إلي بحقد، جلس على الحائط ومدّد ساقيه ووضع المخدة عليها وظللتُ واقفاً.

لا أعرف أيّ شيطان وسوس للمدعو أبوزيد ليأتي في تلك اللحظة! أول ما وقعت عليه عيناه هو المخدة، ارتسمت في عينيه نظرة خبث وشماتة كبيرة. ذعرتُ، وقف إبراهومه على قدميه ودسَّ المخدة خلفه بحركة سريعة ولكنها متأخرة.

– يا سلام! بتعملوا شنو هنا؟

ودار حول إبراهومه، فحوَّل الأخير يديه من الخلف إلى الأمام.

– والمخدة دي جبتوها هنا كيف؟

أبعده إبراهومه بيده وأعطاه ظهره كأنه يقول: إنت دخلك شنو؟ لكن أبوزيد ثقيل الدم أصرَّ أن له دخلاً وسنعرفه عندما يذهب ليخبر المعلم. أمسكته من يده بعد أن احتد إبراهومه معه وتحداه، وابتسمتُ له محاولاً إقناعه بأنني من أحضر المخدة لأتمدد عليها، لم يصدق كذبتي، ونظر إلي منتظراً أن أخبره الحقيقة التي يعرفها، فغيَّرتُ الكذبة بأخرى، أننا أردنا فقط معرفة ما بداخلها. دار حولنا دورة كاملة، وظهرت شخصية أخرى فاجأتنا عندما قال:

– أنا عارفكم عاوزين تسرقوها، لكن ما بحفر ليكم مع المعلم؛ عشان تعرفوا إنو أنا زول كويس ما زيَّكم.

قال هذا بلهجة المنتصر.

ضربت على كتفه بتودد وقلت له:

– يا زيدو ياخ دي حاجة نحن عارفنها من زمان. عارفين ما ح تركِبنا ماسورة، ما تخاف كان يوم إتزنقت نحن بنحلّك من الزَّنقة.

– تحلّوني! قال يحلّوني قال.. لما تعرفوا تحلّوا نفسكم أول.

أخذ المخدة وأعطانا ظهره.

– مع إني كنت ح ألفَّها معاهو لكن سكَّتني بجدعتو دي، ولو عمل لينا ماسورة مع عملك أنا بتصرف معاهو.

قال إبراهومه.

كان أبو زيد أسمر اللون، شعره ناعم ووجهه كذلك، موفور الصحة رغم فقره وعوزه. لم نكن نحبّه، كانٍ هو من يعد الشاي والقهوة في وردية الصباح، يتعامل معنا بلؤم وتسلُّط، وكان المقرّب من المعلم ينقل إليه الأخبار ويتجسَّس علينا، وهو الوحيد الذي رأي بيت المعلم وركب عربته الصفراء العتيقة.

كنّا نشكّ بالودِّ واللطف الواضح بينهما حتى وإن تعمدا إخفاءه. نعرف بأن المعلم شاذ ويحب الأولاد ولكن أبوزيد لم يكن يبدو عليه أنه خولاً.

الشكّ تحول عندي إلى يقين ونقلتُه إلى إبراهومه، حدث ذلك في يومٍ ماطر، المقهى شبه خالٍ، جلسنا نحن في مقاعد الزبائن نستمع إلى المسلسل الإذاعي، لفت نظريً (متاوقة) المعلم كل دقيقة إلى الداخل، ثم كان ينقل عينيه بيننا بعد ذلك. هل يحصي عددنا ليتأكد من وجودنا؟ تكرر هذا الفعل عدة مرات ثم فجأة اختفى. انتهى المسلسل و لم يظهر المعلم.

كانت في يدي صينية نسيتُ أن أدخلها للغسيل، وجدتُ نفسي أحملها بعد انتهاء المسلسل، فذهبت بها للداخل ورأيتهما، وللأمانة لم أرَ الكثير، لكن ما رأيته كان كافياً لأعرف ما سبق دخولي المباغت، رأيتُ المعلم يرفع سرواله الطويل وأبوزيد في ذات اللحظة يقوم من بَرَكْته وعندما رآني سارع برفع البنطلون! معقولة! يفعلها هنا؟! لم يستطع التحكم في نفسه؟

فصلتنا المصطبة العالية فقد كنت أهمُّ بوضع الصينية عليها، خفضتُ رأسي وأحنيتُ جذعي واستدرت، لم يرني المعلم فقد كان مشغولاً بشدِّ تِكّة السِّروال، لكن أبوزيد رآني.

– الزول دا ما قصرَّ معانا ما تنسى يا جمال.

– لكن..!

– عادي ممكن نشُّر الفيلم دا، لكن لو اتكلمنا المعلم ح يطردنا، لو أبوزيد كلمو ولا ما كلمو بسرقة المخدة ح نِطَّرِد.

سكتُ على مضض.

تعاملتُ مع أبوزيد بطريقة عادية جداً، وإن أظهر هو بعض اللَّطف والودّ تجاهي. كنتُ أتوق لأخبره بأنني أعرف وأخبرتُ إبراهومه وأن سرّه قد انكشف، ولا يهمني كثيراً إن كان خولاً، لكن خوفي من الطرد هو ما أسكتني. فسكتُ والحُرقة تتآكل حلقي.

عقب تلك الواقعة التي شهدتُ على خواتيمها، وقع حادثٌ مؤلم لـ أبوزبد الذي دفعه قَدَرُه أو المعلم ليحوِّل ورديته للمساء. كان الخريف ما يزال مستمراً، والمطر غزيراً في ذلك اليوم، ومثلما نفعل في أيام كثيرة مع السَّيارة الصَّفراء العتيقة عندما تحرِن وترفض السير كُنّا نصطف خلفها و(ندفرها) للأمام لمساعدتها على التحرك. كان الوقتُ ليلاً والطريق زلقة وموحلة ومليئة بالحفر الصغيرة والكبيرة، والقليل منها كانت عبارة عن

تجويف سطحي على الطريق. تشكّلت الحُفر بفعل مياه المطر وإطارات السيارات خاصة البصّات والحافلات التي لا ترحم الأرض صباحاً أو مساء. يتجمّع الوحل في مكان معين ويجفّ بفعل الشمس التي تسطع حارة في اليوم التالي أو الذي يليه، مفسحاً المجال لحُفر وتعرجات في الطريق، ثم ما يلبث أن يبتلّ من جديد بهطولِ مطرٍ جديد، ويتجمع الوحل في نقطةٍ أخرى أيضاً بسبب إطارات السياراتٍ وعربات الكارو والركشات وغيرِها من مستخدمي الطريق، كنتَ إذا مررتَ بذاك الدّرب وغيره من دروبِ المدينة تشعر كأنك تُتأتئ أو كأنك مصاب بـ(أب شهِّق)[1].

بعد أن ركب المعلم السيارة ووضع مخدته تحته، جلس وتَرَبس الباب من الداخل، قال لنا:

- يا أولاد، يالّلا دَفْرَة.

مسكينة هذه السيارة التي تحتملك كل يوم!

كنا أربعة في موكب التوديع اليومي نقف مُصطفين، نستمع لعويل السيارة وصراخها كأنها تستنجد بنا. هرعنا إليها، ووضعنا أيدينا في مؤخرة السيارة، بكل قوتنا بدأنا في الدفع، إبراهومه وأبوزيد على الأطراف، وأنا وآدمو غاسل الأواني في الوسط. حاولنا مرّة ولم تتحرك، مرتين تحركت قليلاً ثم توقفت، ثلاث مرات لم تتحرك، ومازالت تجأر..

(1) الفواق

– يا جماعة شدّوا حيلكم شوية.. إنتو جعانين ولا شنو!

لم نرد.

– واحدة قوية.، قوية بحيلكم كُلّو.. ياللّا.. ياللّا.

وبكل قوتنا دفعنا السيارة التي تحركت إلى الأمام، ثم انفلتت فجأة من المعلم وتراجعت. جميعنا ابتعدنا سريعاً بخطوةٍ كبيرةٍ إلى الخلف ثم انحرفنا عن مسار السيارة، لكن أبوزيد تعثر بحفرةٍ خلفه، وقع ومشت السيارة على قدمه وأحدثت فيها العديد من الكسور.

بوقوع أبوزيد صرخنا في المعلم:

– وقِّف.. وقِّف.. أبو زيد وقع.

لكن السيارة لم تستجب لمحاولات المعلم وسارت على ساق أبوزيد بارتياح.

أسرعنا لتخليصه من هجوم السيارة عليه، ولم ندرِ كيف فعلناها بأن أجبرنا السيارة أخيراً على التحرُّك إلى الأمام، ولكن بعد أن هرست ساقه.

– لا حوللاااا! وقعة حارَّة ياخ! كراعو اتهرست هرس!

– يا أولاد دا كسر خفيف..

قال المعلم بعد أن نزل من سيارته ورأى أبوزيد.

صراخ أبوزيد المدوي من الألم وهو يمسك بساقه، ملطخاً بالطين

وجالساً على الأرض، لم يوحِ للمعلم بأيِّ شيء سوى أخذه للبصير!

بخيل حتى على أبو زيد! بخيل حتى على نفسه! الله يلعنه.

– هسى أوديهو لـ أب كريك البصير أسبوع واحد ولا إتّنين وتتعالج.

نهره أحد المتجمِّعين الذين توافدوا عندما سمعوا صراخنا:

– يا زول بصير شنو! وديهو المستشفى عديل كدا.

– لا ما بحتاج.. أب كريك دا خطير في الجبيرة ولا أحسن دكتور، والمستشفى موضوعها طويل ولحدي ما نصل سين وجيم و...

– سين وجيم ولا مصاريفها كتيرة!

قال آخر بنبرةٍ لائمة.

وجَّه إليه المعلم نظرة عداء

– وإنت الدّخلك شنو؟! دا عاملي وأنا مسؤول عنو.

– مسؤولية شنو دي! هسى إنت بتتجابن عليهو وما عاوز تعالجو بعد ما هرست ليهو كراعو عديل كدا بعربيتك المِصْدِّية دي!

– يا زول أحسن ليك تصَّم خشمك دا.. وللَّا بجي بصُّمّو ليك أنا.

وهمَّ المعلم بالانقضاض عليه، لكن اثنين من الجمع أمسكا به وهما يقولان إن المصاب أهم الآن من أيِّ شجار، وعليه أن يؤجل الشجار لاحقاً.

حملنا أبوزيد وأدخلناه السَّيارة الصفراء. و لم أره بعد ذلك إلا مرتين، مرّة بعد ستة أشهر وهو يعرج وقد أصبحتْ ساقه المصابة أقصر من الأخرى، جاء وتحدَّث مع المعلم، احتدَّ الكلام بينهما وعلت الأصوات، لكنني لم أتبيِّن كلامهما كله، إنما سمعت عبارة واحدة من أبو زيد (حقي ما بخليهو). ثم تفاجأتُ بالمعلم وهو يطرده. علاقتك به لم تشفع لك يا أبوزيد. ماذا جنيت الآن؟ المرّة الثانية التي رأيته فيها كانت بعد أن سمعنا عن الحادث المأساوي للمعلم في عقر داره.

عملي في المقهى مكنني من الحصول على وجبتين، إضافة إلى إمكانية شرب كوب من الشاي أو القهوة، بل أكثر؛ ممَّا نأخذه خلسةً أو ما يعطينا له عامل المساء، أو حتى ما يتبقى في أكواب الزبائن الذين يغادرون بسرعة للحاق ببصٍ أو حافلة.

في النهار يشرب الزبائن داخل البرنده، أما في المساء فيجلسون في الخارج. أحياناً نقضي الليل في المقهى خاصة في تلك الأماسي التي تُقام فيها مباريات كرة القدم في الإستاد. نكنسُ الأرض منذ العصر، نرشّ على ترابها الماء، نرصّ المقاعد والمناضد في الخارج، نضع المباخر على طاولات صغيرة متناثرة. وننزوي في القرب نستمع إلى نقاشات ومشاحنات ومشاجرات المشجعين. يصمت الراديو تماماً في أماسي المباريات.

المساءات كانت جميلة، تنخفض درجة الحرارة ويروق مزاج البشر، حركة نشطة تعم الشارع، تنقل الدكاكين على جانبي المقهى وعلى امتداد الشارع مقاعدها خارجاً، هناك طبليات لبيع السجائر والرصيد

والحلويات، تجد أمام المخبز رجلاً يضع موقداً وعليه صاج مليء بالزيت الحار، وفي حركة سريعة مثل الدجاج الذي ينقر الحَبَّ تجده يدخل يده في حلة عجين الطعمية ويرميه في الزيت، إلى أن يمتلئ الصّاج بأقراص الطعمية الطافية والتي يتغير لونها إلى الأصفر ثم البني الفاتح، يخرجها بمصفى كبير على دفعتين أو أكثر ويضعها على الصينية قربه. يضعها مع البيض المسلوق في سندوتشات مزودة بالشطة، يمكنك أن تشتري الخبز الساخن من المخبز والطعمية والبيض من البائع، أو إن أردت يمكنك أن تشتري سندوتشاً. نحن كنا نشتري الرغيف من المخبز ونشتري منه الطعمية فقط. كانت هذه الطريقة أوفر يمكننا أن نشتري لكلّ منا رغيفين ونحشوهما بالطعمية بسعر السندوتشين اللذين نشتريهما جاهزين. وهناك أيضا عدد من الطبليات لبيع السِّمك المحمّر والصِّير الصغير، كان النظر للسمك البني خلف زجاج الطبلية متعة بحدِّ ذاتها، نظل ننظر إليه لأيام طويلة ثم نحسم أمرنا على شراء الصِّير فسمكة أو سمكتين لن تكفينا، وأكل السمك لدينا (قزقزة) وليس أكلاً للشبع، لا يمكننا أن نشبع من السمك فهو غالٍ وكل مالنا سيذهب في وجبة سمك مُشبعة.

في ساعات العصر قرب المقهى يبدأ عمك آدم صانع (الأقَاشِي) العظيم، شواء شرائح اللحم بعد أن يضعها على السيخ ويُبْهرها بخلطة بهارات خاصة بـ(الأقاشي) ثم يقطِّع البصل ويعطيك نصف أو ربع ليمونة مع السيخة التي تكون ساخنة ومقطّعة وتُسيِّل لعابك. كان سعره غالياً، ومهما أكلت منه لن تشبع، لذا كان هو أيضاً قزقزة من وقتٍ إلى آخر،

المشبع فقط هو الفول وفتة الفول. نأكل مثل الأحصنة، وسمعنا أنه فعلاً طعام أحصنة في بلادٍ بعيدة.

وأمام مدخل صالة السينما تجد بائعات التَّسالي والفول المدمس والنبق والتلبدي. وهؤلاء نخطف منهن فقط ولا نشتري، نخطف ونجري وتلاحقنا لعناتهن وسبباهن وشتائمهن؛ إذ لا يمكنهن ملاحقتنا، فعندما تنهض الواحدة من مقعدها وتمسك بحجر أو دومة أو علبة فارغة أو ما يقع تحت يدها نكون قد جرينا بعيداً ونحن نتلفت ونضحك ونقشِّر التسالي. هنّ في العادة نساء كبيرات في السن، تجد الواحدة جالسة وأمامها صينية مليئة بالتسالي والفول والنبق والتبلدي، أحياناً بعض الحلويات واللبان، تجلس على مقعد وتضع أمامها صينية بضاعتها على حجارة مرصوصة، أو حتى مقعد تحضره معها من البيت، وأصبحن يجهزّن ما يرميننا به مع عدّتهن، تجد قربها الكثير من الأشياء التي إذا ألقتها على رأسك تدميه.

ضجة وأغاني وحركة وحافلات عابرة، وأناسٍ مترجلون منها، بعضهم يدخل المقهى أو المطعم أو يتوقفون عند إحدى الطَّبالي. وقد تجد آخرين في انتظار الحافلة لتدخلهم إلى أحياء المدينة. إذا نظرت داخل الحافلة قد ترى من يتطلع بفضول على الطريق، وربما يلوح لصديق على أحد المقاعد، أو يؤشر له محيياً أو ينادي عليه مؤكداً على موعد، أو ربما ينزل ليشاركه الجلوس والونسة وشرب الشاي أو أكل سندوتش طعمية أو كيس تسالي. هذه الحركة المستمرة تتضاعف أيام مباريات كرة القدم في الإستاد.

ذلك اليوم بعد انتهاء المباراة، كنتُ أراقب حركاتهم العصبية وأستمع

إلى أصواتهم العالية المتشنجة وأسأل نفسي: النَّاس ديل مالهم؟ ليه بصرِّخوا وقاعدين هنا يبعزقوا في قرشوهم؟ ليه ما بشوفوا الكورة في التلفزيون في البيت! على الأقل ما ح تكلفهم تَمْن التذكرة ويكونوا راقدين مرتاحين في بيوتهم؟!

سألتُ إبراهومه:

- النَّاس ديل قروشهم مِحرِّقاهم ولا شنو؟

- لا، ديل شاردين من نسوانهم!

وما أن أتمَّ جملته حتى خبط أحد المشجِّعين على الطاولة بقوةٍ أوقعت أكواب الشَّاي وانكسر أحدها، وقف وكان يصرخ بغضبٍ على محدثه. وفي لمحة انحنى والتقط شظية الزجاج وجرح بها عنق محدثه، بل قطع وريده.

قطع وريده بقطعة الزجاج من الكوبِ المكسور!

وكان ذاك اليوم هو الحد الفاصل بيني وبين عملي في المقهى، ليس لأنني زهدتُ فيه؛ بل لأن المعلم رأى أنني تكاسلتُ ولم أقم بعملي كما يجب، فطردني!

3

كان كابوس العودة لساعات الجوع الطويلة يصيبني بالفزع، وأنا لم أدَّخر شيئاً، اليومية لم تكن تكفي للكثير: بضع سيجارات وسندوتش فول وأحياناً طعمية في الفطور، وفتَّة فول في العشاء، أما الترفيه لم نكن نصرف عليه مالاً. أنا والرِّفاق كنَّا نتدافع أمام باب سينما أمير الغربي، الذي كانت الفجوة بين ضلفتيه تتيح لنا مشاهدة الأفلام الهندية الراقصة الملونة بعينٍ واحدة أحياناً، وأحياناً نرى نصف الشاشة أو أكثر قليلاً؛ شق البابِ ضيق جداً ونظل نسحب إحدى الضلفتين لتوسعته طيلة الفيلم، ونحن نتململ ونتزاحم ونتشاجر ونتعارك ونسب بعضنا طيلة الوقت. من يأتي أولاً يشعر بأحقيته في أن يكون هو الألصق بالباب ورؤية الشاشة كاملة، ولكن الأطول والأضخم والأكثر قوة يمكنه المشاهدة بارتياح أيضاً، إذ أن جسده يسمح له أن يحظى بالفرصة دون الآخرين، ولسببٍ آخر أيضاً هو

تخلّي الأضعف عن مكانه له خوفاً أو رشوةً ودفعة مسبقة لخدمة لاحقة كأن يدافع عنه ويسانده ويضرب بدلاً عنه في شجار آتٍ ولا بُدْ. ومن لا يتمكن من مشاهدة العرض الأول للفيلم، يمكنه مشاهدة العرض الثاني الذي يبدأ العاشرة ليلاً، أو حتى اليوم التالي وعادة ما نُشاهد الفيلم ذاته طيلة ليالي عرضه، لأن الكثير من أحداث الفيلم نفوّتها لانشغالنا بالتدافع والعراك والشتم. يوم الموت الحقيقي هو أن يكون بطل الفيلم أبوطويلة أو أبوشلخة، اعتدنا أن نسمي أبطال الأفلام حسب أشكال أجسادهم أو العلامات الظاهرة. البطل الطويل جداً هو أبو طويلة، محبوب جداً، وهو بطل حقيقي، يمكنه قتل عشرة خونة في ثوانٍ ودون أن يتحرك من مكانه، يده فقط هي التي تتحرك، بل إنه لا يلتفت يمكنه رؤية الخائن حتى لو كان خلفه وكأنه يشم رائحته، نصرخ نحن:

- أيوه، ورّيهو!
- طلّع حَنانو ذاتو!
- وَرَاك.. وَرَاك.. أعمل حسابك.

أحياناً في حالات البطر ندخل شعبي، وشعبي يعني أن نجلس على الأرض، هناك قريباً من الشاشة الضخمة، يضع كلٌّ منا (شبشبه) تحته ويجلس على الأرض المبلطة بالأسمنت، نضع نعالنا أسفلنا ليس تفادياً للتراب الناعم الكثيف، ملابسنا هي التراب ذاته، بل نضعها لتحمي مؤخراتنا من حرارة الأسمنت خاصة في الصّيف والتي تسبب لنا سخانة البول.

يوم عيد هو يوم دخولنا الدرجة الشعبية، نحمل معنا ما خطفناه من بائعات التسالي والفول، وما نلتقطه من بواقي أكياس ترمس أو فول أو أكياس سعوط تحت الكراسي في الدور الوسط واللَّوج، ذاك العالي الذي إن جلست على أحد مقاعده تشعر بأنك قريبٌ للسماء، السينما كانت مكشوفة لا سقف لها وهذا أحد أسباب قسوتها في الشتاء.

لم يكن من المسموح تعدينا على الأقسام الأخرى، مكاننا هو الدرجة الشعبية أو الأرض، بالأساس هناك حاجز بيننا وبينهم شبكة من السلك، ولكنه لا يعجزنا، نقفز كالقرود ونصعد للقسم الأوسط و(اللّوج) أيضاً، وعندما يصرخ رواد السينما: يا ودّ أمشي.. أمشي من هنا. يلاحقنا العمال ليعيدونا إلى أرضنا، يحدث هذا عادة في وقت الإعلانات. أيضاً الصراخ يعلو والسِّباب عندما ينتشي أحدنا من شمه (للسلسيون)[1] وينهض مبتسماً ليمسّ تلك الحسناء على الشاشة أو يتعاطف تماماً مع البطل فيساعده بأن يفشي مخبأ الخائن ويؤشر عليه:

– هنا ورا الصندوق دا..

إذا نظر الجالس في القسم الأعلى (اللّوج) سيرى العديد من الرؤوس في أسفل الشاشة، العديد من الأيدي المزعجة التي تتحرك جيئة وذهاباً، فيصفِّر المشاهدون بعصبية صفيراً متواصلاً، وربما يقف عدد منهم صارخين محتجين علينا، وعلى عمال السينما، ولاعنين السينما وأصحابها، ومطالبين برمينا خارجاً، لكننا نجري في كل اتجاه، ويجلس من تسبب أساساً في هذه

(1) مادة مخدرة.

الفوضى بهدوء وكأنه لم يفعل شيئاً ويترك العقاب لغيره. العمال لا يسألون المؤدبين والهادئين منا، ولتهدئة الضجيج عادةً يقوم العمال بطرد مجموعة ممن قبضوا عليهم حتى وإن كان المقبوض عليهم لا ذنب لهم.

تجد قرب كل منا على الأرض أكواماً من قشر التسالي والفول والترمس، نأكل ونلفظ، نأكل ونلفظ. قد يتشاجر اثنان على عقب سيجارةٍ أو بقية كيس تسالي فيتقاتلان ثم يكبر الشجار فيصير بين شلّة وشلّة مقلّدين ما رأيناه للتو من حركات قتالية في الفيلم، وكان هذا أيضاً مدعاة لتدخلٍ عنيف من العمال لفرض النظام والهدوء. نُضرب ونُطرد جميعاً، نحتج ونصيح ونجري في كل اتجاه، ثم نصرخ محتجين:

– رجِّعوا لينا قروشنا.

– ما طالعين.. دخلنا بحقنا.

يغضب رواد الدرجتين الوسطى و(اللوج) ويطالبون إدارة السينما بالتدخل، بعضهم يترك العرض ويخرج ساخطاً لاعناً، وبعضهم يصرخ من مقعده، وبعضهم يصفِّر ويضرب بأقدامه الأرض، لكن العُشاق يجدونها فرصةً لاختلاس قرصات وبوسات وأحضان.

توقف الإدارة العرض وتضيء الأنوار. يطاردنا العمال، نجري ونتشتت ونقفز على شبكة السلك للأعلى، وقد تصطف مجموعة وتصرخ بأعلى الصوت وتصفِّق في الآن ذاته وتغني:

– أدّينا قُرُوشنا.. أدّونا قُرُوشنا ما بتحُوشنا.. أدّينا قُرُوشنا.

ولن تسكت المجموعة التي تظل تنمو ويعلو صوتها حتى تُصدر الإدارة على مضض الأمر للعمال بأن يتركونا، ثم تعتذر للمشاهدين الغاضبين والضجرين أو الغائبين في بحور العسل، وتُعلن مواصلة العرض.

ترك إبراهومه العمل في المقهى باختياره. وأصبحنا الاثنين بلا عمل بسبب لحظة غضب وهزيمة فريق كرة قدم! علينا أن نجد البديل الآن وإلا لجأنا إلى النشل وهو ما لا نجيده، ومن أول جيب نَمر عليه سيقْبُض علينا. النشل فنّ الخفة. هذا ما كان يقوله كُتِّي:

- ما ممكن تنشل ويدّك تقيلة وما بتفكر ولا بتتصرف سريع!

خفتُ على يدي من القطع، ولكن ظل النشل كخيارٍ آخر قد ألجأ إليه بعد أن أنجح في تلك الاختبارات التي كان يخضعني للتدرب عليها.

كُتِّي فنان في الخفة والقصّ، يده صغيرة، وعينه لمّاحة وتصرفه سريع مثل الفهد. يرتدي على الدوام طاقية من الصوف بُنيَّة اللون، لا يخلعها أبداً، قد تراه دون شبشب على قدميه، لكنك أبداً لن تراه دون طاقيته التي يسكن الغبار في ثنيتها وخيوطها، كانت الطاقية خزنته التي يدسّ فيها سريعاً ما نشله. يرى الضحية. يتقرَّب منها. يخرج موسه الرفيعة وبسرعة ودون تردد أو تلّفت يحدث جرحاً في الجيب يأخذ ما فيه، ويدسه تحت طاقيته. مكان مبتكر للتخبئة!

تستجيب الجيوب لـ كُتِّي، له سحر عليها كبير. لا أدري كيف امتلكه لكنه يقول إن هذا الفن ورثه عن أبيه الذي ورثه عن جده. دوماً يفخر بهذا. يقول:

– النشل داير قوة القلب والعين، ما ممكن تنشل زول وأنت بترجف زي عود القصب! ولّا تتردد في مدّ يدك كان فاضية كان فيها موس. كدا ما ممكن، لازم تكون زيّ الشّبح مافي زول يشوفك، يدك بس أهم جزء فيك. أبقى هوا، ما تبقى ريح يسمعوا صوتك، خليك نسمة لطيفة ظريفة تهفف الجلّابية بحنان كدا وتشاغلها برّاحة.. برّاحة. أما نشل البناطلين وشنط النسوان عندها طُرق خاصة بيها يا عمك. أفهم.. جمال، فتح القَرعة دي.. ويقرع بخفة على رأسي.

أسأل إبراهومه:

– تفتكر ح اتعلمها كويس الشغلانة دي؟

– لازم ناكل على بال ما تتعلمها، أنا ما بنفع فيها، عارف نفسي.

فكرنا في بيع الماء البارد في السوق، ولكننا سنحتاج إلى أوعية كبيرة وأكواب وثلج كل يوم، وليس لدينا مال لنشتري هذه الأشياء. تناقشنا فيما علينا فعله، وكاد أن يصفعني عندما اقترحتُ عليه أن نستدين، نظر إليّ كأنه يقول لي: إنت مجنون! منو البديّن ناس زينا!

بعد تفكير سألني:

– طيب رايك شنو نشتغل مع ناس نبيع ليهم التُّرمُس و(الكبكبي) ونوفر لحدي ما نشتري عِدَّتنا ونبدا شغل برانا؟

– فكرة حلوة، ولكن نلقى ناس كيف؟

– ممكن نكلِّم لالوْ ونخليه يساعدنا، هو شغال مع ناس ويمكن جيرانهم أو أهلهم عايزين زول يبيع ليهم.

إيجاد عمل مع أسرة صعب جداً، ذاقتْ الأسر الكثير من لدغات أمثالنا، وانعدمت الثقة، تُفضِّل الأسر دائماً أن تشغِّل من كانت سيرته طيبة وهو شيء نادر داخل مجتمعنا ذاك. لكن ولحُسن حظنا أن لالوْ سمعته طيبة وعَمل مع هذه الأسرة فترة طويلة وثبتت أمانته. رغم أنه يأكل أحياناً من بضاعته ويعطينا معه ويدّعي أن الزبائن تطالب بزيادة أو أن (الشمَّاسة) هجموا عليه وأكلوا الترمس و(الكبكبي) الذي معه، أو أن السُّوق نائم ووزع هو البضاعة على الشحاذين.

على كلٍّ كان هو (مِحجاج) وبارع في نسج القصص وتنويعها.

بعد اسبوعين من طردنا من المقهى، وجد لنا عملاً مع جيرانهم. أبيع أنا الترمس و(الكبكبي)[1]، وإبراهومه يبيع (الداندرمة)[2]، كنتُ حينها في الرابعة عشر من عمري، ويصغرني إبراهومه بعام تقريباً.

صباح أول يوم في العمل كان صعباً، ملئ بالتحذيرات والمحاذير من ست البيت:

(1) الحُمّص.
(2) عصير يعبأ في أكياس صغيرة ويُجمَّد.

(أوعكم تكسرو التيرمس دي. ولّا توسخوها- ما توقِّعوا أكياس الترمس في الواطة لأنها بتشيل التراب).

(غسِّلوا يدينكم كويس، ما توسخوا الجرادل بالعرق وبالتراب).

(لو كسرتوا يد الجردل بكسِّر يدينكم، وما تختوا الحاجات وتمشوا تلعبوا).

(عندكم تلاتة يوم بس، لو شغلكم ما عجبني بطردكم، لف ودوران ما بنفع معاي بطردكم طوالي أنا ما بلعب). سمعتوا الكلام دا؟

أجبنا بصوت واحد: أيوه، سمعنا.

تركنا معلم سالم خلفنا لنجد أخرى؟ ما كل هذه التحذيرات؟ إنها امرأة متسلطة.

نظرتُ إلى إبراهومه كان يتابعها وهي تضع البضاعة. تلفتُ حولي مستكشفاً، كان منزلهم عبارة عن غرفتين متلاصقتين تفتحان على اتجاه واحد، مما أتاح لي رؤية الثلاجة التي تبدو جديدة، اشترتها بالتقسيط، أظن هذا، مما أراه من حالها لا يمكنها إلا أن تشتريها بالتقسيط، وكل هذه التحذيرات لدفع ثمنها كما خمنتُ أو تجميع جزء منه الأقل. خفَّ ثقل إحساسي بالمرأة قليلاً، هذه الأُسرة أقرب كثيراً للفقر من الغني.

كنا نقف في الحوش، هناك عريشة واسعة من الزنك الأبيض تقف على أعمدة حديدية ومستندة على حائط الجيران، تُستخدم كمطبخ ومقيل في الوقت ذاته. مازالت آثار (المِقشَّة) على الأرض الترابية في المساحة

الخالية من الحوش. على الجانب الأيمن في مواجهة باب الشارع زُرعت بعض الخضروات في مساحات صغيرة، وسور من شجيرات الحناء متوسط الطول يفصل هذا الجزء عن بقية الحوش. على إحدى شجيرات الحناء تابعتُ حشرة (أبو الزُّنَّان) وهي تنتقل من فرع إلى فرع بحثاً عن لونٍ أخضر فاتح لا أدري ما هو، ربما كان زهرات صغيرة. لطالما لعبنا بـ (أبو الزُّنَّان)، ولطالما رأيته وهو يحُط على تلك الزهرات الصغيرة، أظن أنه يتغذى عليها.

كنا نربط الحشرة بخيط من إحدى قدميها ونمسك بطرف الخيط ونجري، يصدر منها صوت ززززن.. ززززن.. زززن ولذا سُميت (أبو الزُّنان). لها ظهر ملّون أخضر وأسود وبنفسج وألوان شتى، تنعكس على ظهرها أشعة الشمس فيصبح جميلاً جداً، ليس حشرةً وإنما لوحة بديعة نلعب بها ولها صوت، ولكن أيضاً لها رائحة كريهة أن تبرزت على اليد، وأكثرنا استمتاعاً من كان (زُنَّانه) الأكبر حجماً.

سلَّمت ست البيت إبراهومه تيرمس الداردمة، وسلّمتني جردلين متفاوتي الحجم، الكبير للترمس والصغير (للكبكبي)، ثمن الجردلين عشرة جنيهات، وعليّ أن أبيع ما فيهما وأحضر العشرة جنيه كاملة بعدها آخذ أجري. أعطتني كيسين صغيرين من كل نوع، وكذا أعطتْ إبراهومه ولم تنسَ (الداندرمة)، لكل منا كيس، وجنيهان لنا الإثنين للفطور. أظنها أرادت أن تقول: أنا كريمة معكما فلا تسرقاني! أو قد تكون إشارة ترحيب إن أحسنَّا الظن. لكنها خيبت ظني هذا وقالت: سيكون لكما كل يوم مثل هذا! لا، إنها ليست مثل معلم سالم، بل أكرم منه كثيراً.

ذهبنا إلى السوق الصغير. في طريقنا استطعت بيع ربع الكمية تقريباً وإبراهومه ثلثها. كان اليوم جمعة، الأطفال منتشرين في الشوارع، بعضهم يلعب بكرة معلّقة على عامود الإنارة، وبعضهم يلعبون (البِلّي) ويتغالطون ويصرخون. الأصغر سناً يجرون ويلاحقون بعضهم بعضاً. لكل فترة لعبة مختلفة، أحياناً تنتشر لعبة الحرب فيصنع الأطفال سيوفاً من الحديد الصدئ، وأحزمة مما يتوفر لهم، ربما يكون حزام بنطال أو قطعة قماش يربطونها في الوسط، وأحياناً حبال من البلاستيك أو من السعف. وأحياناً يلعبون (البِلّي) ويستحدثون طرقاً وقوانين للعبه كل مرة. في بعض الأوقات كل الأطفال يميلون لكرة القدم وأحيانا للعب (الليدو)، و(الغميضة) ويبتكرون الكثير من الألعاب في كل موسم. عندما نجدهم يلعبون كرة قدم أو البلّي نترك حافظاتنا ونلعب معهم، نحب أن نريهم مهارتنا في لعب الكرة، ونعتمد في أحيانٍ كثيرة على قوتنا أكثر من المهارة فنحرز الأهداف الواحد تلو الآخر، وننسى أمر البيع تماماً.

هؤلاء كانوا سوقنا، أيّ مكان فيه أطفال هو سوق حار، إنهم أكثر فئة تشتري بضاعتنا، خاصة لو كان اليوم جمعة، أو كانوا في إجازة من المدارس، يكون سوقنا رائجاً. في أيام الجُمْع والإجازات يكون الوقت المناسب للبيع هو الصباح والعصر، أما في الأيام العادية فنحن نفضّل التواجد في الأحياء ظهراً، أي بعد عودة أولاد المدارس كما كنا نطلق عليهم، أو نتعمد مرورنا بالقرب من المدرسة أو طريقها وقت خروجهم منها. كنا نرى أنهم أولاد مدّلعون وناعمون، (أولاد ناس) يعني، لا جرأة لهم مثلنا ولا يعرفون في الدنيا مثلما نعرف، أحيانا نحسدهم لأن لهم

بيوتاً وأهلاً، ولكنهم ليسوا مثلنا، فنحن ملوك الشارع ولا يمكنهم التغلب علينا في أي شيء سوى القراءة.

البيع في السوق الكبير ليس جيداً، الناس هناك يفضلون العصائر والماء البارد. ويطالبون دوماً بزيادة، لا يكتفون بما يُعطى لهم مقابل ما دفعوه، بل يطلبون الزيادة وإن كانوا لا يكترثون للحصول عليها فعلاً، وكأنهم يريدون أن يؤكدوا على قيمة قرشهم الذي خرج من جيوبهم، لذا لا نبيع عادة في السوق الكبير، بل نفضِّل البيع في السوق الصغير لأننا لن نحتاج مالاً لركوب المواصلات لنصله. بالإضافة إلى أننا اشتغلنا في المقهى ونعرف السوق الصغير بشكل جيد. كنا ندخل دائماً في مشادات مع الزبائن حول الزيادة:

– يا زول دا قدر حقك بس، مافي زيادة.. لو عاوز زيادة أدفع أكتر.

وعندما نراه قد مزَّق الكيس الذي اشتراه وبدأ في أكل الترمس نقول له:

– لو ما عاجبك رجعو.

ينظر إلينا ويمضي.

في اليوم الأول، كان حظنا جيداً بعنا كل الترمس و(الكبكبي)، وبالجنيهين اللذين أعطتنا إياهما الأم، مع الجنيه الذي كان معنا اشترينا صحن (فتة) من ماء الفول وبها حبات منه، وطماطم وبصل وجرجير

مخلوطة مع الخبز وعلى سطحها زيت السمسم. رفض البائع إعطاءنا جُبناً أبيض أو حتى ماء الجُبن كي يكسب (فَتَتنا) مذاقاً شهياً:

- لو عاوزين جِبْنة ح أنقّص ليكم عدد الرغيف.

هكذا قال.

(مَليّ البطن لساعات أخير من الضُّواقة[1] على اللسان)، هكذا فكرنا.

عُدنا في وقت مبكر، حوالي الواحدة ظهراً، فرحت الأم لأننا بعنا كل ما معنا وأعطيناها المبلغ كاملاً. ووعدتنا لو نجحنا كل يوم مثلما فعلنا اليوم ستزيد الكمية ويزيد معها نصيبنا.

ظللنا على هذا الوضع شهرين كاملين، نبيع كل الكمية أو أقل بقليل في بعض الأيام. لكننا لم نوفر جنيهاً واحداً لشراء الجرادل والأكواب لنبدأ شغلنا في بيع الماء. كنا نأكل بأجرنا كله، وأحياناً لا يكفينا، نظلّ نسير شطراً كبيراً من النهار، نتعب ونعرق ونجوع.

كان أحمد ابن الأسرة يصغرنا قليلاً، في كل جمعة حين يكون موجوداً يلح علينا أن نعلّمه كيفية صُنع أشكال من الخيط، كنا نربط الخيط من طرفيه، ونُدخل أصابعنا داخل الحلقة وبأطراف أصابعنا نداخل أجزاء الخيط في بعضها ونشكل منها أشكالاً: نجمة، فراشة، أرجل بطة، ونتبارى في سرعة تفكيك الخيوط المتشابكة، بسهولة ودون عقدة واحدة. كانت تعجبه

(1) التذوق.

كثيراً هذه اللعبة ويودّ بشدة أن يتعلمها، وكان دائما يخطئ ولا يشابك الخيط بالطريقة الصحيحة، ولم ييأس ظل يحاول جمعة وراء أخرى.

لديهم شجرة نبق بالقرب من الباب، نلتقط أقرب حجر ونضرب به الشجرة ونلتقط بسرعة ما يسقط من الشجرة، كان أحمد أحياناً يعطينا النبق الذي تساقط بالليل أو أسقطه هو. كان كريماً للغاية، إذا جئنا يوم الجمعة في موعد الوجبات كان يقدِّم لنا شيئاً لنأكله، وكان في مرات كثيرة عصيدة بملاح (تقلية). نضع الصينية تحت شجرة النبق على الأرض ونأكل بسرعة كبيرة وكأنه سيغيِّر رأيه ويسحبها من تحت أيدينا.

في إحدى الجُمع حضرنا ولم نجد الأم، جارهم في الشارع الخلفي مات في الصباح وذهبتْ للعزاء. طلب أحمد أن نلعب معه الليدو لحين عودتها. إبراهومه لم يكن يعرف حتى قراءة عدد النقاط على (شيربيش) الليدو، كنت أستطيع القراءة والكتابة، تعلّمتها قبل مجيئي هنا. يمسك إبراهومه (الشيربيش) بيده ويعد واحداً واحداً ويخطيء في العدِّ كل مرة. كان يفلح فقط في الصراخ: (يك)! عندما يكون (يكاً) نضحك عليه ونهزأ به.

– أنت ما بتعرف إلا الـ يك؟!

– بتضحكوا ليه؟ أهلي ما ودَّوني مدرسة.

– أهلك وين؟ سأل أحمد

– هسي ما عارفهم، لكن لما طردني راجل أمي كانوا في كمبو جمب الحاج عبد الله.

- طردك ليه؟

سكت إبراهومه وتشاغل بعدّ الشيربيش.

أنا لم أسأله هذا السؤال من قبل، وهو لم يسألني أيضاً ولا أدري لماذا؟

كان أحمد بارعاً في اللعب، تحمّس وقال لإبراهومه سأعلمك القراءة. لم يكترث إبراهومه وظل يحسب الخانات ويحرِّك كلبه من خانة إلى أخرى. خفتُ أن يسألني السؤال ذاته الذي وجهه لصديقي وتمنيتُ ألا يفعل، لكنه لم يسألني كأنه شعر بي.

بعد أن أنهينا جولة فاز بها سألنا:

- جعانين؟

دون تردد قلنا: أيوه، ما فطرنا.

وكان ذلك اليوم عيداً بالنسبة لنا، أحمد أخرج كل البيض في الثلاجة عددناه كان دستة، فقعناها جميعا وحمِّرناه بالزيت، وجدنا أيضاً كبدة في الثلاجة سخناها، وفول وجبن، وضعنا كل هذا وأكلنا كما لم نأكل من قبل رغم أن البيض كاد أن يحترق. حتى أحمد أكل كما نأكل بشراهة وشهية مفتوحة وعين ضيقة، اللقمة تزاحم اللقمة في الفم.

في الجُمع اللاحقة كنا نُصاب بإحباط عندما نجد الأم ونقول بحسرة:

- ضاعت علينا أكلة دِسِّيسة!

في أحد أيام الكساد، وكان يوم مدرسة مازلتُ أذكره، كان يوم اثنين

و لم نكن قد صرّفنا بضاعتنا، فظللنا نسير لقتل الوقت لحين عودة أولاد المدارس، فشرعنا في النداء على بضاعتنا بتنغيم:

تُرمُس تُرْمُس كَبْكَبِيْ.. شِيل الحَلَبي وألعَب بيهْ
تُرمُس تُرْمُس كَبْكَبِيْ.. شِيل الحَلَبي وألعَب بيهْ

وظللنا ننادي إلى أن مررنا دون قصد بشارع يعمل فيه الحَلَب بيض البشرة، كان الشارع للحدادة وهم حدادون في الغالب، يصنعون المواقد، ماسكات الجمر، الطَّوات والحِلل من الألمونيوم ويشدُّون السراير الحديدية.

هي نغمةٌ يستفز بها الأطفال الحَلَب، ولكننا لم نقصد ذلك، فقط أردنا الإعلان عن بضاعتنا. ولكن ما حدث جعلنا نُحرِّم السير في ذلك الشارع، خرج كل حلبي من دكانه وتجمَّع كل الحلب الذين كانوا خارج الدكاكين ورشقونا بكمٍ كبير من قطع الحديد الصدئ في معظمه وهم يسبوننا ويلعنوننا:

– أمشوا يا أولاد الكلب، يا أولاد الحرام.

جرينا بكل ما أوتينا من سرعة وهم من خلفنا، نكاية بهم رفعنا من نبرة صوتنا ونحن نجري، التوت رجلي وسقطتُ على الأرض، انفتح (الجردل) وتناثرت أكياس الترمس على التراب، توقف إبراهومه ليساعدني ولكن أصابته شظية صدئة في عرقوبه، أسقط جردل (الكبكبي) وحافظة (الداندرمة) وأمسك قدمه وجلس على الأرض، غامت عيني عند رؤيتي

لساق إبراهومه وقد بان العصب الأبيض مغطى بطبقة خفيفة من الدم، ثم بدأ الدم في النزيف. لم يكن معنا وقت لجمع أغطية الجرادل وأكياس الترمس و(الكبكبي) والحافظة، رفعته بيد تاركاً فردة شبشبي البلاستيكي، وأسندته عليّ، وباليد الأخرى حملتُ بسرعة الجردل الوحيد وهو شبه خالٍ. وواصلنا الهروب ونحن نلتفت مع كل خطوة.

استمرت المطاردة حيناً وعندما توقفت، كان أكبر همي مداواة إبراهومه فكرت في أخذه إلى المستشفى، لكن سيدخلوننا في سين وجيم، من الذي ضربه؟ أعملوا أورنيك 8، لا.. لا نقبله قبل إحضاركم المحضر من الشرطة! كان قلبي ينزف وأنا أرى دماءه تنقّط على التراب. تلّفتُ حولي لإيجاد شيء يُمكنني من إيقاف النزف! نظرتُ إلى قميصي، كان نظيفاً غسلته قبل يومين، وبدون تفكير نزعتُ من قميصي قطعة لربط الجرح، يا قلبي يا إبراهومه كيف أداويك؟

رأيتُ من على بعد شجرة خُيِّل لي كأنها شجرة ليمون، أو هكذا أردتها. تركته دون أن أربط جرحه وذهبت صوب الشجرة، بالأحرى البيت الذي فيه الشجرة الكبيرة التي تمد فروعها براحة خارج حائط البيت الواطئ. في المسافة بين إبراهومه وبيت الشجرة بكَيتُ.. بكيتُ وتألمتُ وخفت.

تسلقت بحذر حائط المنزل المبني من الطوب الأحمر، رفعتُ رأسي، عيناي وجبهتي ويداي فقط ما يظهر مني، فكرت: إن رآني أحد.. وقد رآني أحد قبل أن يكتمل تفكيري، ولكنه طفل، طفل صغير جميل نادى

على أمه:

– ماما تعالي شوفي دا!

رعبتُ و لم يكن بإمكاني النزول دون الحصول على ليمونة، ابتسمتُ له وحررت كفي ووضعت سبابتي على شفتي وبلطف وابتسامة طلبت منه الصمت. ابتسم هو أيضاً.

قلت له:

– عاوز لي ليمونة واحدة بس، كويس؟

هزَّ رأسه موافقاً فابتسمت له، وأشار لي هو بعلامة أن أصمت واضعاً يده على شفتيه، وتلّفت وكأنه يؤمِّن لي المكان.

العثور على ثمرة ليمون في شجرة ليمون شيء صعب جداً، خاصة وإن كنت متوتراً ومتألماً وينزف قلبك. أوراقها تشبه ثمارها لحد كبير، اللون الأخضر المرتوي ذاته، أطراف الورقة تقترب من بعضها كحبيبين في تلك اللحظة التي تسبق الاحتضان، بتلك المسافة الضيقة الواسعة في آن. تخدعني فأمدُّ يدي لقطفها أجدها طيعة ليست سوى ورقة! أدقق نظري بتوتر وشمول وتنتقل نظراتي من فرع لفرع أو مجموعة فروع دفعة واحدة، أعلى، أسفل، أنظر حتى في الأفرع البعيدة التي لن تصلها يدي، وكمن يبحث دائماً عن السعادة في الخارج وهِي أقرب ما تكون إليه وجدت ليمونة خضراء متوسطة الحجم وقوية. شكتني شوكة ولكني أخذتها. قبل أن أقفز نازلاً نظرتُ إلى الطفل فأشار لي بيده مودعاً.

قفزت إلى الوراء ووقعتُ على الأرض بجذعي، لبست فردة (شبشبي) الوحيدة وركضتُ باتجاه إبراهومه.

أثناء ركضي كنت أضغط على الليمونة بيديّ لتعطيني ماءها، فهي طازجة، خضراء طازجة. لانتْ لي قليلاً وعندما وصلته فقأتها بفمي وفلقتها إلى قسمين غير متساويين لا حجماً ولا حدوداً، وبسرعة عصرتها على جرحه. تذكرت: كان عليّ أن أطلب من الصغير بعض الملح! لكني لم أتوقف أو أعود، عصرت نصف الليمونة كاملاً وهو يتألم ويَعُض على شفاهه، ربطت جرحه بقطعة القماش. واحتفظت بالنصف الباقي. بقينا وقتاً طويلاً جالسين على التراب تحت الشمس، ساهمين، شاردين، صامتين.

قلت له سأعود لأخذ الجردل الآخر والحافظة، ولكنه منعني. وقال لي:

– الحَلَب ديل بكونوا شالوهم من قبيل، ح يعملوا بالجردل كانون ولا طَوَّة والتيرمس ح يشيلوهو بيتهم.

– نعمل شنو طيب؟

– ما عارف والله يا جمال.

عدنا للصَّمت من جديد. قال لي بعد فترة:

– أنا جُعَت.

– وأنا كمان.

نظرنا معاً للجردل الأخير المتبقي، نظرنا لبعضنا، جملةً خاطفة تبادلناها. قمتُ فاستند على ذراعي وقام. أعرف أنه يستطيع المشي، لكنني أسندته عليّ. حملتُ الجردل وذهبنا لبيعه.

4

كُنَّا خمسة نتوسَّد ضياعنا في برندة دكان مهجور في شارع ضيق ومظلم في السوق الصغير. نأتيه ليلاً لننام، وفي الصباح الباكر نلملم خرقنا ونحزمها بأكبر خرقة فيها ونرميها في ركن البرندة الملتصق بحائط الدكان، نضع عليها عدداً من الحِجارة ونذهب للخوض في الحياة. خِرقنا لم تكن ذات بال، كانت قطع ملاءات قديمة وبقايا أقمشة نلتقطها من الأرض قرب ماكينات الخياطين نلفها مع بعضها ونحشو بها جوالات خيش صغيرة، نضعها فوق الحجارة ونوهم أنفسنا بأنها مخدات. جُمعة ويعقوب لم يكونا يكترثان كثيراً، كانا ينامان على الأرض مباشرة وكأنها لحاف من القطن. قطع الملاءات ذاتها لها استخدامان: في الصيف تكون تحتنا وفي الشتاء فوقنا، ملاءة وغطاء، أرض وسماء. في الشتاء بالتواطؤ مع

ثقوبها تسمح للبرد بالتوغل عميقاً في مفاصل أرواحنا، ومهما حاولنا ترقيعها وإضافة خِرق إضافية إليها حتى لتكاد تكون طبقة أخرى في الخِرقة؛ فهي لا تقينا ويلات البرد، ولا في الصَّيف تحمينا من قسوة الحصى على لحمنا المستباح.

– ياخي التَّقول نايمين في كمينة طوب، كلو ما تتقلب تَعتِر ليك طوبة في صفحتك!

ردَّد إبراهومه هذه الجملة كل صباح لمدة أسبوع كامل، لكنه سكت عندما تعوَّد على الحصى التي تنغزر في جلده كل ليلة. لا يمكن أن تكون هذه الحصى أحسن من غيرها، لا يمكن أن تتحول إلى إسفنجات لننام عليها، بل تظل كما هي عليه، حصى لا أكثر ولا أقل. أرضية الخور كانت أرحم، ربما من كثرة الأقدام الدائسة عليها والتي لم ترحمها أيضاً.

(كلٌّ يؤدي دوره في هذه الدنيا). سمعت هذه العبارة من ناهد بعد سنوات عديدة. أدركتُ بعدها لَمَ كان يركلنا أصحاب المحلات صباحاً. ولماذا قتل المشجع الرجل الذي كان يحدثه. قسوة المعلم، وخنوع أبو زيد، والحصى التي لم نعد نشعر بها، حتى مخدة سالم لها دور في هذه الحياة.

هناك خيارات أخرى للنوم، هناك برندات دكاكين مبلَّطة بالإسمنت، ناعمة وباردة، أصحابها لا يسمحون بالنوم فيها، وإن داهم أحدَنا النومُ في إحداها يصحو هلعاً على ركلات صاحبها ولعناته وسبابه، إن لم يَجُر

النائم من قدميه كشوال زبالة ويرميه وسط الشارع دونما اكتراث، ولا ينسى أن يتحفه ببعض الصفعات والركلات، وهذا ما لن يفعله لشوال الزبالة!

هذا المكان أرحم وألطف وأهدأ كثيراً.

قبل أن نلتزم المبيت في برندة الدكان هذه، كنا نتشارك الخَوْر الكبير قرب المستشفى مع مجموعة من الصبية والنساء والرجال، نَصله ليلاً ونغادره مع أول رشفات قهوة أدروب التي توقظ المدينة من سباتها. كان الخَوْر أسفل سور المستشفى بيتنا الذي نأوي إليه بعد التّيه في طرقات المدينة. بعضنا يرتزق من غسل السيارات والحافلات، وبعضنا من التسول، وجزء منا يرتزق من النشل والسرقة، والآخر من العمل في البيوت والمطاعم والمقاهي.

بيتنا عبارة عن شقٍّ في جوف الأرض، بيتنا مؤقت، في الخريف لا يكون لنا وإنما لمياه المطر التي تغمره، وتمر عبره لتصبّ في تُرْعَة أو قناة كبيرة. كان هو الخَوْر الأكبر في المدينة، مفروشاً بالتراب وقطع الكراتين والأكياس وقوارير المياه وبعض الملاءات الممزقة والتي نلقّطها من القمامة أمام البيوت، وصُرر كثيرة بائسة ومغبَّرة، إن فتحتها لا تجد أي شيء ذا بال، إنما صُرَّت للوهم أو للإحساس بأن الواحد هناك يمتلك شيئاً ما حتى لو كان صُرَّة بائسة قذرة.

كان الخور معدّاً بشكل يمنع التداخل والتشابك باتفاق ضمني بين المجموعات المختلفة التي تقطنه. صبية (الورنيش) احتلوا الجانب

الغربي الذي يمكّنهم من التطلع لأحذية المارة التي تحوز اهتمامهم أكثر من صاحبها. النشالون احتلوا الجزء الجنوبي المواجِه لبوابة المستشفى إذ يمكنهم من الوصول بسرعة خاطفة إلى جيوب العابرين وبخفّة لا متناهية. يبدؤون النشل هنا ويكملونه داخل السوق المزدحم. مدمنو شم البنزين و(السلسيون) اختاروا ركناً أعمق وأكثر ظلمة يقيهم فضول المارة الملتصصين على دنياهم. خدم المنازل وعمال المطاعم اختاروا جزءاً تصله أضواء المدينة المتناثرة كفقاعات الصابون الملونة، وتمتد إليه أضواء الصيدلية المواجهة.

موقف المواصلات العامة هو الموقع المجاور لمسكننا، ويصل إلينا كل زعيق وصفير أبواق السيارات والحافلات التي تنطلق من وإلى السوق الكبير، فمنه تنطلق الحافلات إلى كل أحياء ودمدني. حركة المواصلات العامة نشطة ومتواصلة إلى ما بعد منتصف الليل، كحفل صاخب يستمر في خلفية أحلامنا بعد يوم طويل قضاه معظمنا تحت سياط أشعة الشمس القاسية. كانت أكثر إزعاجاً من أقدام العساكر والدوريات.

في الخريف تتضاعف معاناتنا، الماء ساكن الخَوْر الأساسي يحلّ سائلاً غزيراً، لونه كلون شاي اللبن؛ غني بالوحل والنفايات، نهرب إلى برندات الدكاكين والمقاهي والمطاعم والبقالات لنستيقظ بركلات أصحابها ولعناتهم وسبابهم المتواصل. أحياناً تستقبلنا نقاط الشرطة فنقضي الليل مُكوَّمين على الأرض الصلبة في فنائها أو بالخارج، ولكن هذا الترف ليس للجميع وإنما للبعض ممّن تربطهم علاقات مصلحة مع أفراد الشرطة، وعادة هم النشّالون الذين يقتسمون حصيلتهم مع العساكر.

في الصيف قد ترى بعضنا نَصب مظلة من جوالات الخيش أو الخرق البالية القذرة، يربطها بسلك السور ويندس تحتها علّها تقيه من لفح الحرّ الصارخ.

رائحة القهوة نكتفي بشمِّها في كلِّ الصَّباحات، رغم أن قِدْور (أدروب) الضخمة لا تبعد عنا، بل في الطرف الغربي من سكننا، هناك تحت الشجرة الكبيرة وبالقرب من باب المستشفى. نرى الأشباح تبدأ في التوافد عليه، يقال إنه أفضل من يصنع القهوة في المدينة. يمر عليه الموظفون، العمال، سائقو السيارات، مرافقو المرضى، موظفو المستشفى، تزوره المدينة بأكملها، هذا الحشد نراه دائماً في طرفي اليوم، صباحه ومساءه وكأن قهوة (أدروب) هي الإثبات الوحيد على مرور اليوم، يعبرون منها داخلين في تفاصيله، وعبر بوابتها يخرجون مضيفين يوماً إلى تراكم السنين.

– ريحة القهوة دي بتعذبني عديل كدا ياخ!

يقول لالوْ

– أشرب بنَخْرَتك بس يا فردة.

أجيبه:

– كل يوم يزعطنا من الدُغُش بالريحة دي!

– أعمل رايح يا فردة، الكباية بـ قُرُمْ تقدر عليها كل يوم؟!

– ما بقدر. وما بقدر كل يوم أشرب بنخرتي.

– شُم واِتكيَّف، ما عندك حل غيرو.

مع توافد الجمع الناعس على القهوة الذي يستمر حتى الثامنة صباحاً نتسلل خلسة إلى حرم المستشفى وندخل حماماتها الخارجية، رغم زجر عمال النظافة المتواصل وطردهم لنا. غير مسموح بتاتاً التخلص من الفضلات في مكان السكن، منذ أن جئت هنا وجدت هذا القانون سائداً واتَّبعتُ شريعة لا أخالفها. كان هو القانون الوحيد الملزِم للجميع وغير القابل للاختراق.

– لو خِرا واحد فيكم هنا ح أأكِلُه ليهو!

سمعتُ هذه الجملة من أول يوم، تخيلت منظري وأنا آكل فضلاتي، قرِفتُ وعلقت رائحة الجملة بأنفي طول اليوم.

كان لا بدَّ من الدفع حتى ندخلِ حمامات السوق، ولكننا كنا نفضِّل أن يذهب القرش في ملء المعدة بدلاً عن تفريغها، نستحم نادراً، ونقضي حاجتنا تحت أقرب حائط، أكثرنا حظاً في هذا الشأن هم خدم المنازل وبائعو التُرمس و(الكبكبي) و(الداندرمة). كما أن أكثرنا شبعاً هم عمال المطاعم لذا أحببتُ أن أعملِ في مطعم.

نحن الخمسة كُتِّي، يعقوب، جُمعة، إبراهومه وأنا اتفقنا أن ننام في مكان ثابت طول السنة بعد ردم الخَوْر، ونجنِّب أنفسنا تَلْتَلْة الخريف والنوم كل يوم في شارع جديد، لا يوجد شارع جاف أساساً في الخريف يصلح للنوم فيه، جميع الشوارع تغمرها مياه المطر. لم يُعجب كُتِّي هذا المكان، قال بأنه صامتٌ أكثر مما يجب ومخيف! وكان من قبل ممّن ينامون

في حوش قسم الشرطة الجنوبي. كُتّي الذي يسرق منك بؤبؤ عينك يخاف! لا يخاف من السرقة إنما يخاف من الكلاب والعتمة. الكلاب التي يستعملها العساكر معه كوسيلة استنطاق لا تضاهى، عندما يُبلِّغ أحدٌ عن تعرضه لنشل نظيف، والنشل النظيف هو عدم شرط الجيوب بالموس أو خطف الشنط، إنما إدخال اليد مباشرة داخل الجيب وأخذ ما فيه. عندما يتعرض أحدهم لهذا النوع من النشل يؤتى بـ كُتِّي كأحد أهم النشالين بهذه الطريقة، ويؤتى بالكلاب التي حالما تقترب منه حتى ينهار ويخرُّ على رجليه ويخبرهم بأنه فعلها فعلاً، بل يُعيد ما أخذه كاملاً مكملاً من تحت طاقيته، أو من أيِّ مصدر آخر لو تصرّف في البضاعة واستهلك جزءاً منها، وغالباً يكون المصدر ضحية جديدة.

– يا زول خلِّي البطبطة دي، الكلاب ما بتجي هنا.

– كمان الكلاب عندها حتة براها.. في أي مكان في كلاب.

– لكن في الدكان الناشف والمهجور دا البجيبها شنو!

– بتجي.. إمكن تكون بتتفسح!

ضحكنا جميعاً وقلتُ له:

– الكلاب بتعضي البهبشها. شوف، لو يوم جاك كلب نحن ح نخلِّي الحتة دي طوالي. بعدين ياخ في أسد بخاف ليهو من كلب!

حرّك رأسه مزهوا وقال فيما يشبه التأكيد:

– خلاص ما تشغِلها لي، أنا ما بخاف من الكلاب بخاف من عضتها.. قالوا عضتها نار عديَل.

– دا لما تكون جعانة، نحن ما ح نهبشها.. بنجي ناس نوم بس، ح تجينا في نومنا وبدون ما نهبشها تعضينا؟!

وافق وكأنه يبتلع عظماً، وهذا ما كنا نريده لا أكثر.

وما هي إلا أيامٌ معدودات حتى اعتاد على المكان، ولكنه أبداً لم يتصالح مع الكلاب.

بسبب خوفه من الكلاب، كاد يتسبب بإفساد مخزون ثلاثة أيام من الفول.

سأقصُّ لك القصة: جمعة ويعقوب متسوِّلان وحافيان على الدوام، هما الأصغر سناً ولكنهما فاشلان في التسوّل، كُتّي حَريف في النشل، إبراهومه وأنا لا نستقر في عمل ثابت، يمكنك أن تقول إننا فاشلان أيضاً. يحدث أن نمر بأوقات جوع كثيرة إثر خروجنا المدمر من كل عمل. كانت الكارثة وشيكة في إحدى تلك المرات، بعد فترة من تركنا العمل في بيع الترمس و(الكبكبي) ونفاد ما كسبناه من بيع الجردل. كان قد مرَّ يومان دون أن نأكل شيئاً، المتسولان لم يحصلا إلا على القليل من النقود التي لا تكفي لسد جوعهما ناهيك عن مشاركتنا لهما فيها. إنها آخر الشهر، وكل الجيوب خالية وهذه هي أيام الجفاف بالنسبة لـ كُتّي. إبراهومه مصاب في قدمه ومازال يعرج من جرحه العميق جرّاء قطعة الحديد التي قذفه بها الحلب. وأنا.. أنا!

كنت أفتش عن مخرج من حصار الجوع الخانق في مساء ناضب، ما العمل؟ يمكن العمل في المنطقة الصناعية في تحميل اللواري بالحديد الخردة كما يعمل مادوت، نعم يمكن هذا، بُنيتي تساعدني على العمل في العتالة لمَ لا! لَمَ لم نفكر فيها من قبل؟! لم...، انقطع حبل تفكيري عندما رأَيت قدرة الفول على الكانون خارج أحد الدكاكين. كل يوم أرى قِدْرة فول، هَذا ليس بجديد، ولكن هذه القِدْرة قذفت بفكرة في رأسي جريئة للغاية: نادتني!

كان الدكان على الناصية، القدِرة في الركن بالخارج.. وصاحب الدكان داخل دكانه، يخرج عندما يأتي زبون لشراء الفول أو الفحم ما عدا ذلك هو داخل الدكان. توقفتُ لنصف ساعة أتابع حركته ودخوله وخروجه. قفلتُ راجعاً. ثم عدتُ ومعي أصدقائي الخمسة ومعنا لالو أيضاً. عددنا كبير تحسباً لأن تكون القدرة ثقيلة، الصغيران لا يستطيعان الحمل، ينفعان للمراقبة فقط في هذه المَهمة، واحد لمراقبة صاحب الدكان وواحد لمراقبة الشارع والزبائن المحتملين، وعلينا نحن الأربعة أن نتناوب على حملها من أذنيها. سنحملها من على الكانون، غالباً ما تكون ساخنة جداً، ولكننا أحضرنا خرقنا معنا لنحملها بها.

ركنّا في الشارع الجانبي، يعقوب وجمعة وقفا أمام واجهة الدكان على بعد مناسب، أحدهما كان يراقب صاحب الدكان في الداخل، والثاني ركّز على تتبع الشارع، وكانت مهمته التنبيه في حال اقتراب أي شخص من الدكان.

انتظرنا فترة لذهاب آخر زبونين. بقي صاحب الدكان في الداخل. غادر الزبونان بعد أن اشتريا ما يريدانه.

– تعالوا.. تعالوا، الشارع فاضي!

قال جمعة.

خرجنا من الركن حيث ننتظر إشارته لنا. أنا ولالو رفعنا القِدْرة بسرعة ودلفنا نحو الشارع الجانبي، بقي الصغيران فترة ولحقا بنا. في منتصف الطريق تبادلنا الحمل، كتي وإبراهومه حملاها، لكن الأخير حركته بطيئة فحملتُ عنه كي لا يؤخرنا ويكتشف صاحب الدكان السرقة.

فجأة ظهر كلب ضخم أمامنا وبدأ بالنباح، ارتعب كُتِّي وانزلقت يده من أذن القِدرة، اختل التوازن وسقطت من جانبه واندلق بعض الفول.

لحسن الحظ كان لالو قريباً حملها عنه سريعاً، صرختُ فيه بضيق:

– عاوز تضيعنا ياخي؟! دا شنو العملتو دا؟

قال مرتبكاً وهو يعِّدل من وضع طاقيته على رأسه بحيث غطَّت نصف جبهته:

– معليش، اتخلعت والله ويدي اتزلقت.

– هسي تخاف من الكلب ولا الكلب يخاف منك! كرهتنا ذاتو ياخي بخوفك دا.

– خلاص.. خلاص، ما تجيبوا لينا الهوا.

قال إبراهومه، ثم نهر الكلب وقذفه بالحجارة. جفل الكلب قليلاً، ثم واصل نباحه وتبعنا مجدداً. نهره ثانيةً وتأخر ليسكته ويمنعه من اللحاق بنا. أسرعنا الخطى.

وصلنا مخبأنا منهكين، أنزلنا القِدْرة بآخر نَفَس.

حسنٌ، هاهو الفول، أين الرغيف؟

كُتّي هو الحل. ذهب للفرن القريب، ومن كل كيس خبز كان ينشل رغيفاً أو اثنين ويحشره في ثيابه. أو في ثياب جمعة الذي ذهب معه.

يعقوب توجّه إلى المطعم وتسوَّل أكلاً من أقرب طاولة للشارع. أعطاه رجل بقية أكله فسرق الصحن و لم ينسَ المَلّاحة وبقية السلطة.

نُمنا متخمين تلك الليلة يمكنني القول إنها أول ليلة في عمري أشبع فيها تماماً حتى أقطع النّفس. وتكرر الشبع ليلتين أخريْن. بعدها تخلصنا من القِدرة وبعناها لتاجر الخُردة بثمنٍ زهيد، سيبيعها بدوره لتُجار الحديد.

قدرة الفول تلك نبعت فكرتها من الصدّ الذي جوبهت به من بائعات الأكَل في السوق. لم تأتِ من حال جوع فقط، وإنما جوع وحيرة وأبواب مغلقة. قبلها كان أصدقَائي يصدّرونني لتوفير أكل بيتي مجاناً، ربما لأن شكلي يؤدي هذا الغرض. كنتُ أذهب إلى بائعة الأكل وأطلب العديد من الطلبات، كفتة، ملاح بامية، ملاح (خُدرة) دمعة [1] جداد.

(1) يخنة.

بعد أن تعطيني ما طلبته أقول لها بودٍّ وصدقٍ كبير:

– طيب يا خالة ح أحاسبك بعد الأكل، معاي ناس وإمكن نحتاج لزيادة.. أحاسبك مرة واحدة على كل الطلبات.

– كويِّس يا ولدي.

قبلها بفترة نجمع من بعضنا (الفكَّة)، بصعوبة يكتمل الجنيه، آخذه وأذهب لحمامات السوق العامة، أغسل ملابسي المتهالكة، استحم وأنتظرها لتجف. يبدو عليّ بعدها كما كانوا يقولون:

– ود ناس، سَمِح ومحترم.

أحمل الصينية الدَّسمة بوسامتي تلك وأتحرك ببطء، أتلفت كأنني أبحث عن مكان مناسب لوضعها فيه. ثم أنزوي سريعاً خلف الكُشك حيث ينتظرني الرِّفاق. بائعات الأكل ليس لديهن دكاكين ولا برندات مثل المطاعم، إنما يبعن أكلهن تحت ظل الأكشاك أو الدكاكين، ويُبعثرن مقاعدهن القصيرة وطاولاتهن في جانبي الطريق، أو حتى في ظل المباني القريبة المقابلة لهن.

نأكل سريعاً.. نلتهم سريعاً جداً، ودون أن نغسل أيادينا أو نجرع جرعة ماء نغادر، كلٌّ في اتجاه. نغسل أيدينا لاحقاً في أول (مزيرة) تقابل أحدنا، نشرب الماء ونتجشأ بصوتٍ عالٍ.

عندما نلتقي في (الكِرَّه) يعلقون بانتصار وفرح:

– والله دي جَوْمَة من أُمَّها!

– ورْيتنا لكن! غدا دِسيِّس عديل كدا!

– هههه تلقى الحَّاجة هسى تفتش ليك، لكن أعمل حسابك ما تظهر قدامها.. إمكن تعرفك. الزولة دي أكلها أحلى من أكل المَرَّة الفاتت.

لكن هذا الهناء لم يدُم كثيراً فقد جرّبتُ معظم بائعات السوق الصغير، وأنقذتني ساقاي في آخر مرّة، اللعبة أصبحت مكشوفة، شكلي وأوصافي عُممت عليهن، وعندما جئت في يوم بالملامح الطيبة ذاتها والنظافة التي لا تدوم، طالباً الأكل، تفرّستْ الخالة في ملامحي ثم بادرتني:

– الدفع أول.

– بدفع ليك بعد ناكل عشان معاي جماعة بهنا.

وأشرتُ غافلاً إلى مجموعة كانت تجلس على بعد، ولكن لغبائي أو حظي السيء كانوا قد أكملوا غداءهم وجلسوا (يتونسون) ربما في انتظار الشاي. قالت:

– قلت كدا؟!

سحبتْ المغرفة من الحَلَّة ونهضتْ تضربني بها، لكنني تفاديتُ الضربة، ومثل الصَّوت مرقتُ من وسط الجمع وابتعدتُ:

لاحقتني كلماتها التي قذفتها ورائي مع المغرفة التي ضربتني على ظهري:

– أمشي يا حرامي يا كلب.. تاكل عرق النسوان؟ قايلني ما عرفتك!

(في شنو يا حاجة؟)

(مالو الزول دا؟)

(شال منك ...)

واستمرتْ الأسئلة واستمررتُ في الجري بعيداً حتى غابت أصواتهم عن سمعي.

– الحصل شنو؟

سأل إبراهومه الذي جرى خلفي.

– عِرْفتني يا عمك.

أجبته، دون أن ألتفت مستمراً في الجري.

تصرّف كُتِّي كأنه ليس معنا، بقي في مكانه وتحرّك بشكل طبيعي ثم لحق بنا. رغم خوفه من الكلاب، الخوف الذي يعلّمك الركض السريع، إلا أنه يقع في أول خمس خطوات واسعة! وحسناً فعل بتصرفه ذاك.

الصغيران جمعة ويعقوب انْدّسَا خلف الكُشك، وبقيا هناك يتبولان في ثيابهما، إلى أن جاءهما كُتَّيَ ورافقاه كذيله.

من يومها عرفنا أن هذا الباب انسدَّ وعلينا محاولة أبواب أخرى.



بــاب الحب



5

آآآآه!

سمع كرم تأوه الأذن المقطوعة. فتح عينيه، هل أحلم؟ هل هذا صوتها؟ لكنني سمعته! نعم، نعم سمعته هو الصوت ذاته الذي سمعته عندما وقعتْ على الأرض.

رأى الأُذن وسط العتمة ملقاة هناك على الأرض ومعفَّرة بالتراب تناديه: تعال، خذني. ولكنه لم يتزحزح من مكانه، أخذ ينقِّل نظره بينها وبين صاحبها المتوجِّع هناك منفصلاً عنها. يا للأذن المسكينة!

لم ينقلب على جنبه كعادته، إنما ظل مستلقياً على قفاه محدقاً في ظلام الغرفة إلى الأذن الحزينة. لقد تمددتْ على سقف الغرفة بأكمله، صار كل السقف أذناً سوداء مقطوعة، منكفئة ويعلوها التراب. بعينٍ واهنة نظرتْ

إليه، رأى أنفاسها وهي تخرج كخيطٍ من دخان رمادي شفيف، تتراقص، تعلو، ثم تطفو في الهواء. كان يتمنى لو يمد يده كي يقبض على أنفاسها نَفَساً نَفَساً ويعيدهم إليها. خذلته رجلاه، عجز عن الحركة وسط كل أولئك الناس، خجل وظلَّ جامداً في مكانه. لماذا تركتُها تموت؟ كيف احتملتُ تلك النظرة المستجدية؟ لم تنظر لسواي، تعرف أن هناك ما يربط بيننا، أن صلة حميمة تجمع بيننا. شعرتْ بوجعي عليها، ورأتْ أفكاري المتجهة نحوها لتحتضنها، كان عليَّ التقاطها! كان عليَّ ضمها في راحة يدي علّها تجد السَّلام.

السّلام الذي يبحث عنه هو نفسه، الهارب منه على الدوام كأحلامه المتبددة. خاله في وحدته وانطوائه، لكنه لم يجده. ظنَّ أنه مندس في جوف الكتب، غير أنه لم يتعثر به لا في الكلمات ولا في المعاني، لا في الواقع ولا في الخيال، وإن ظلَّ على تماس معه في كل حين. قال ربما يصنعه بنفسه بالكتابة.

الكتابة؟ هل تُسمى الأوراق التي غادرها الوقت والمبعثرة حولي هنا في غرفتي كتابة! إنها قصص موتى، حياتهم التي أعيشها معهم مرة أخرى، إنها عويل قلم يحتضر واحتضر معه منذ سنوات طوال. إنها هروبي من يأسي العاتي، هروبي إلى موتي علِّي أجدُّ خلاصي.

القلبُ يتوق، التَّوْقُ عنيد، الفعلُ عسير، أين المفرّ؟ أظلُّ أمضي بمحاذاة الدَّمع والأمل ولا أجد للخلاص سبيلاً. خلصني.. خلصني وأرحني يارب. كم تبهجني رؤية أولئك المقبلين على الحياة بصدور وقلوب

مفتوحة، السائرين في عرض الشارع كأنه مِلْكٌ لهم، من ينظرون مباشرة إلى العين، من ينفذون مباشرة إلى القلب بخطواتٍ واثقة.

تذكر سامية حبيبته، لقد كانت خلاصاً، خلاصاً ومَرْسى.

سامية هي بنت الجيران التي خفق لها قلبه خفقته العظيمة، اليتيمة، الخفقة التي لوّنت أيامه وحقنتها بماء الحياة.

أغنيته التي رقص على إيقاعها على مسرح أوراقه وأجنحة أحلامه. الرقصة التي دوزنت إيقاع حياته اليومية. كان يستيقظ قبل المنبه، بل قبل أن تصحو أمه. منشرحاً وباسماً. لا يحدِّث نفسه بالنوم لدقائق إضافية، رغم أنه ينقلب على جنبيه لبرهة قصيرة. يستيقظ ويجد ثغره مبتسماً، وروحه ترقص، هكذا دون سبب، دون أن يسمع نكتة، أو يرى سامية أو يشاهد مسرحية على التلفزيون، هذه هي المباهج التي كانت تجعله يضحك بصدق وعفوية، ومن القلب. يوخزه شوقه إليها، يملأه شوق يعبئ فراغ الكون ويفيض.

كان كل يوم في ريعان حبه لسامية، يكوِّر سفة السعوط ويدسها تحت شفته السفلى، ثم ينهض بنشاط يدخل الحمام وهي في خاطره، يُعد القهوة له ولأمه وهي في خاطره. يوقظ أمه ويطلب منها الدعاء له في صلاتها، يصفّر بلحن أغنية خفيفة لا يضبط إيقاعها تماماً وهي في خاطره، يستعجل أمه:

– سرعي يُمّة.. الليلة عاوز أمشي بدري.

ينتظرها ليشربا القهوة معاً وليسألها عنها. يسأل طول اليوم ويتردد في كل مرّة يسأل عنها، صباحاً قبل الذهاب، ثم عند عودته، وفي المساء وبالليل، وتكون الإجابة غالباً نفسها، لكنه يحب أن ينطق اسمها ويسمع خبرها حتى لو كان مكرراً وبائتاً.

عندما ينطق اسمها، يشعر بأن عصافير جنة تزقزق في حلقه، وترفرف مع كل حرف من حروفه، حتى صوته لا يعود صوته! يصير صوتاً حلواً عذباً منغماً، ويرقص القلب.

عندما يهمّ بالسؤال عنها، يداعب أذنه اليمنى، ويتلفت دون أن يرى شيئاً، يمسح على تعرجات أذنه ويمسك شحمتها بين إبهامه وسبابته ويدغدغها برفق، ويسأل بحياء:

– أها، سامية بتجي الليلة؟

تبتسم أمه وتغمز:

– إمكن تجي.

يقرأ غمزتها بـ: كنت عارفة إنك ح تسأل عنها.

يشيح بعينيه هرباً: يبدو أن أمي تعرف ما يمور في قلبي. يبتسم، فتبتسم.

كانت لدى سامية أجمل أذن على الإطلاق، كان يعشقها. لم يحفظها كأُذن أمه، إنما كان يخطف النظرات إليها خطفاً.

من الصعب أن أنظر إلى سامية تماماً، هي شمسي وعندما أنظر إليها تغشى عيني أشعتها، هل يمكن النظر تماماً في عين الشمس؟

كانت طويلة، أطول منه، ممتلئة القوام، عيناها لا قَبل له بهما، تصرعانه وتقلبان دورته الدموية. يحتاج وقتاً ليجمع خلاياه خلية خلية ويُعيد صفّها في مواضعها.

كانت مرحة وممتلئة بالحياة، عندما تأتي لزيارتهم تدخل البهجة قبلها البيت وتظل وقتاً بعدها، يغتبط البيت، تتراقص حيطانه، تقفز فرحاً نوافذه، تصفِّق أبوابه، تتمايل الشجرة، يطفو كل البيت في البهجة، تضحك أمه ويضحك قلبه وتضحك أواني المطبخ وحتى كلبهم يأتي إليها، يهزّ ذيله، يرفع قائمتيه عالياً ويرقص قبالتها، ينسى مطاردته القطة وينسى الفأر الذي يتربص به، بل ينسى كلبة الجيران نفسها ويجثو عندها، عند سامية.

لم تكن امرأة، هي كل نساء الأرض، هي المرأة الجميلة، الطيبة، الذكية، الهادئة، الغريبة، السمراء، الفاتنة، الودودة، الجامحة، هي كل النساء.. كلهن. تورط في حبها، أغلق حياته على حبها ونسي المفتاح.

تأتي لتونِّس أمه وتساعدها، أمه تقضي وقتها وحيدة عندما يكون في العمل، لم يكن يخرج إلا نادراً في المساءات بعد عودته من المشرحة. أمها الراحلة كانت تقول لها:

– عزيزة دي أمك الثانية، وإنتي بِتّها الماجابتها، ساعديها وما تخليها براها.

عندما ماتت أم سامية بكتها أمه تماماً كما بكت أباه، أمه مهيأة للبكاء بالفطرة وطول الحزن. أم سامية كانت جارتها وصديقتها الوحيدة، وأقرب إليها من أخيها المقيم في الخرطوم، الذي تربطها به علاقة باهتة، الغنى والفقر لا يتصالحان ولا يتوادان ولا يتحابان، يظلان متنافرين متضادين نقيضين كالليل والنهار، كالماء والنار، كالموتِ والحياة.

علاقة أمه بأم سامية هي أكثر من أخوّة وأكثر من جيرة وأكثر من صداقة. هي عمر بكامله. استقبلته للحياة أم سامية، أول يد تلمسه في اللحظة الأولى التي عانق فيها الحياة هي يد أم حبيبته. أخبروه أن عزيزة أمه رفضت دخول غرفة الولادة ما لم تدخل معها، وأنها تفضِّل أن يكون وجهها آخر من تراه إذا فارقت الحياة أثناء الولادة، وأوصتها أن تكون أماً للمولود ولداً كان أو بنتاً، لن تطمئن على مولودها مع امرأة أخرى.

مسكون قلبها بالخوف، كانت تظن أنها ستموت في الولادة، فلم تكرر التجربة؛ لذا ليس لديه إخوة أو أخوات. لكنها لم تُمتْ، إنما تحوَّل هذا الخوف عليه، خوفٌ صبغ حياته كلها بلونه المقيت.

علائق كثيرة ومتشابكة تربط المرأتين ببعض، مساندة في أوقات الشِّدة، مرافقة في المناسبات، سمر وأُنس وحكايا وضحكات، عزاء لبعضهما في أوقات الخصام الزوجية، الأسرار، النميمة، الوصل، تربية الأبناء صناديق الادخار والتحايل على محدودية الموارد، كانتا حقاً صديقتين وأختين وجارتيَن، حتى أنهما حملتا اسماً واحداً: عزيزة! كانت الواحدة منهما عندما تنادي الأخرى فإنما تنادي على نفسها هي.

يوم ماتت عزيزة في حادث سير كاد قلب أمه يتوقف. لحظة الحادث قالت له:

– بسم الله.. قلبي دا فرّاني كدا مالو؟!

وضعتْ يدها على قلبها وكأنها تثبته مكانه ثم أردفت:

– خير إن شاء الله، الله يكضب الشينة.

ولكن الشَّينة لم تُكذَب، إنما أضحت واقعاً، ووصل الخبر على جناحي بومة وهما لم يتحركا من مكانهما ذاك.

ظلّت أمه لفترة تعدَّت الثلاث دقائق فاغرة الفم ونظرتها متجمدة، رأيتُ قلبها يتململ داخل قفصها الصدري، نعم كنتُ أرى حركته وكأن الضلوع تسحبه إلى الداخل، تسجنه وهو يصرخ ويحاول توسيع فتحاتها ليخرج، رأيته.. نعم رأيته. في عيني أمي، في فمها المفتوح، في تجمُّدها، في تلك الصور الكثيرة والمتزاحمة المتراكمة، التي مرّت على شاشة خاطرها، وبَعْدها، بعد أن رشقتُ على وجهها كوب ماء كاملاً، رأيتُ حركة القلب وتوقه للخروج في الصرخة المجنونة المفجوعة الحادة المعذبة الأليمة. الخبر الذي جرح روحها، الجرح الذي لن يندمل.

بموتِ عزيزة مات جزءٌ من قلب عزيزة.

كانت ترى في سامية المحبة التي فرشت رحلة حياتها، والوقت الأخضر الذي لا يمكن إرجاعه سوى بالصور، والذكرى التي يستحيل ضمها إلى الصدر، أو قبضها بكفة اليد. وكانت تتمنى، تتمنى أن...

– لو الفي مُرَادِي حصل، سامية وكرم إتّلموا.. يكون البيجمعنا لحم ودم يا عزيزة.

تدمع عيناها ولن تنسى أنها تخاطبها كما لو كانت معها فعلاً.

عزيزة أمه تمنَّت أن يتزوج كرم من سامية. كرم أكثر ما رغب فيه في حياته هو أن يجتمعا. أما سامية، ماذا عن سامية، هل شاركتهما هذه الرغبة؟ هل أحبَّت كرم حقاً؟ ظلَّ هذا السؤال بالنسبة له معلَّقاً في فراغ الهواجس اللَّا تنتهي.

6

لا أظنك تعي معنى قولي: إبراهومه كان صديقي.

أنت لم تختبر هذه العلاقة، وسأخبرك: فاتك الكثير.. الكثير يا صاحبي.

في عالمنا، الصديق عائلتك، أمك، وأبوك وأخوك وأختك وحبيبتك وكل ما لك. أختلف عنك في باب الصداقة هذا، فهو بالنسبة لي بابٌ متسع ورحب، يدخله الكثيرون، الكثيرون يدخلون منه إلى قلبي، لكن يظل إبراهومه هو الأقرب، من تقاسمتُ معه كل شيء منذ التقيته مساء أحد الأيام في البيت الذي جمعنا، نعم، أعني الخور.

كان مرشدي للمدينة التي داسها قبلي، تسكّع وتشرّد فيها قبلي، وخَبِر دروبها وتفرعاتها قبلي. باختصار كان صديقي.. وأكثر.

لا أعرف كم مرَّ من سنوات على ذلك اليوم الذي لقيته فيه، ولكنه كان بعيداً جداً وما زلتُ أذكره، هذا اليوم تحديداً الذي دخلتُ فيه أول مرة الـ كِرَّهْ، أي البيت، والذي أخبرتك عنه وكيف كان.

دلّتني قدماي إليه. في الصباح لم ألحظه عندما مررتُ به في طريقي من السوق الكبير إلى الداخل، كان البيتُ فارغاً أو شبه فارغ، وربما عيني كانت تتخطف في كل مكان، ولم تقع عليه في التقاطاتها السريعة تلك. الفضول الشّرِه لمعرفة الأماكن الجديدة والوجوه الجديدة والناس الجدد، ترى ولا ترى لأنك في تعجلك لرؤية كل شيء تغفل عن رؤية أي شيء، تمرُّ عيناك على الأشياء نعم، لكنها لا تدركها، أو تختلط الأشياء بعضها ببعض لأن العين قبل أن ترى جيداً تقفز لشيء آخر في اتجاه آخر، ولكنك سترى في المرة الثانية المتمهلة للتعرّف على الأماكن والأشياء، وليست في تلك الأولى المشْبِعة للفضول، الفضول الشّرِه ذاته.

ثم، رأيته بالليل، عندما عدتُ إلى السوق الكبير زأيته، كنتُ سائراً ببطء متلفتاً، وكان بالي مشغولاً في الخطوة التالية، ماذا أفعل؟ وأين أذهب؟ بالأمس نمتُ قرب الحافلة التي أوصلتني للمدينة، كان الوقت ليلاً ولم أعرف أين أمضي. حافلات كثيرة واقفة في عدة صفوف. بعض (الكماسرة) ينامون خارج الحافلات، وبعضهم داخلها. إن نمت هنا قرب أية حافلة لن يلاحظ أحد. ولكن ساقتني قدماي للحافلة نفسها التي جئت فيها، ولم أدرِ لِمَ عدتُ إليها تحديداً وليس لسواها! كان الكمساري في الداخل يتهيأ للنَوم. يذهب السائقون إلى الاستراحات والفنادق الرخيصة

ليقضوا فيها الليل، في حين يبقى (الكماسرة) في حراسة الحافلات، ينامون داخلها أو تحتها لا فرق. انتظرت حتى هدأت الحركة، وعرف كل واحد طريقه، تمددت ونمت.

في (الكرَّه)، عرفت هذا الاسم لاحقاً على فكرة، رأيت مجموعة من الناس تسكَنه، أدركتُ أنهم مثلي، بالتأكيد عرفتهم وحدثت نفسي أن أقضي ليلي بقربهم. كنت فقط أنوي قضاء الليل والذهاب في الصباح إلى أيِّ مكان، دون أن أعرف أين. المكان الذي تقودني إليه خطواتي ولا فرق لدي كيف يكون أو أين أو من يسكنه! عندما لا يكون لديك بيت فلن يفرق معك أيّ بيت آخر. عندما لا يكون لديك مكان محدد فكل الأماكن لك، أو ليست لك، لا فرق.

جئتُ الخور من اتجاه السوق، كان مكدَّساً بالأجساد، ظللتُ أسير غرباً ببطء، باحثاً بعيني علّني أجد فراغاً أندس فيه وسط هؤلاء الرفاق الغرباء. سرتُ مسافة حتى حاذيت منتصف الخور تقريباً، ثم وجدت ما أبحث عنه، فراغاً يسع جسدي، انزلقتُ دون تردد فيه. مددت ساقيّ وألصقت ظهري بجداره.

كان إبراهومه جالساً إلى يميني، وقد تابعني وأنا أبحث عن مكان قبل خطوات من وصولي إليه. وفيما بعد عرفتُ أنه هو من أفسح لي المجال. سألني بعد فترة من جلوسي:

– أنت جديد هنا؟

– ليه بتسأل، إنت بتعرف الناس الهنا كلَّهم ولا شنو؟

أجابني متباهياً ومتجاهلاً ضيقي:

– بعرفهم واحد واحد.

صمتُ ولم أرد.

أعاد سؤاله مجدداً بتودد:

– ما قلت لي، لنج موش؟

– أيوه، لنج، موش هنا بس، في مدني كلها. ارتحت؟!

عدّل من جلسته ليواجهني تماماً وقال:

– إنت زعلان ليه؟ أنا بسأل عشان أعرفك بس. ما تخاف يا فردة ما ح أعمل ليك حاجة تضُرّك.

جال بخاطري:

(فردة! الزول دا طوالي كدا عملني صاحبو ولا شنو! لكن شكلو زول كويس.. ولا يكون عاوز يدبِّسني في مصيبة كمان).

ظللتُ بين الريبة والتصديق طيلة محادثته لي ومحاولته التقرب مني ونفوري، هو يقترب وأنا أنفر. يبدي حُسن نيته وأنا أمانع. أخيراً قال لي:

– جعان؟

ترددتُ قبل أن أجيب برأسي: نعم.

– عندي هنا سندوتش كنت خاتيهو آكلو بعدين، هاك ليهو.

أخرج من تحته سندوتش طعمية (معفَّصا) ملفوفاً في جريدة ومدّه لي مبتسماً.

أكلت وشعرت ببعض الود تجاهه، فقط بعض الودّ.

و لم يسألني عن اسمي إنما قال:

– أنا إبراهومه.

قلتُ له:

– وأنا جمال.

ها أنا في مكان جديد، أسيرُ نحو المجهول. لا أدري كيفٍ يكون الغد، لكنني لا أحمل همَّاً له، الغد هو الغد، لم يأتِ بعد، ولن أفكر فيه. لستُ خائفاً منه، يمكنني تدبر أمري. سأكون حذراً مع الناس إلى أن أعرفهم جيداً. أما المدينة فسأتعرف عليها يوماً بعد يوم. ليست ثمة هموم إذن.

لم أجده في مكانه في الصباح، ولا قابلته طيلة النهار في تسكعي الذي لم يبتعد عن محيط السوق الكبير أو (الكرّه). قلتُ أبقى قريباً لسببين: كي لا أتوه، ولأجد لي موضعاً في اللَّيل أنامَ فيه إن تأخرت سيتملىء الخور.

دخلت موقف المواصلات العامة. كان مكتظاً بباصات عتيقة وحافلات تمتلئ وتفرغ، كماسرة ينادون على وجهاتها: المزاد.. المزاد. مايو.. مايو، محطة خالدة، مارنجان، حلة حسن. عووضة. دردق. حي

ناصر. الدرجة. أيوه أيوه، يا ناس يا عسل الإكسبريس وصل.

قد يأتي الراكب من مناداة الكمساري، وتجد من يسأل عن وجهة البص أو الحافلة مجدداً، هناك من يركب ثم ما يلبث أن ينزل تاركاً علامة استفهام كبيرة، هل ركب خطأ؟ هل نسي شيئاً؟ هل تذكر شيئاً؟ هل غيّر وجهته؟ في الساعات التي بقيتها في الموقف عرفت العديد من أسماء الأحياء، أعجبتني بعض الأسماء، المزاد اسم حلو. مايو كذلك. عَوْوضة لم يعجبني وذكّرني بكلمة بَعوضة حاملة الملاريا الرهيبة.. عووضة! عووضة.. حتى أن نطقه ثقيل وصعب.

كنت أتابع (الكماسرة) بعضهم في مثل عمري، وهناك أصغر وأكبر مني، تابعتهم في طلوعهم ونزولهم، تلك الرشاقة والمهارة في وضع قدم واحدة على البص وكل الجسم في الخارج. كان الكمساري يشبّ مثل القرد والعربة متحركة، يمسك بأقرب قطعة حديد في البص ويضع مقدمة قدمه على الباب المزدحم أصلاً بالعديد من الأقدام والأجساد. الواقفون أكثر عدداً من الجالسين على المقاعد، حرّ، عرق، اختناق، نشل، تحرُّش وملامسات، ملاسنات، شجار وأحياناً ضرب داخل البص، تمزيق أقمصة و(جلالايب)، بفعل الناس أو بسبب نتوءات الحديد الصدئ على المقاعد وجنبات المركبات. ووسط هذا الازدحام يمر الكمساري ليتحصل من الركاب قيمة الركوب، ويبدأ معركته الخاصة في التحصيل.

(الكماسرة) نادراً ما يكونون نظيفي الثياب، ونادراً ما لا تفوح من آباطهم رائحة عرق حامض تزكم أنوف جميع الركاب، خاصة راكبي

كراسي النُّص في الحافلات الذين يتخطاهم الكمساري وهو ينحني ويتمدد لتصل يده إلى المقاعد الخلفية، وللتخلص من الرائحة أو مساعدة الكمساري يمرر الركاب النقود من الخلف إلى الأمام حتى تصل يد الكمساري الذي يسأل:

– دي حقَّت منو؟

يؤشر صاحب المبلغ والمتابع لحركة التمرير لنفسه بسرعة كي لا يضيع حقه وتُحسب لغيره فيطالبه مرة أخرى بالدفع.

داخـل وخـارج البصـات والحافلات تجـد الأقوال المأثـورة والحكم ومقاطع من الأغاني مكتوبة بخطوط رديئة أحياناً وإملاء خاطئ، عبارات مثل: عين الحسـود فيها عود. الحاسـد يحسـد والرازق يرزق. الجمل ما بشوف عوجة رقبته. تجري جري الوحوش غير رزقك ما بتحوش. يا دنيا يا ظالمة. أمي إن شاء الله لي تسلمي. دنيا فرندقس. ما شاء الله. تعيش كتير تشـوف كتير. صـلي على النبي. حسـبي الله ونعم الوكيل. خال فاطمة. والكثير من الأسـماء والصـفات والأمنيات والمخاوفَ المصـوغة فقط في عبارة أو اثنتين، مكتوبة ببوية بألوان صفراء وحمراء وخضراء وبيضاء عند خطاطي السوق، أولئك الذين تراهم يحملون صندوقاً كثيف البقع لدرجة أنك لا تستطيع تمييز لونه الأساسي، وغالباً ما يكون الصندوق من الخشب وأحياناً من الحديد، أصـابعهم طويلة ونحيلة وهم نحيلون وكثيفو الشعر. أيديهم مصـبوغة بألوان تماثل ألوان صـناديقهم. لكل صندوق حبل أو يد يدرعون الصـناديق على أكتافهم ويسـيرون. قد تجد بأياديهم فُرش وعلبة

ألوان، وقد يكتب أحدهم على جنبي صندوقه: خطاط درجة أولى. نمرة واحد. خطاااط. لوّن حياتك. عبِّر عن نفسك. أبو شامة للخط الحديث. ويحبون أن يُنادوا بـ: يا فنان.

كل من رأيته منهم يُنادى بهذا اللقب حتى احترت من فيهم الفنان! أما المتمكنون من الصنعة، تجدهم يؤجرون دكاكين صغيرة ويعلّقون لافتات متوسطة أو كبيرة بألوان زاهية ويكتبون فيها ما شاءوا ترويجاً لصنعتم، بل فنهم. بعضهم مشهورون. المتجولون بينهم مشاهير أيضاً، ومنهم فكهون وأصحاب نكات ومزاج دائم، يطلب خدماتهم كل من أسس دكاناً أو بقالة جديدة أو مكتبة أو محل قماش أو طاحونة، أو من اشترى بص ويريد تغيير الكتابة التي كانت عليه، أو حافلة أو تاكسي.. حتى عبارة (تاكسي مدني عدد (4) راكب) التي تجدها على التّكاسِي هم من يكتبونها ويتفنّنون في التفافها، فهي كما تعرف تكتب على درجات. تاكسي مدني أولاً ثم عدد (4) راكب تحتها أو قد تكون ملتفة حول رقم أربعة، أو تحته أو أعلاه.

ناهد كانت تقول إن كل عبارة مكتوبة على مركبة تدل على صاحبها. هناك العاشق، وهناك الخائف، الحاسد، الصابر، المؤمن، العابث، الكسول، الطمّاع، الجاحد، والكريم. كل عبارة ملخص وافٍ عن صاحبها، لقد فات عليّ هذا الأمر! عقلها أكبر من عقلي، أعترفُ، ولكن في المقابل معرفتي بالدنيا كبيرة وتعلّمت من الدنيا الكثير.

تابعتُ أثناء وقوفي في الموقف العام للمواصلات، خطاطاً يكتب في

خلفية أحد البصات الذي ينتظر دوره في الصف، بخط جميل وبلون أصفر فاقع: **الدُّنيا ليل غُربة ومطر**. تابعته منذ أن مسح بقماشه الملّطخ على الموضع الذي يريد الكتابة فيه، كان معه سائق البص، عرفتُ ذلك عندما اقتربتُ منه. أخرج علبة بوية صفراء صغيرة، صبَّ منها على اللوحة البلاستيكية، التي يحملها بيده اليمنى وفيها تجاويف عديدة ومختلفة الأحجام، صبَّ البوية على التجويف الأوسط والأكبر، وضع قليلاً من السبيرتو على البوية وحرّك الاثنين بالفرشاة ثم بدأ الكتابة. بتأنٍ وحذرٍ وضع الفرشاة وأنزل حرف الألف، ثم عاد ووضع علامة صغيرة عليه كالهلال مائلة تجاه اليمين، عرفتُ الآن معنى قولهم: (وقف مثل حرف الألف). حرفٌ منتصب، معتدٌّ بنفسه، ويعرف أن كل الحروف تأتي في ذيله. بالتأني ذاته كتب حرف اللام، ثم الدال التي رسم حدّها الأعلى أولاً، ورفع يده وجدَّد اللَّون على الفرشاة ورسم الحدّ الثاني بلونٍ أصفر مائل للبرتقالي. وضع تجويف النون وألحقها بالياء، ثم وضع النقاطَ باللون الأصفر المائل للبرتقالي، النقاط لم تكن نقاطاً كانت قطرات مطر تروي عطش التجاويف، أعلاها وأسفلها. ثم خطَّ كلمة: **ليل** بحنانٍ تدفق من فرشاته وقلبه، أحسستُ أنه سيُقبِّل موضعها، دنا عليها ينفخ فيهًا مع علمه بأن البوية تحتاج وقتاً لتجفّ، لم ينفخ بل استنشق رائحتها، كما هُيئ لي.

قلتُ له دون أن أبعد عيني عن كتابته:

– خطك سمح شديد.

نظر إليَّ متفاجئاً، لم يكن يشعر بوجودي وربما بكل هذه الضجة

وحركة العربات، صراخ الناس وزعيق الأبواق. ثم قال وهو يلتفت مجدداً للوحته:

– دا ما خط، دا فن.. فن.

كان يكتب كل حرف على حدة، وبعض الحروف يكتبها على دفعتين مثل الرّاء والباء والطاء التي وضع قوسها أولاً، ثم حرص على ألا يطول العمود النازل على حدِّها المقترن بخطها الأفقي، ويظل طوله متوافقاً مع حجم الحرف وحجم الكلمة بالكامل، كتبَ، أقصد رسَمَ بهدوء، بحبٍ، بمتعةٍ وجمالٍ كبير.

عندما أنهى كتابته ابتسم، انشرح وجهه وضحكت عيناه. ظل ينظر إليها إلى أن قاطعه السائق:

– يا فنان دورنا قرّب، خلصت ولا لسه؟

– تعال وشوف.

صفّر السائق إعجاباً بالكتابة، نادى زميله:

– تعال.. تعال شوف الكتابة هنا كيف؟ تقول لي كتابتك المكعوجة ديك!

– كتابة سمحة والله. أسمع ما تعمل لي زي دي ياخ.

سارع السائق الأول بقوله:

– بس شوف كلام غير دا يكتبو ليك.. ولا عاوز تحاكيني حتى في الكلام؟

– لا ما تخاف، أنا ما عاوز كلامك الما مفهوم دا، عندي كلام تاني.

– يا غبي دا كلام من غُنية.

– برضو ما مفهوم، يعني شنو هسى المكتوب دا!

لم يرد عليه وإنما سحب الفنان من يده ليعطيه أجره.

ابتعدوا. ظللتُ أنظر إلى مؤخرة البص حتى امتلأ وابتعد، تلك اللوحة المكتوبة لم تغادرني أبداً. كانت زاهية، جميلة، راقصة، ساحرة وطازجة. صادفتُ ذاك البص مرات كثيرة وكنت أعرفه فقط من مؤخرته.

أخرجني من حالة الفن التي سرتْ في روحي شجارٌ حاد بين السائق الثاني الذي أعجبه الخط ولم يعجبه الكلام المكتوب، وبين رجل عجوز يحمل مخلاة متوسطة من الدّمورية على كتفه بها لسان خارجي يغطي على السوستة. السائق اتهم العجوز بالاحتيال، واتهم العجوز السائق بالسرقة. كانا يختصمان على جنيه:

– إنت حرامي وأنا تاني ما بديك فكّتي.

– يا راجل يا عجوز أخجل، عاوز تحتال علي في جنيه وأسكت ليك؟ ماشي على القبر ولسه بتحتال على الناس!

انفعل العجوز كثيراً وعلا صوته:

- إنت واحد ما عندك أدب، أنا برضو زي أبوك، يا كلب يا قليل الأدب.

ورفع يده ليضربه بها، أمسكه سائق آخر:

- يا عمنا مافي داعي، الزول دا كان ضربك بوديك الآخرة.

قال العجوز بغضب:

- لكن ما سامع كلامو وقلّة أدبو دي!

- كدي أحكي لي الحصل شنو؟

- قبل يومين أديتو ستة جنيه ونص فكّة.. وأمبارح أديتو أربعة جنيه ونص، دي موش حداشر جنيه.. قال لي لا، أديتني عشرة جنيه بس.. والجنيه دا يا ولدي ياهو ربحي.

- يا عمك الزول دا كضاب.. أداني عشرة بس وأهو ولدي دا شاهد، وسحب الكمساري من يده ليقترب وسأله كم أعطاه؟

قال الكمساري بصوتٍ خفيض:

- عشرة جنيه.

قال العجوز بنبرة أقرب إلى البكاء:

- حرام عليكم والله.. حرام عليكم!

وحرّك مخلايته التي خشخ رنين المعادن داخلها، وأضاف:

– دا رزقي ورزقي عيالي، دا عرقي عاوز تاكله أُكله، لكن ما بعفاهو ليك.. ألقاهو يوم الحشر العظيم، وخلي الكمساري بتاعك دا يشهد ليك بعدين.

ابتلع دمعه وغُبنه وابتعد.

عرفتُ أن العجوز يبيع الفكّة[1] للسائقين بعد أن يحضرها من البنك فئات صغيرة من العملات المعدنية، عشرة قروش، عشرون، خمسون أو حتى خمسة.

تعاطفتُ مع العجوز، وكرهتُ السائق، تمنيتُ ألا يكتب له الفنان على بَصَّه (الهكر) هذا. هنا أيضاً في هذه المدينة يأكل القوي الضعيف!

قبالة الموقف مجموعة دكاكين متجاورة، معظمها مكتبات أدوات مدرسية ومحلات كريمات، في آخر صف الدكاكين محلات فواكه وبقالة أو بقالتين. يبدأ هذا الصف بأكشاك حديدية لبيع الكتب المدرسية المستعملة والجديدة، المصاحف الصغيرة، قواميس الجيب سيئة الطباعة، حصن المسلم، بعض الكتب الدعوية الصغيرة، كتب تعليم اللغات خاصة الإنجليزية تلك التي يُكتب على غلافها (تعلّم الإنجليزية في أسبوع)، تجد أيضاً طاولات لبيع الألعاب البلاستيكية، شباشب البيت، وملابس داخلية، فراشي أسنان، معجون وجوارب.

على الأرض أيضاً أشياء مشابهة مفروشة، طرح للفتيات، خفيفة

(1) العملة المعدنية صغيرة القيمة.

ورخيصة تذوب في الماء بعد أول استعمال لها ويحيل لونها. ينادي الكل على بضاعته ولاحقاً أضيفت وسيلة جذب جديدة بمكبرات صغيرة أصوات مسجلة تكرر الجملة طيلة اليوم، حتى إن زوار السوق اليوميين حفظوا كل العبارات بعد أن صدّعت رؤوسهم وملأت آذانهم وهم يمرون، ترافقهم وهم ينتظرون امتلاء البص أو الحافلة، وهم يشترون شيئاً أو يقابلون صديقاً قديماً فيقفون يسألون عن الحال وتبادل الأخبار، تشاركهم تلك الأصوات في كلامهم وتملأ فراغاته.

مررت بكل كشك وكل محل، وكل فرشة على الأرض وتوقفت فترة أمام كل طاولة عرض وكأنني أبحث عن شيء، وما كنت أبحث سوى عن تقضية الوقت لحين العثور على مخرج.

عربات (ليست عربات كما تعرف ولكني سأسميها كذلك) صغيرة بإطار أمامي واحد ومقبضين طويلين تُدفع بهما للأمام وتُسمى (دَرداقة) ملائ بالبلح، العجوة، الكركديه، العرديب، القرض، النعناع، المنقة ولأسهل عليك الأمر تخيل أي شيء يُباع ويشترى قد تجده فيها، بعض هذه (الدرداقات) تؤجر لقاء خمسين قرشاً لحمل الأثقال من آخر السوق إلى أوله حتى الوصول للحافلة. شريط مكاني ضيق يحتمل كل هذه الأشياء والناس والعربات، عندما تهمّ حافلة بالتحرك يحمل كل صاحب فرشة فرشته، يطويها من جانبيها ويبتعد ليلتصق بالحافلة الواقفة في الصف الآخر، ويجر كل صاحب درداقة درداقته ويلتصق أيضاً في حيز ضيق آخر، تسير الحافلة، ويكون هناك سائرون على جنباتها وخلفها يسيرون

خطوة ويتوقفون خطوات، تسير الحافلة خطوة وتتذمر خطوات. بمجرد ابتعادها متراً يعود الباعة ليفرشوا فرشاتهم على الأرض وتعود (الدرداقات) لتتجاور، هذه الحركة الدائبة تتكرر مع كل حافلة تخرج من السوق.

لم البضاعة بهذه الطريقة تراه أيضاً أيام (الكَشَّة) التي تنظمها البلدية، ترى مشهد الشرطي قادماً وخلفه العربة التي تُصادر فيها البضاعة، يلمُّ كل بائع الفرشة والمفروش عليها، يمسكها ويقف منتظراً إلى حين تجاوز الشرطي له، يعطيه الشرطي ظهره، فقط ظهره قبل أن يبتعد وقبل أن تبتعد العربة يفرش البائع الفرشة مجدداً! يعلم الشرطي هذا: أن كل بائع سيعيد فرش بضاعته مرة أخرى ولكنه لا يفعل شيئاً، قد يلتفت الشرطي حاملاً عصاه فيجمع البائع فرشته مجدداً، مشهد يتكرر كل يوم تقريباً، لا وهن عزم الباعة، ولا حلّت إدارة تنظيم الأسواق المشكلة، لعبة مكشوفة الأوراق يتبادلها الباعة وأفراد حملة (الكشة) باستمرار ودون يأس، حتى لو صودرت أيَّة بضاعة، قد تكون خضروات، أو ملابس داخلية، أو أحذية بيت أو إكسسوارات أو أي شيء فإن صاحبها يذهب ويدفع الغرامة ويستردها، ثم يأتي في اليوم التالي ويفرش بضاعته مجدداً في المكان ذاته وهو يعرف أنها قد تُصادر في اليوم ذاته مرة أخرى! لا خيار أمامه سوى الإصرار الأبله، من أين يعيش إذن؟!

ابتعدتُ من الموقف في اتجاه المحلات التجارية، وفي طريقي أوقعت متعمداً من طاولة الفواكه برتقالة انحنيت سريعاً والتقطتها وواصلت سيري. لم أتوغل كثيراً في الداخل، ضجة السوق لم تغادر رأسي، جلست

أمام ثالث محل، كان لبيع الملابس النسائية، بدأت في تقشير البرتقالة وحشرتها على دفعتين داخل فمي، علّها تُسكت جوعي برهة.

لم يتركني صاحب المحل أستظل بظّله، طردني بعد أن سألني:

– عاوز حاجة تشتريها يا أخينا؟

– لا لا.

نظر إلي بارتياب:

– طيب لو سمحت شتت من هنا.

– تعبان وعاوز أريِّح كرعيني شوية بس وأمشي.

– دي استراحة؟! يالّلا بالله، دا باب رزق ما تقعد لينا قدامو كدا. شوف ليك حتة تانية.

أمسك بقميصي إلى أن نهضتُ ثم دفعني من كتفي بعنف صارم، جرجرتُ إهانتي وذهبتُ داخلاً الموقف مرة أخرى تائهاً وسط الزحام وغائصاً في متاهتي.

ذهبتُ باكراً للخور، وتمددتُ بكامل جسدي، وهي المساحة التي ستتقلص لاحقاً ويصبح مقدار نومي في حدود (تكرفسي) مثل الدجاجة في الصينية، وقد أستيقظ لأجد قدم أحدهم على وجهي أو.. داخل فمي.

جاء إبراهومه بعد المغرب، بحث عني، كان الوضع معكوساً هذه المرة،

كنتُ أنا في الخور وهو يبحث عني، بالأمس كان هو في مكاني وأنا أبحث عن شبر أرقد فيه. عندما رآني ابتسم ونزل مباشرة، وكأيِّ صديقين بادلني التحية ومدّ لي ساندوتش الطعمية، لم تكن كالأمس مثل الوردة الذابلة، بل كانت حارة وطازجة كالنهدِ النّافر، مزقت الجريدة ورميتها قربي، وأكلتُ، أكلتُ تماماً كمن يأكل مَن لم يذق طعاماً طيلة النهار، أكلت بشره واستعجال وكأن السندوتش ستنبت له قدمان ويهرب من يدي. لكرمه البالغ مدّ لي بآخر أكلته بشهية الأول وبالشراهة نفسها.

لا يمكنني تحديد اليوم الذي اطمأننت فيه إليه بالضبط، لكنني وجدته بعد فترة صديقي الحميم، مَنْ يشدُّ عصب الحياة ويعزف لحنها.

كاستكماله لجُمْلة تلقاني، كان كَمَنْ ينتظرني، كان كمن يعرفني. كان ملاكي. لم يسألني مَن أين أتيت، أو مما هربت، ولم يخبرني هو أي شيء إلا بعد سنوات، بعد أن عملنا في المطعم، المطعم الذي أبعدنا عن الشارع والضياع والجوع وجعلنا نبدو كبني البشر، وليس امتداداً لظلالهم.

أُذن إبراهومه على فكرة لم تكن من النوع الذي تحبه، لكن قلبه كان مشرعاً على كل السِّكك وكل البشر، ما انغلق إلا أمام رجلٍ واحد كما أخبرني، هو من رماه كشوال زبالة ولم يتوانَ عن رفسه. رجلٌ ترك زوجته تدخل السجن في جريمته واستباح ابنها بعد ذلك، هو مساحة الكره الوحيدة التي يمكنك العثور عليها داخل واحة قلبه الشاسعة.

كان يقيم مع أمه وزوجها وأخته في (كمبو) في منطقة الحاج عبد الله، أمه كانت بائعة خمرة (مَريسة) لا يعرف أباه، أبداً لم يره ولا يشدّه

به طيف ذكرى وإن كان باهتاً، كل ما يعرفه عنه أنه غادر، لكن إلى أين أو لماذا؟ هذا هو السؤال الذي لم يجد له إجابة قط. ربته أمه وغذته من (المريسة)[1] قبل أن تختمر، كانت كل يوم تخصص له (كورة) يشربها من الصباح قبل الشاي الذي نادراً جداً ما يصاحبه اللبن.

– أمي عرّست قبل ما أشرُد بخمسة سنة. وأختي الصغيرة ولدتها قبل ما تعرِّس أبوها الطردني ده. راجل ببيع البنقو وخلاني أوزْع معاهو كمان وأمي اتسجنت بدلو.

بدأ حكايته دون مقدمات، كنا قد أنهينا عملنا وفي طريقنا إلى (الكِرَّه) وكانت (كِرَّه) حقيقية، أقصد بيتاً حقيقياً يملكه عم محجوب صاحب المطعم والد ناهد. كان الوقت مساءً رائقاً وكان يصفِّر قبل أن يبدأ حكايته كضربة على قفاك لا تشعر بها قبل أن تلتحم بجلدك.

سكتُ ولم أرد، كانت هي المرة الأولى التي يحدثني فيها عن حياته، هل الآن فقط اعتبرني صديقه؟ لا، هو صادقني من أول دقيقة عرفني فيها. أنا أيضاً لم أخبره بشيء، لم نأتِ على ذكر أهلنا قط، نسيناهم؟ هل كان لنا أهل بالأساس؟ هل نتخيل أنَ ثمة أهل لنا؟ أهم موجودون فعلاً أم فقط داخل عقلي وعقله؟!

– كان ببيع البنقو، بجيبو من تاجر كبير وبوزعو، ومرات برسل أمي توديهو.

(1) خمر بلدي من الذرة.

– عشان كدا أمك اتسجنت بدلو؟

– أيوه، أمي كانت شايلة البنقو، قال ليها وديهو لناس جوه الحِلَّة. لاقاها كومر الكشة وعارفينها بتبيع المريسة، العاسكر ذاتُن قاعدين يجوا يشربوا عندها، لكن كان معاهم ضابط جابوهو جديد، وقَّفوها وفتشوها لقوا عندها البنقو، قالت ليهم لقيتو واقع، طبعا ما صدقوها ورفعوها في الكومر واتسجنت عشرة سنة.

– هو ما مشى قال ليهم البنقو دا حقي؟

– الكلب ما مشى، قال لي كان مشيت ح يسجنونا نحن الاتنين البقعد معاك إنت وأختك منو؟

قلت له مغتاظاً:

– صحي كلب، وود حرام كمان.

– بعد ما سجن أمي كان عاوز يسجني أنا ذاتي، بديني البنقو ملفوف في ورق جرايد وبرسلني أوديهو لزباينو، كان بقول لي أوعك تفتح الورقة دي، لكن كنت بفتحها في الشارع. قال لي البوليس ما بشك فيك عشان كدا أنا بديك توزعو لي. يوم أداني كمية كبيرة، مشيت وزعتها وشلت القروش ودخلت السوق، أكلت في أحسن مطعم واشتريت فساتين لأختي وبناطلين وقمصان لي، القروش كلها كملتها وجيتو فاضي.

– وعمل ليك شنو؟

– دقَّاني لمان قرَّبت أموت، جرَّاني في الواطة وطـردني قال لي أمشي يا ود الحرام شوف أبوك وين. كان جيت هنا تاني بخليك تلحق أمك في السجن.

– أمك طلعت؟

– ما عارف، إمكن تكون طلعت وإمكن سجنوها تاني، ما عارف.

سكتَ، وسكتُ. ماذا أقول له، عُد وابحث عن أمك بائعة الخمر؟ أم عُد وابحث عن زوجها بائع البنقو الذي طردك؟ هل أنصحه؟ بماذا؟ ومن أنا لأنصحه، ما الذي أملكه ولا يملكه؟ كلانا في الهوا سوا. وما بال الهواء، إنه أفضل من كتمة النَّفَس. يا صديقي، هذا قدرنا وعلينا أن نعيشه.

نعيشه تماماً كما هو.

7

طرقتِ الشمسُ باب غرفته إثر تلك الليلة التي مسَّ فيها أذن سامية وقبَّلها. بقَي كرم كلّ الليل غائصاً في الإحساس الذي خلَّفته القبلة وراءها، الإحساس الذي عبأ فراغ جوفه حتى ملأه. إحساسٌ يدفع عمره كله كي يستعيده، كيف لم أمُت في تلك اللحظة! كانت كافية لتقتلني. بل، لم لم أمت فيها وأنا أحصي دبيب النَّمل في دمي؟ تنقر على نافذة روحي قطرات المطر المشتهاة من عمرٍ مضى وعمرٍ آت، تحملني بعيداً.. هناك حدّ الرّواء.

كيقينٍ راسخ، بسط الفرح جناحيه فوق أرضِ ليله المبتلة بلونِ الحب الشاهق. لم يدرِ كيف انقضى الوقتُ ساعة تلوَ الأخرى، وكيف طلع الصباح وهو لا يزال يلوك طعم الرعشة الباذخ حتى منتهاه. يذوي الوقتُ

الفَرِح سريعاً كشمعة طائعة تبعث نوراً في حين تذوب روحها في بقايا الحنين.

كيف لي أن أتجاوز ليلة أمس؟ وكيف لي أن أحيا دونها؟ فيها اكتشفت نداوة العمر والعطر والخدر اللذيذ. كم أتمنى لو أسجن نفسي داخلها ولا أغادرها أبداً. ماذا فعلتَ بي؟ أيَّتها البنت التي فتحت صناديقي بعثرت خباياها وأفشت أسرارها لنجمات الليل وعصافير الصباح. عندما سبقتْكِ ضحكتُكِ إلى غرفتي قفز القلب، قَعى في بؤبؤ عيني المشتاقة للباب، دخلتِ بعدها بشرى يترقرق صوتك في دهاليز الروح وأنتِ تسأليني:

– مالك قاعد براك؟

تمتمتُ ما طاوعتني الكلمات.

زادت ضحكة عينيك وقلتِ باهتمام:

– سألت عليك خالتي عَزيزة قالت لي قاعد في أوضتو ما طلع من بعد الغداء.. مالك؟ عيان؟

هل كنتِ تتحدثين بكلام يخرج من شفتيك، أم توهمتُ أنا أنه عزفٌ على كمان الروح أدركه كطيوف رؤى؟

تلجلجتُ، لم يكن من سببٍ معين لجلوسي في غرفتي، ولم أشأ أن أضيِّع لحظة الحنان تلك:

– حاسي بصداع شوية كدا.

قلتُ وأنا أرفع يدي لتمسَّ جبهتي، وكأنك لا تعرفين أين رأسي، وكأنني أؤكد على كذبتي الصغيرة بإشاراتي البلهاء تلك لرأسي.

لم أعرف إن صدقتني أم ادعيتِ ذلك، لكنك قلتِ بحنانٍ قاتل:

– سلامتك وناس الحِلَّة كلهم كرامتك.

– إلا إنتي.

نظرتِ إليَّ وابتسمتِ، واندهشتُ أنا من هذه العبارة التي هربت من تفكيري لأذنك وجعلتني ألملم بقاياها:

– قصدي يعني إنو ...

– ما تفسِّر لي، فهمت قصدك.

تراجعت نظرتي وما عرفت في أي جُحرٍ أدخل!

– بلعت بندول؟ أعمل ليك شاي؟

– أيوه بلعت حبتين هسى، ماعاوز أتعبك.

– أبداً، ما في تعب، ح أعمل شاي ونشربه هنا سَوْا.

لماذا تصرّين على إرباكي وزعزعة أمني؟ تريدين شرب الشاي هنا؟ معي؟ وحدنا؟

– خليهو أنا بسويهو..

قمتُ وكأنني أتدارك خواطري وأقطعها.

- لا، إنت عيان.. أنا بسويهو وبجيبو ليك.

دفعتني بيدك وقلتِ:

- أقعد قبلك.

قعدتُ، ومتُ، وحييتُ في دقائق الانتظار، انتظار الشاي، انتظارك، انتظار حلاوة عينيك وزقزقة ضحكتك. تناولتُ سريعاً المشط والمرآة، نظرتُ إلى وجهي، وسرّحت شعيراتي بسرعة. فكرت في تغيير القميص، لكنني عدّلت لأنك ستلاحظين. قمتُ وقعدت.. قعدت وقمت، شددتُ ملاءة السرير، وعدّلت وضع مسند الكرسي، خبأت كيس السعوط الذي يرقد على الطاولة، حاذيت الطاولة بين الكرسيين ومسحت الغبار الذي علاها (بفانيلتي) الداخلية التي انتزعتها سريعاً من شماعة الدولاب. ثم وضعت بعض العطر لينعشني ويساعدني على الصحو في ظلِّ الغياب الوشيك.

هل كنتِ تدركين أنه سيحدث ما حدث بيننا لاحقاً؟ هل كنتُ أدرك؟ هل كنتُ أتمنى، أحلم، أرغب؟ لم أكن أعرف أن بانتظاري كل هذا البهاء وحكّة القلب اللذيذة المستلذة التي لا تنضب. أيّ درب قادنا؟ وأيّ لغة وصلت بيننا؟ وأيّ ارتعاش؟

وجدتني عند عودتك بصينية الشاي أجلس على الكرسي الملاصق للذي ستجلسين عليه، أمامنا الطاولة تتطلع على صفحة وجهينا المنعكسة فيها، وتنتظر أن يندلق الشاي عليها بسبب ارتجافة يدي المصدومة من

القرب الحميم. اندلق الشاي. لقد تعبتِ في إعداده. واندلق حرجي على الطاولة ذاتها. حاولتُ زمَّ الحرج والشاي، ولكنهما سالا وسيّلا ارتباكي المرتبك أصلاً. من يفكر غيري أن يزُم السوائل من على الطاولة بيديه العارية؟! مَنْ؟ سوى هذا المدّله.. سِواي.

لم يكن بالقرب مني منديل أو قطعة لأمسحه بها سوى (الفانيلة) التي مسحتُ بها الغبار، فكرت فيها. أنقذتني أنتِ من خراقة تفكيري، أسرعتِ بحمل الكوب والذهاب مجدداً إلى المطبخ وجئتِ بقطعة القماش مسحتِ الشاي والحرج والخرق. يمكنني أن أمسح الطاولة بقميصي أو بنطالي، أمرٌ عادي، ولكن لا يمكنني أن أفعل هذا أمامك، أمام حبيبتي. وحدنا يمكننا فعل أشياء كثيرة، كثيرة جداً: أشياء خرقاء، سرّية، خاصة، ممعنة في الخصوصية، مخجلة، مفزعة، مقرفة، لكن لا تأتينا الجرأة أو البذاءة أو الشجاعة أو العفوية لفعلها أمام الآخرين، ومن هم الآخرون في هذا المشهد؟ سامية فكيف ذلك؟ كيف أفضح خرقي أمام حبيبتي التي ما فضحتُ لها قلبي بعد؟ ولكنه فُضح وجرني إلى مزالقَ طالما تهيّبتُ قربها.

أتيتِ بكوبٍ آخر بعد أن لملمتني بقولكِ:

– تصدِّق أمبارح اتكشح مني الشاي في بيتنا!

قُلت ذلك على سبيل المجاملة، أعرف، وإن ذهبتُ أبعد يمكنني أن أزعم أنَك كنت تقولين من خلالها: بطِّل الجرسة دي واعترف إنك متوتر كدا عشان بتحبني.

أدرك خجلي وتزعزع ثقتي بنفسي وبمشاعرك، وتدركين كيف تراوغين ولا تدفعين عني الهواجس.

شربنا الشاي، تونسنا، اغتبنا ناس الحيّ وبنات الحيّ رغم أنني لم أكن أعرفهن إلا لماماً. حدثتني عن عفاف تلك الفتاة الرقيقة التي تحولت إلى نمرة شرسة وهي تدافع عن حبها. هربتْ مع الشاب الذي تحبه، ثم تزوجته عن طريق المحكمة غصباً عن أهلها الذين رفضوه عندما تقدَّم لها.

حكيت لي أن وداد تركتْ الجامعة التي كانت تدرس بها في الخرطوم، ولم تخبر أَهلها. كانت لعام كامل تسافر وتعود على أساس أنها مازالت تدرس. أمها انهارت حينماً كُشفت الكذبة بطريقة ميلودرامية ومؤذية، فعندما ذهبت أمها إلى الخرطوم وعرفتْ بأمر ابنتها صرخت ووقعت مغشياً عليها داخل حرم الجامعة. وعادت الأم بعد أيام مريضة ومنكسرة. شعرتُ بالشفقة على الأم المسكينة التي كانت تنتظرً تخرُّج ابنتها وربما تحلم به.

سألتِني:

– بتعرف نهى بت ناس خالتي مريم؟

– أيوه، بعرفها لكن معرفة من بعيد. مالها؟

أخبرتني بمكرٍ أن نهى بنت ناس خالتي مريم التي تسكن في بداية شارعنا معجبةً بي، وقالت لكِ:

– نوع كرم دا بقتلني عديل كدا، أنا بحب الراجل الهادئ والصَّامت، لأنو حواسو كلها بتتكلم بدل لسانو.

هل قلتِ لي ذلك لأنك تودين أن تختبري ردّة فعلي، أم لأنكِ شعرتِ بالغيرة عليّ، أم هو مجرد كلام يساير نميمتنا تلك؟ أم هو توهمي؟

نظرتِ إلى وجهي فتعلّقت الابتسامة على شفتيّ:

– معقولة قالت كدا؟

– لو ما مصدقني أسألها.

– لا، مصدقك.. لكن...

– لكن شنو؟

– يعني ما خطر ببالي أنها ممكن تُعجب بي.

– ليه؟

– ما عارف.

صمتنا كلانا، كلٌّ رافق خواطره، لو أنكِ أنتِ من قلتِ هذا لكنتُ الآن، الآن.. الآن طافياً في موجةِ فرح هائلة. هل تشعرين مثلها؟ هل تعرفين أن كلّي يلهجُ بكِ، كل شعرة، كل خلية، كل قطرة دم. تشعرين؟

– قالت أكتر من كدا.

– قالت شنو؟

- بتحبك.

- عديل كدا؟

- لا، بالعوجة! أيوه، بتحبك وشديد كمان.

- لكن أنا ما...

- عارفة.

ارتجف صوتي وطرفت عيناي، ماذا تعرف، هل تظن أنني أبادل نهى مشاعرها؟ وسألتُك:

- عارفة شنو؟

- عارفاك بتحب منو.

- منو؟

- أنا.

يا إله السَّموات والأرض!

قنبلة، قنبلة انفجرت للتَّو و لم أحتط لها. هل أنكر؟ أم أؤكد؟ ها أنتِ أوقفتني أمام نفسي وأمامك عارياً إلا من تأرجحي بين النفي والإثبات. ولماذا أنفي حبي لكِ؟ أنا أنتظر منذ الأزل لأقول وأفصح وها أنتِ تقولين عني ما يعجز عنه لساني. لساني العاجز دوماً أمام أحاسيسي المتكومة فوق قلبي.

نظرتُ إليكِ وجدتك تنتظرين إجابتي:

– يعني إنتِ عارفة؟

بلؤم سألتني:

– عارفة شنو؟

– الكلام القلتيهو دا.

– قلت شنو؟

أصررتِ إصراراً طفولياً أن أنطق:

– إني.. إني بحبك.

ابتسمتِ. فابتسمتُ.

ارتباكي ومفاجأتك لي، وخرقي وخجلي وتلجلُجي وخوفي أنساني أن أسألك السؤال المهم جداً: هل تحبينني؟ لكنني لم أسأل و لم أعرف.. أبداً لم أعرف.

نظرتُ إليكِ، في عينيك، خدّك، أنفك، توقفت عند شفتيكِ. وتوقفتُ أطول عند أُذنكِ، لا يمكنني الآن حساب تلك اللحظة بعينها من ميقات عمري، أو تحديد الأفكار التي دارت في رأسي قبل أن أمسك يدك وألثم أصابعها واحداً واحداً. قبل أن أمسّ شفتيك وأمرر إبهامي عليهما. قبل أن تنزلق يدي لصدغك، قبل أن أتحسسه بتمهُّل وكأن كل الوقت ملكٌ لي، قبل أن اقتربُ منكِ، أَقتربُ، أقتربُ جداً، تمسُّكِ أنفاسي الحارة وأَقبّلكِ،

عفوا، أقصد أقبّلُ شحمة أُذنكِ، ألعقها بلساني ثم أمتصّها لأنقلب على رأسي، وتنقلبُ غرفتي وبيتنا والدنيا بما تحوي على رأسها، ويستبيحني الطّين.

ذلك اليوم نسيت أن أضع سفَّة السعوط!

8

عندما رأيتُ جمال يبحثُ بعينيه عن مكانٍ في الخور لم أتردد لحظة في الإفساح له ليجلس قربي. رأيته دخل قلبي، هكذا. لم يفصل زمنٌ بين رؤيتي له ودخوله قلبي، لا أفكار، ولا مشاعر ولا حديث. أقول لك ولا أيّ شيء، أي شيء وأعني كلامي حرفياً. هكذا فقط، رأيته، بل قبل أن أراه جيداً دخل قلبي، بعدها دخل حياتي.ربما أخبرك بأنني عاملتُه كأيِّ صديق ودون مقدمات، هذا صحيح، لأن دخوله قلبي جعله صديقي، وجعلني أشعر بأنه صديقي فعلاً. هناك أناس عندما تلتقيهم تشعر بالنفور، أو الكره، أو تتجاهلهم أو لا تشعر بشيء إطلاقاً لأنك لم ترهم، ربما كنتَ منشغلاً بفكرةٍ أو بهم، أو ربما كنتَ جائعاً مثلاً، وتعرف ما يحدث في حالات الجوع، عينكَ لا ترى وأذنك لا تسمع. المهم، ما أريد قوله هو إنني بمجرد رؤيتي له أحببته واتخذته صديقي مثلما تخرج الكلمات من

حلقك سيسمعها الطرف الآخر في اللحظة ذاتها، هذا ما لم يكن أصمّاً!
هكذا حصل الأمر جوَّاي وبهذه البساطة كشُربك للماء.

تعرف، أفتقده الآن، أفتقده كثيراً وأشعر بأنني صرتُ كاليتيم دونه.
ابني الثاني أعطيته اسمه: جمال، هل أخبرك بقصة ابني الأول؟

أمه نبقة حبيبتي، هي بنت خالة حوَّاية بائعة الشاي، أحببتها كثيراً ومازلتُ أحبها بالطبع. وكيف لا أحبها؟ كانوا يسكنون قربنا في البيت في حيّ الحِلّة الذي أقمنا فيه معظم سنوات عملنا في المطعم. وهو البيت الذي يخصصه عم محجوب لعمّاله الذين لا سكن لهم. لقد كان رجلاً طيباً وكريماً ويختلف اختلافاً شديداً عن معلم سالم؛ معلمنا القديم في المقهى. نناديه بـ عم بدلاً من معلم، كنا نشعر به كعمّ وليس كصاحب عمل، لكنه بسبب قصة ابنته ناهد تحوَّل إلى شخص آخر لم نعرفه وهذا ما صدمني بشدة، مع أنني أشعر أحياناً أنه فعل ما فعله غصباً عنه لإرضاء زوجته وابن أخيه وليس لأنه فعلاً يرغب في ذلك.

لم نسكن في تلك (الكِرّه) إلا بعد أن عملنا مدة سنتين في المطعم، كنا فقط غاسلي أواني: صحون وحِلل ومغارف وصواني و(جكوك) وأكواب. ولا تعتقد أن هذه مهمة سهلة في مطعمٍ كبيرٍ كذاك المطعم. إنها التَّعب ذاته.

جاورنا وقتها ناس خالتي حوَّاية وبدأت قصتي مع الحنان، نعم، أقصد نبقة. سآتي لهذه القصة لاحقاً.

قالوا إن (الكومر) في الطريق، حدثت سرقة كبيرة في بيت أحد رجال الأعمال في المدينة، وقُتل ابنه في الأثناء. كان ذلك في أحد شتاءات عمرنا الناشف، وكان (كرِّتنا) الخور ذلك الوقت. (الكومر) أو (الكوامر) ستأتي لتأخذ كل الموجودين وتحقق معهم وهذا يعني أن تضربهم حتى الموت أحياناً. جمال قال لي بمجرد سماعه هذا الكلام:

- نُط.. نُط..

ورفعني لأقفز على سور المستشفى الحديدي وأقبع في حوشها.

- نُط قلت ليك.. لو قبضوك ح يطلِّعوا دينك وح يطردوك من القهوة كان غبتَ. عشان كدا نُط ياخ.. نُط سريع.

- طيب نُط معاي؟

- لا، أنا ما بَنُط. كان زُغنا سوا بننكشف إنت ناسي العساكر عارفننا واحد واحد؟

- طيب ح يعرفوني مافيش؟

- كان سألوا منك بقول ليهم رجع يفتش أمه.. وبعد الحكاية دي تنتهي نقول جيت تاني.. يالّلا ما في وقت.. نُط.

دفعني من مؤخرتي، وقفزتُ واختبأتُ في ظِل مبنى النساء والتوليد أو الجِناح كما يُسمى.

تكومتُ، وظلّت عيني وأذني وقلبي هناك. كنتُ أنظر من خلال

السور. كان السور مقسوماً نصفين، أسفله مبني من الطوب، وتعلوه شبكة حديدية في شكل دوائر متداخلة وهذا الجزء يسمح بالرؤية عبره دون مشقة.

جاءت مسرعة أربعة كوامر وعربة كبيرة، توقفتْ على طول الخور وأحدث توقفها المتتابع صريراً مخيفاً، وترك أثراً على الأسفلت الأسود. تدافع كل الخور لائجاً من اليمين إلى الشمال، كل من في الخور تحركوا بسرعة وحيرة بين الشمال واليمين مثل الفأر الذي حوصر في قفص ضيق. ضُرب كل من حاول الجري بعصي العساكر وسياطهم الجلديّة، رُكل وأُلقي به السيارة كالشوال داخل العربة. حتى مَنْ لم يحاول الجري لم يسلم من ركلات العساكر وسبباهم.

– أركبوا يا حرامية.. أركبوا.

– والله الليلة تشوفوا فيلم من أُمّه.. بقيتو تدخلوا البيوت وتقتلوا الناس كمان؟!

– شوفوا ليكم حرامية غيرنا.. ديل ما نحنا.

– ما إنتو؟ هسى بتعترفوا يا أولاد الكلب.

ويقبضون على كل واحد يُركل، يُسب ويُرمى داخل الكومر. رأيتُ كُتّي وهو يُجر على الأرض من يديه مسافة ثلاثة أمتار ويُرمى داخلاً، وهو يصرخ باكياً ويقول:

– والله دا ما أنا. والله دا ما أنا.

الصغار تبولوا على أنفسهم، النساء يصرخن ويشتمن العساكر:

– يا كلاب الحكومة.. يا معفِّنين.

– رَجَالتكُم دي علينا بس.. ما تمشوا لجون قرنق عشان يقطِّع رقابكم ويريحنا منكم.

قالت المرأة التي تحمل على صفحتها طفلاً هزيلاً وبطنها منتفخاً، ضربها على بطنها بسوطه قائلاً:

– ودا أبوهو منو ولا برضو ما عارفة زي القبلو؟!

– أبوهو سيدك يا عَفِن، إنت زي دا ما بتقدر تجيبو.

صرخت إحدى النساء:

– ياكُن إنتو ذاتكم السرقتوا حاميها حراميها.. نحن ديل ما حيطتكم القصيرة أي مصيبة تعلِّقوها فينا.

بعثروا خرق ومخالي الشحّاذين العجائز ونثروا محتوياتها البائسة على الأرض، ثم داسوا عليها بأقدامهم ودّكوها، بما فيها أكواب الشرب وزجاجات المياه الغازية الفارغة التي يعبونها من الأزيار في الشوارع أمام بعض البيوت، وبعض صحون الألمونيوم التي يتلقون فيها كسرة خبز، نقوداً معدنية، بلحاً، موزة، برتقالة، طعمية، أو أيّ شيء آخر مما يمكن للنّاس أن يجودوا به، فالناس لا يعطون كل شيء، ولا يمكن لذلك الصحن الحزين المنبعج أن تُرمى فيه عشرة جنيهات أو مائة جنيه أو دجاجة كاملة أو حتى نصفها، هو نفسه لن يصدِّق وسينتفض ويلفظها كمَن لدغته عقرب!

الكثير من السليسيون والبنزين في قناني الأدوية الصغيرة مخبأ داخل الجيوب. أحد العساكر عثر على زجاجة عَرَقي مع قِزَازة وهو سكير أصيل نسي اسمه الحقيقي، لا يعرف لا هو ولا غيره اسماً له غير هذا الاسم (قِزَازة).

– أها يا قزازة، ودي من وين؟

لوّح له العسكري بزجاجة العَرَقي، حاول قزازة النهوض ولكنه عاد وسقط، ثم حاول مرة أخرى ورفع جسمه وقع من جديد على قفاه.

– دي منو فيهم السَّيكْتها في القِزازة دي؟

– يا.. زول أم..شي مِن..ي أح..س..ن لي..ك..

– صَحِي سكران.. أمشي وين يا عمك.. دي حملة، حملة نضافة منك ومن الزّيَّك كدا.. قوم على حيلك يا مشَعَشِع.

أنهضه وهو مازال يمسكِ الزجاجة بيده، أضاف:

– ما داري بالدنيا والجوطة الجنبك دي! عايش في دُنيتك قلت لي!

أمسك بالزجاجة، نظر إليها ونزع غطاءها ورفعها إلى فمه، حاول قزازة النحيف جداً خطفها منه، مدّ يده فابتعد العسكري، ترنَّح قزازة وسقط على وجهه.

– تستاهل.

قال العسكري، وتجرَّع بقية العرقي على دفعةٍ واحدة، ثم رمى

الزجاجة على الأسفلت لتتناثر أجزاؤها قرب وجه قزازة النائم أو الغائب عن الوعي.

بعدها نادى على زميلين له، حملا قزازة من يديه فيما حمله هو من رجليه ورموه داخل العربة الكبيرة.

همستُ من موقعي:

– الكَدْيِس[1] بحرِّسوهو اللَّبن! بالله شوف الزول دا؟!

– الحكومة جيش من الكدايس الجعَّانة، ونحن ما قادرين نحرس لبنَّا.

كان عم محجوب يردِّد بتحسُّر.

رجلان قاوما، وتملّصا من قبضة العساكر، هجم عليهما خمسة وضربوهما على رأسيهما، قيدوهما بالحبال من الخلف، وأضافوا على ذلك بضعة ركلات وضرب بالعصي على المؤخرات.

كان جنوناً ما يحصل أمامي، جنوناً وقسوة، وكنتُ أراقب مختبئاً في الظِّل. جمال لم يبدِ أية مقاومة، ولم ينتظر ليمسكوا به، بل صعد على (الكومر) بنفسه، عرفتُ أنه لم يحب أن يلفت الأنظار إليه فتتساءل هذه العصابة عني.

لقد أحسن إليّ جمال عندما أجبرني على القفز، قد تظن أو يظن غيرك،

(1) القط.

أن هذا فعل عادي وطبيعي لصديق يرغب في تجنيب صديقه ويلات عذاب وطرد من العمل وكفى. لكن هذا الأمر في عالمنا شيء غير مألوف أبداً. ذاك العالم طاحونة تطحن كل من يدخل إليها دون رحمة، مثلها مثل الطاحونة التي تنظر إليها من أعلى. الإخلاص لصديق هناك أندر من أسنان الديك، وإعطاء اللُّقمة بدلاً من خطفها من المستحيلات، وأعني طبعاً إعطاء اللُّقمة طوعاً وعن رضا، ليس خوفاً ورهبة، أو رشوة، كما يفعل صغار المشردين والجُدد منهم للأقوى لحمايتهم في تلك الغابة البشرية المتعفنة. وهو اقتسم معي اللقمة بحبٍ ونفسٍ راضية خالفتْ القوانين هناك.

مات في تلك الحملة ثلاثة: الأم الحامل التي استفزت الشرطي بأنه لا يستطيع الإنجاب. يبدو أنه وجد طريقة ما للانتقام منها. وطفل في السابعة من العمر. وشيخ عجوز، لم يتحمل ضربات العصي واللكمات والرش بالماء وكل ما عذبوهم به فضلاً عن تجويعهم كعذابٍ إضافي.

لم يُرحموا من العذاب إلى أن اعترف شاب بأنه سمع ثلاثة رجال كانوا يتحدثون ويخططون لعملية سرقة، قرب أحد الدكاكين في السوق. تركوا البقية واحتفظوا به إلى حين القبض على اللصوص. لاحقاً تبيِّن أنه هو نفسه شريكٌ في تلك العملية، مما دفعنا جميعاً للغضب والسخط منه، ونويتُ إن رأيته بعد خروجه من السجن أن أقتله.

عندما أفرجوا عنهم، كانت حالتهم أسوأ من وجودهم على قارعة الطريق يأكلون من القمامة وبواقي أكل الناس في الأسواق وأكياس الزبالة أمام البيوت.

جاءني جمال بعينٍ متورمة، وكتفٍ منزوعة من مكانها، وهزال بائن، ووجع كبير في الجسمِ كله. نظرتُ إليه: أنقذتني من عذاب كهذا، أنت لا تشبه هذا العالم أبداً. أحبك يا أخي، يا صديقي.

كان ينتظرني مصير مماثل لولاه، إضافة لطردي من العمل الذي كنا نعتمد عليه كلانا، ويوفر لنا أقل القليل، ولكنه يُبقينا أحياء وبَعِيدَين وإن ليس بعيداً جداً عن موائد القمامة و(الكوش).

9

في البدءِ كُنا أنا وإبراهومه نغسل أواني المطعم، وهو عملٌ يضمن لنا ما يملأ معدتَنا وأكثر، من بقايا الطعام في الأواني، فضلاً عن الوجبتين الممنوحتين لنا كجزء من العمل و لم تكن خصماً من الراتب على فكرة، تأمّل كرم عم محجوب!

في الشهر الأول كنا شرهين جداً، لا نترك أي شيء لغيرنا من بقايا الزبائن على الصحون أو الرغيف على الصواني، كنا نلتهم كل شيء، ونشكر كثيراً من يترك باقي أكل أكثر من الآخر. نحمل بأنفسنا الصينية، نراقب الزبائن مراقبة شديدة أثناء أكلهم، نسارع في حمل الصينية لتُغسل، هذا في ظاهر الأمر وكما يراه عم محجوب، لكننا في الحقيقة كنا نحملها سريعاً كي نقطع على المشردين الصغار خطف الصحون والتهام ما بها، نحنُ أولى، أليس كذلك؟

المطعم لم يكن بعيداً عن المقهى، يقع بعده بشارعين، ويفتح على الشارع الجانبي الطولي المتقاطع مع شارع المقهى ويقابل الاستاد. مطعم كبير، غرفة كبيرة للطبخ ملحق بها غرفة غسيل الأواني في الداخل، في الخارج مساحة على جزأين طولي وعرضي، بها الكثير من الكراسي والطاولات وفي أركانها الستة حافظات ماء كبيرة مثلجة، هناك ماء أيضاً في (جكوك) من البلاستيك المقوى وأكواب معدنية من (الإستيل) والقليل من الأكواب الزجاجية على كل طاولة. المياه في الحافظات لعابري السبيل الذين عرجوا فقط لشرب ماء مثلج مجاناً، يوفر هذا عليهم ربع جنيه أو نصف جنيه لشرب الماء المثلج من الباعة خارج المطعم، مثل الماء الذي فكرنا في بيعه من قبل، وقد يُكلف جنيها كاملاً للشخص العطش جداً خاصة في الصيف، وإن أحببت أن ترفِّه نفسك بكوب عصير خفيف من الليمون أو الكركديه فهذا يكلِّف القيمة ذاتها للكوب الواحد – أيّ جنيهاً، وإن أردت الارتواء فعليك أن تدفع أكثر في عصير كل ما فيه خفيف: سكر خفيف، ليمون خفيف، كركديه خفيف، لونه خفيف، شعور خفيف بالارتواء، وترطيب خفيف ومحدود من حرِّ الشمس.

تساؤلات عدة شغلتني في اليوم الأول للعمل: هل عم محجوب غني جداً حتى يهب الماء المثلج هذا مجاناً؟ ماذا يستفيد من وراء هذا التبذير؟ أهو طيِّب إلى هذا الحد؟ هل لديه مصنع ثلج؟ من أين يأتي بكل هذا الثلج؟

– عمك دا فاكّة منو ولا شنو؟

– رزق المساكين على المجانين يا فردة.

أجابني إبراهومه.

تلفتُ في المطعم والزبائن، وصحون الأكل وحلل الطعام الكبيرة، الكبيرة جداً، التي ليست مثل حلل بائعات الأكل في الخارج، إنه غني جداً وله زبائن كثيرون. تلفت واندهشت أكثر مما عملت.

كان علينا أن نلزم مكاننا في غرفة غسل الأواني، ولكننا كنا نخرج ونذهب إلى الصالة ونحمل الصواني أقصد نخطفها قبل أن تُخطف منا.

المتشردون لا يتردّدون في خطف كل ما يتاح لهم من المطعم والجري، حتى عندما يُقبض عليهم لا يُعاقبون، تصوَّر! فقط تُنزع منهم الأطباق ويُتركون لحال سبيلهم، هناك عامل يهتم بنزع الصحون من أيدي المشردين. العم لم يكن يخشى علي مظهر مطعمه. إنه طيب للغاية، أردد مع نفسي.

كان عم محجوب يترك مهمة استلام المال لابن أخيه عثمان. كان يجلس على المقعد العالي وطاولة الحساب لفترات قصيرة، ودائماً تكون جزءاً من فترة الصَّباح لا أكثر، بقية اليوم يقضيه داخل مكتبه، وهو غرفة كبيرة أنيقة في ركن الصالة يربط بين الجزأين الطولي والعرضي. باب المكتب موارب، لفحات من الهواء البارد تهبُّ من داخله يشعر ببرودتها من يمرُّ أمام المكتب، في مكتبه يعمل على تجهيز طلبيات الغد وجرد الحسابات وإعداد الفواتير وكل ما يتعلق بإدارة المطعم أو بقية أعماله.

لدينا يوم إجازة هو الجمعة بالتناوب كل أسبوع، جمعة لإجازتي والجمعة اللاحقة لـ إبراهومه. كان المطعم يفتح أبوابه طيلة أيام السنة عدا

شهر رمضان، الحكومة تشترط قفل كل المطاعم ومحلات الأكل في نهار رمضان، ومن يُضبط فاتحاً أبوابه يغرّم غرامة كبيرة، مع هذا تجد الكثير من المحال تُغطي أبوابها بستائر من المشمع وتبيع طعامها بمنأى عن العيون. أشكُّ أن الحكومة لا تدري بهذا

وقت صلاة الجمعة أيضاً نُجبر على إغلاق المطعم، وللحقِّ لم يكن عم محجوب يتلاعب مثل بقية أصحاب المحلات التجارية، فهو يوقف الخدمة حقاً. وتُقفل الأبواب بالأقفال الحديدية لما بعد الصّلاة. الآخرون – وليس كلهم للحقِّ أيضاً – يقفلون من الخارج في حين يظل التسوّق في الداخل مستمراً، وإن فتحت دورية الشرطة التي تجوب الأسواق، ويحمل أفرادها العصي والسياط الجلدية في تلك الساعة، الكثير من الأبواب المغلقة تجد البيع مستمراً خلف الأبواب. الحكومة لا تعرف بشأن هذا أيضاً؟ ماذا تعرف إذن؟!

– الحكومة عارفة لكن مطنشة يا عمك.

كما قال الدينمو.

من حينٍ لآخر يأتي مفتشو المحلية، يعاينون كل شيء، الطلاء، الجدران، الجحور في الأسفل، الأواني، الأكل، الطاولات، الأكواب، نحن، الطباخ. تفتيش دوري يسبب لنا الكثير من الرعب، يسجّلون كل ما يمرون عليه في دفاترهم الكبيرة، وحديثهم كله أوامر جافة:

(أفتح الحلّة دي)

(مدّ الصحن دا)

(زح الغُطاية دي.. في شنو تحتها)

(أعمل حسابك لو جينا لقينا كدا ولا كدا ما بنرحمك)

يبرطم الدينمو الطبّاخ بعد ذهابهم:

– فلاحتكم هنا بس.. لو كنا بنقبّضكم حاجة زي غيرنا ما كنا ح نشوف وشّكم العكران ده، تقاريركم دي كنتوا ح تكتبوها في مكاتبكم، زي ما بتعملوا للجماعة!

كنّا أنا وإبراهومه نغسل مرايلنا آخر اليوم في طشت غسيل العِدة وبصابون المطعم، شدّد علينا عم محجوب أمر النظافة بشقيها، العامة والشخصية، لا يمكننا أن نتجاهل بقعة زيت على صينية، أو نتفة بصل على طرف صحن، أو لطخة على كوب ماء أو حتى تغيُّر رائحته برائحة طبيخ بامية أو رجلة أو بأي طعام آخر.

– اسمعني، لازم نظبط الحكاية دي كويس، عشان كدا نغسِّل الماعون أكتر من مرة.

– ظابط يا فردة.

قال لي إبراهومه مبتسماً ومتحمساً.

– لكن موضوع غسيل الهدوم دا كيف؟

– أيوه، دي المشكلة، ما عندنا حاجة في الكِرَّه عشان نغسِّل فيها، والصابون دا زاتو ماسورة.

– أيوه ماسورة وح يقُص من القروش كمان.

– جاتني فكرة، نغسِّل هدومنا هنا بعد ما ننتهي.

ترددنا إن كان سيسمح لنا عم محجوب باستخدام الصابون، هو ليس بخيلاً مثل المعلم سا لم، ولكن أيضاً غسل الملابس في مكان العمل فكرة غريبة، ولن ترضي صاحب العمل. هل نستأذنه أم نتصرف دون معرفته؟ ولكن إن عرف أننا نغسل ملابسنا بصابونه وفي ذات الطشت الذي نغسل فيه العدة لن يرضي، وربما طردنا كما طُردنا من قبل. ماذا نفعل؟ إن أردنا المحافظة على عملنا فلا بدّ من إخباره وأخذ إذنه أولاً.

بعد أن حسمنا أمرنا وأخبرناه، ضحك ورجع للوراء مسنداً ظهره على كرسيه الكبير الذي يدور في الاتجاهات كلها.

– بس كدا! طيب ما في مشكلة.. غسلوا هدومكم وهدوم أصحابكم كمان.

– شكراً.. شكرا ليك، ياللّا أرح.

لكزتُ إبراهومه، وخرجنا مبتسمين ومندهشين، ليس من قبوله وإنما من استئذاننا، هل يعني هذا شيئاً جيداً لنا؟ هل هكذا أصبحنا أناساً طيبين؟ أم هي رغبتنا في البقاء هنا في المطعم وسط كل هذا الأكل الوافر المطمئِن؟

– الحكاية شنو يا فردة؟

- ما تركّز يا حِبّو.

وضع يده على كتفي وذهبنا متماسكين لغرفة الغسيل.

10

أول من يحضر إلى المطعم هو عباس الطباخ، يأتي بعد صلاة الفجر بوقت قليل، بعده يأتي مساعده عزو. عمل الطباخ ليس بسيطاً فعليه يقوم المطعم، وبسببه يفتح أبوابه، هو طباخ جيد ولا شكّ، كان عم محجوب يعتمد عليه في كل شيء ويستشيره في لائحة الطعام الثانوية التي تتغير كل يوم.

عندما يأتي عباس يبدأ بتقطيع البصل وتحميره ثم يضعه في تلك الحِلل الكبيرة التي نكون قد غسلناها منذ الأمس، ثم يشرع في إعداد الطعام، حينها يكون مساعده قد وصل. عباس يطبخ ألذ (ملاح تقلية) يمكنك تذوقه، الكِسرة تأتيه جاهزة من بيت عم محجوب، تعدّها امرأة هناك، أما عزو فيَصنع (القراصة) من دقيق القمح، والعصيدة من دقيق الذُرة المتخمِّر.

المطبخ هو المكان الحيوي في المطعم و(الدينمو) هو المحرك، نحن أحببنا تواجدنا قرب المطبخ، نتابع مراحل الاستواء، ننظر إلى الحَلل التي تهدر على النار، وإلى تلك الفقاعات داخلها وإلى (البقبقة) للمكونات تعيسة الحظ التي وقعت تحت يدي عباس. نتابع صُنع (القُرَّاصة) التي تقلّب على الزيت البسيط، وقد نتذوق الطعام لنؤكد على لذّة الطعم، ولكن بعد أن يطلب عباس هذا. لا يمكننا أن نقترب من حلله الكبيرة أو طعامه دون إذنه. يجلس على مقعد كبير وأمامه خمسة مواقد كبيرة ممتلئة فحماً أسود سرعان ما يصبح أحمرَ بعد أن يتخطى الأصفر والبرتقالي، يصبح ناراً تُنضج الكافر كما يقول عباس، ثم يصبح الأسود أبيض، أي رماداً في آخر المطاف.

- النار عاوزة ليها قلب حار يا أولاد.

- لو عاوزين تولِّعوا النار بسرعة خلوا قلبكم حار.

أرد عليه:

- ممكن أولعها بجاز وبرضو بتولع شديد..

- أوعك تعمل كدا، نار الجاز بطلع طعمها في الأكل، الطَّباخ الحَرِيف بولِّعها بالورق بس، وبعد ما ينتهي الدّخان كلو يخُت حلّتو فيها.

لم أكن أهتم كثيراً بنصائحه عن الطبخ والطَّباخ الحريف أقول في نفسي: قول كلامك لـ إبراهومه أنا ما عاوز معاكم.

إبراهومه عكسي يهتم بكل تفصيلة في مسألة الطبخ، أنا آكل فقط وأستطعم لا أكثر من هذا، آكل كثيراً وأستطعم قليلاً، أما هو فيقضي معظم الوقت الذي لا نعمل فيه مع عباس.

غرفة المطبخ حارة جداً، حرارة منبعثة من المواقد والحِلل الحارَّة وصاج (القُرَّاصة) وكل شيء، أما غرفة الغسيل فتكون رطبة علي الدوام، الكثير من الماء يتدفق منا أثناء الغسيل، من الجرادل والطشت والأواني يتقطّر ماؤها عندما نضعها على (النَّشَّافة). هل قلتُ لك إن الأرض كانت ترابية؟ وهذا أحد أسباب الرطوبة الدائمة.

(جيب صحنين، واحد كبير وواحد صغيّر)

(مدّ الجك دا)

(أرفع لي الصينية ديك)

يطلب مننا عزو باستمرار بصوت خفيض وهادئ، ويعطيها لـ عباس ليغرف الأكل. تفرّغ النشافة وتُملأ مجدداً طيلة اليوم، لكن في المساء تملأ وتفيض وتقع الأواني وتصبح تلة من الألمونيوم والبلاستيك المقوى والزجاج.

في مرحلة لاحقة اشترى عم محجوب الدكان الملاصق، وتوسعت الغرفة والمطبخ، وعُلقت في سقفه مروحة جديدة تدير الهواء الحارّ حول نفسه وحول عباس، أما نحن فقد اتسع المكان لنا بصنع سقيفة من الزنك مفتوحة الجوانب وصار المكان أبرد ممّا كان، لكننا كنا نتعب من مداهمات

الغبار الغادرة، بالذات الليلية عندما نكون غارقين في الحلم، في الصباح التالي نجد كل العِدَّة معفرة بالتراب.

كان عباس رجلاً ضخماً، مرحاً، ضحوكاً ومعتزاً بنفسه كثيراً ومهارته في مهنته:

– تعرف يا برهوم، المطعم دا قام على أكتافي، لو ما أنا ما كان بقى مشهور للدرجة دي. لو أنا مشيت المطعم دا ح يقفل.

يتجشأ ويخرج كيس سعوطه، يفتح الكيس، يشمه ويكور في إحدى زوايا الكيس جزءاً من السعوط، ثم يرفع شفته العليا ويضعه بتلذذ تحتها، ويلفظ نثار السعوط على الجنب بعد أن يجمعه بلسانه.

– محجوب دا راجل فاضل.

كان ينادي عم محجوب باسمه مجرداً، ربما كان يشعر بأنه ندٌ له، فهو الحلقة الأهم هنا.

– قبل ما أجي أنا المطعم دا كان حالتو تحنِّن، والراجل قرّب يقفله، كان عندو طباخ فارش، وأكلو كلو فارش. ومطفش الزباين كلهم.

يقول إبراهومه المعجب به:

– شايف عم محجوب بعتمد عليك كتير.

– أيوه، لازم يعتمد عليّ، أنا دينمو المطعم دا.. على فكرة يا أولاد تاني قولوا لي الدينمو بس.. ما أسمع واحد منكم يناديني عباس، الاسم دا أصلاً أنا بكرهه وكان بمرادي كنت غيرتو.

كان مساعده عزو عكسه، شاب نحيل وصموت ولا يجعجع مثل معلمه ذي الصوت الجهور.

يمسكه من ترقوته، ويقول له مازحاً:

- يازول أنت الأكل البتاكلو دا بتوديهو وين؟ عندك دودة جوه؟ هاهاهاها

- ولا بتحب وأنا ما عارف! بس أوعى يوم تسرح وتخت يدك بدل القراصة هاهاهاها

ولن يتركنا في حالنا:

- شايفكم.. جيتوا زي الطير الباليهو المطر ترجفوا من الجوع، وبقيتو عندكم جضوم.

قرصني على خدي وربّت عليه:

- هاهاها بس ما تبقوا زييّ كدا بعد شوية.

مسح على بطنه الكبير وتجشأ.

كان محقاً، ازداد وزننا فعلاً وابتلت عرقونا و لم نعد (نكابس) لبقية الأكل على صينية الزبون، صارت الأواني تأتينا حتى مكاننا حيث الضحك مع الدينمو الذي يكون قد أنهى طبخ الفطور وبدأ في تجهيز الغداء، وهما الوجبتان اللتان يقدمهما المطعم. صرنا نأخذ معنا أكلاً للصغيرين يعقوب وجمعة وأحياناً لـ كُتِّي ولالو مما يتبقى في الحلل أو إن فرغت تماماً من

(الكرتة)[1] التي كان يجمعها الدينمو من خليط بقايا الصحون والرغيف والكسرة لدجاجاته البدينات مثله.

كتيبة صغيرة من العمال من مختلف الأعمار جمعها مطعم محجوب الشهير، عمال لغسل الأواني، للصالة وجلب الطلبات، للنظافة ومسح الطاولات، لتوفير الماء لكافة الأغراض: الشرب والطبخ والغسيل حتى مسح أرضية الصالة. عاملان بجانب عملهما يذهبان مع عم محجوب لشراء الاحتياجات التي يحددها مع الدينمو، وعندما يغيب عم محجوب لسفر أو مرض أو يتغيّب لأي سبب آخر، كان يأخذنا الدينمو معه بدلاً من العاملين الآخرين، وهذا الوقت كتت أحبه كثيراً يصحبنا نحن في حين بإمكانه اصطحاب عزو قال لنا من أول يوم:

– عزو ح يفقع مراراتي.. أحسن تمشوا معاي إنتو تونسوني.

من يعطي يرزقه الله، يقول هذه الجملة أصدقاؤنا الشحاذون، ليحنِّنوا قلوب الآخرين عليهم، ولكنها جملة صادقة وحقيقية كما رأيتها مع عم محجوب كلما أعطى كلما ازداد غنى، لا يملك المطعم فقط، بل يمتلك عدة بيوت مؤجرة وعدة دكاكين في السوق الكبير. الشيء الذي حيّر إبراهومه ذات ليلة كنا نستلقي فيها على ظهورنا:

– المحيرني عمك دا جاب القروش دي وين؟

(1) بقايا الأكل.

– يا زول ما تحسد الراجل.

– ما حاسدو والله، لكن أول مرة أشوف لي زول غنيان بالطريقة دي.

– الله بريدو.

– يعني الناس الزّينا كدا الله ما بريدهم ولا كيف؟

– الناس الزينا ديل ما محسوبين أساساً.

سكتنا، ثم انقلبنا على جنبينا على الأرض التي كنا نفترشها زمناً طويلاً، ثم استغرقنا في النوم.

11

للحبِّ سحره الخاص في قدرته على إخضاع حياة البشر لتحولات مفصلية، هذا شيء عادي جداً ومعروف، ولكن ما هو غير عادي أن يسري هذا السحر على كرم، السحر الذي سرى في مفاصل حياته وأصابها بربيعٍ زاهر.

أصحبت المشرحة مكاناً لعمل مجيد، وأكثر اتساعاً وقرباً بالنسبة لـ كرم، سامية تظهر له هناك، تماماً في الوجوه الزرقاء فاغرة الفم منطفئة العينين، العينين الصَّامتتين، الصَّمت الأبديّ. حلّتْ سامية بضحكة عينيها محل ذهول الوجوه وهي تواجه الموت، تواجه خوفها وعدم تصديقها. بائنة هي ملامح الوجوه التي تقابل الموت، تظل التعابير عالقة بالوجه مرافقة له، تفضح الخوف، الذهول، الرعب، الهرب، الحزن، اليقين، الهلع،

الاطمئنان، الرضا، التشبث بما يمكن لليدِ من الإمساك به، الألم، اللّذة، التطلع لوجه ملاك الموت، الدهشة، الإنكار، والعجلة في العبور.

تأمله المتواصل لوجوه الموتى أكسبه قدرة عجيبة، يمكنه أن يُدرك ما عاشه الميت في آخر لحظاته في الحياة، انفعالاته ومشاعره وآلامه وهواجسه وتمنياته في وقتٍ إضافي. يمكنه معرفة الكثير بل حتى بإمكانه أن يتصوَّر ذاك الفيديو القصير لحياة الميت الذي يمرق أمام عيني المحتضر في تلك اللحظات الفاصلة، وإن سألته سيخبرك عن حياة هذا المسجى أمامه البارد المزَّرَق كيف كانت.

هل كانت كذلك حقاً كما أتصورها؟ على الأقل هذا ما تخبرني إياه آخر تلك النظرات والملامح على الوجوه والأجساد المتفسخة، وأنا أثق في صدقها.

الموتُ ليس موتاً وإنما هو منطقة يتجسَّد فيها الحب وتظهر له فيها حبيبته بألقها وكامل حضورها. لم يعد يرى الخوف، أو الرعب، أصبح يرى سلاماً على الوجوه، رضا وابتسامة هادئة، وكأن الوجوه صَحِبتْ مَلك الموت في نزهة خضراء فقبلت رحيلها الوشيك من الدنيا برضا.

الآذان هي مفشي الأسرار الأول والأهمَّ من الوجوه، سرِّي، غامض وسحري. الآذان تبوح له بما لا يمكن لأيِّ طبيب شرعي اكتشافه ومعرفته بكل علمه الطويل العريض. الآذان تفتح لـ كرم كافة الأبواب، وتكشف أمامه كل الأوراق السرِّية التي تدسّها عن كل الأطباء. الأطباء يتبعون علمهم: يقرون البطون ويشرِّطون الجلود والقلوب بمباضعهم، لكن هو

يسمع وينصت لما تقوله الآذان والوجوه الميتة، يسمع بروحه وخياله وبكل الصَّبر الذي يمكن من خلاله لرجلٍ حيّ الإنصات لحديث جسدٍ مستغرق في الصَّمت والموت.

الموتى يجيدون الصَّبر، خلاف الأحياء اللجوجين المتعجلين اللَّحوحين. يمكن لرجلٍ مات الصبرُ ألف عام على موته، في حين يتعجل الحيّ كل شيء، رزقه، وعمله، وحبه، وأبناءه، غده، وموته أيضاً. الموتى لا يخشون شيئاً، لا يخشون أن يموتوا مثلاً فيعمدون إلى التشبث اليائس بالحياة واجتراح الطرق للخلود أو حتى إطالة العمر، لا، لا يفعلون ذلك، يموتون ويصمتون وحسب. ثم يأتي العارفون مثلي بشئون الموت لينصتوا لهم بصبرٍ، لأنهم يتحدثون؛ حديث الموتى صامت هادئ وعلى مهل.

هؤلاء الأطباء لو يستمعون لـ كرم لكفاهم استماعهم مشقة هذا التقطيع والتجريح في الموتى. لو سألوه ببساطة سيخبرهم كيف مات هذا وذاك وتلك. ولكنهم لا يفعلون. لا يفعلون.

بعد قُبلته تلك لسامية، قبلته لشحمة أذنها صارت كل قصص الموتى بهيجة وحياتهم سعيدة حينما عاشوها. موتهم صار قدراً، ليس غدراً ولا قتلاً ولا عذاباً ولا مرضاً ولا موتاً مأساوياً، إنما لحظة خفيفة مثل ريشة لمست الخد ثم واصلت انسيابها المتهادي مع تيار الهواء. مثل قصيدة رقيقة سالت في حلم عاشقة، مثل طيف ذكرى من عمر مضى.

أصبح يبتسم لوجوه الموتى، وتخلَّى عن الكمامة التي يضعها على أنفه وفمه لتحجب عنه رائحة الفورمالين ورائحتهم. صارت رائحة المشرحة

هي رائحة عطر سامية، وصرير سحب كابينات ثلاجة الجثث هي نهاية ضحكتها التي تبدأ عالية، تستمر قليلاً ثم تنخفض تدريجياً لتتكسر على حلقها، مثل الموجة على الشاطئ قبل أن تتلاشى في ابتسامة على شفتيها.

كل المبنى أضحى سامية، كل ما فيه يشبه شيئاً ما فيها أو يقود إليها، اتساع صالة المشرحة، تماثل قلبها الفسيح. جلال الموت، كجلال حبها في روحه. شحوب الوجه مثل تكشيرة سامية. مباضع الجراح كأصابعها. غموض الموت يشبه سحر سامية. تفسخ الموتى كتعكر مزاجها، لمبات ثلاجة الموتى مثل نجمات عيني سامية التي يحصيها عندما تضحك وترجع للوراء برأسها. يا إلهي، كم تضيء عيناها عندما تضحك! وكم قلبي يرتجف مع تلك الزقزقة التي تزعزع قلبي وتخلخله من مكانه!

تراجع الموت أمام حبه لها، تراجع وأصبح باهتاً ومتلاشياً مثل أثر الخطوات على الدَّرب الرملي، تمسحه الريح كأنه ما كان، أو تحلّ حفنة رملٍ مَحل الخطوات ويختفي الأثر ويزول. لقد أصبح الموتُ في مكانِ الموت طيفاً بالنسبة له، يحيط به، يحسّه ولا يلمسه، لا وجود له بالنسبة إليه.

تلك الأثناء هي الفترة الوحيدة التي سُمع فيها صوته، والتي تواصل فيها مع آخرين وأخريات من عمال وموظفي المشرحة وطبيباتها وأطبائها الشرعيين. وكأنه اكتشاف بالنسبة لهم.

كان العُمال يأتون حاملين الجثة ثم يدخلونها بعد توقيع المسؤول باستلام الجثث وغالباً ما يكون المسؤول عن الاستلام هو الطبيب المناوب، يسألون كرم عن مكان يضعونها فيه، يسحب أي درج من الثلاجة، سواء

أكان فارغاً أو غير فارغ، يضعون الجثة ثم يغادرون.

عندما يأتي الأطباء، يسألونه عن الجثة التي أُدخلت ويطلبون منه إخراجها، يسحب الدرج ويشير عليها، ثم يضعها بمعاونة عامل آخر على طاولة التشريح ويقف بعيداً، لا يغادر المكان بل يقف بعيداً وينتظر. ينتهون من تشريحهم يكتبون على البطاقة المعلّقة على إبهام القدم اليمنى أو اليسرى، ثم ينصرفون. يُعيد الجثة بحذر إلى الثلاجة وهو كما هو صامت وخفيف الوجود مثل ندفة ثلج.

هذا الحال تغيّر، وأصبح أكثر من ندفة ثلج، أصبح إنساناً. أصبح عاملاً في المشرحة. أصبح حارساً للجثث. يتحدث مع زملائه، يسألهم ويجيبونه، يسألونه ويجيبهم، وأكثر من هذا من آنٍ إلى آخر يشاركهم الإفطار، في حين يحتفظ بلحاته السبعة لحين انفراده بنفسه في حصنه قرب رفقائه العابرين.

ذات يوم عندما كانوا في الكافتيريا يتناولون إفطارهم سأله أحد فنيي حفظ الجثث:

– إنت يا كرم صوتك كان رايح ولا شنو؟

– أبداً، بس أنا ما بحب الكلام الكتير.

أجابه باستهجان:

– الكلام الكتير؟ إنت أساساً كنت بتتكلم؟!

ردَّ كرم بهدوء واثق:

– أيوه، بتكلم وبسمع كتير كمان.

نظر الفني إليه نظرة تكذيب، ثم سأله باستهزاء:

– بتتكلم مع منو يا أخوي؟ مع الجماعة؟

يقصد الموتى.

قال كرم وعلى وجهه تعبير صادق:

– أيوه.

ضحك الفني ضحكة عالية التفت على إثرها من حوله.

لم يكترث لنظرات الناس له، قال بعد أن أنهى ضحكه:

– وريتنا لكن.. وريتنا!

بدا واضحاً أنه لم يصدِّق كلام كرم، وبدا أن كرم غير مكترث لذلك فهو لم يحاول التأكيد على كلامه. بل ترك الأمر هكذا، فظن الفني أن كرم رغم صمته وخفّة وجوده يتمتع بظرفٍ وفكاهة.

نظر إلى كرم و لم تغادره الضحكة:

– كنت وين إنت الزمن دا كلو ياخ؟

وضرب على كتفه بمودة. وكأنه اكتشفه، كرم نفسه شعر كأنه اكتشف نفسه، وقدرته على التواصل مع دائرة أوسع من أمه وسامية وكلبه.

في ربيع الحب ذاك عندما يعود إلى بيته مساءً ويستقبله كلبه، لم يكن

يزجره أو يتجاهله كما كان يفعل وكما فعل لاحقاً، إنما كان يمسح على رأس الكلب بحنان، ثم يفتح الباب ويتنحّى له ليدخل الكلب أولاً وهو يرحب به بنباح خفيف، ويتقافز حوله يمنة ويسرى وكأنه يعلن مقدمه لأمه المستلقية في البرنده.

- عاملة كيف يُمّة؟

يسألها عن نفسها ولكنه يقصد أن يسأل: سامية جات هنا؟

تفهم أمه السؤال ولكنها ترد كما تحب.

- كويسة الحمد لله.

يسأل بصيغة أخرى:

- كنتِ براك طول اليوم؟

تبتسم أمه وتقول ابتسامها:

- كانت معاي سامية.

هذا يكفيني. لو حضرت وتنفّست في بيته يكفيه، لو جاءت دون أن يلتقيها وتركت بصماتها على البيت يكفيه.

- قالت بتجي بعدين.

- منو هي؟

- يعني ما عارف! سامية.

يتهيأ لقدومها، لكنها لا تأتي. يتأهب ولا تأتي. ينتظر ولا تأتي. منذ آخر مرة، منذ تلك القُبلة المجيدة لم يرها سوى مراتٍ محدودة و لم ينفردا بعد ذلك ولا مرَّة، لكنه لا يهتم، يكفيني حضورها داخلي، يؤنسني ويمتعني. نعم، يكفيني.

12

أصبح بإمكاننا شراء تذكرة ودخول السينما من الباب، والجلوس على مقاعد في الدرجة الوسطى. وجدتُ أن الجلوس على مقعد يختلف كثيراً عن مشاهدة الفيلم جلوساً على الأرض، كان أكثر راحة، ولكنه أقل متعة. الهدوء ممل، وباعث على التثاؤب، لولا أن الأفلام الهندية مليئة بالرقص والقتال لكنتُ نمتُ على مقعدي، هذا إن لم أخرج من السينما.

اشترينا قميصين وبنطالين، وتخلصنا من ملابسنا المهترئة المتَّسخة التي كنا نرتديها صيفاً وشتاءً، والتي كنا نغسلها على فترات متباعدة في حمامات السوق، نرتديها لتجفّ على أجسامنا، أو نغسلها بمياه المطر إن كان الفصل خريفاً، حينها يزداد اتساخها ويتغير لونها، لكن رائحة العرق تكون قد زالت.

ذات يوم قال لي إبراهومه:

– عم محجوب قال لينا غسّلوا هدوم أصحابكم كمان. بدل ما نغسل لأصحابنا نغسِّل روحنا ولا كيف؟

أجبته:

– هُن أصحابنا عندهُم هدوم عشان يغسّلوها؟

الآن يمكننا أن نغسل ملابسنا بعد أن نستحم على طشت العِدة، ونلبسها وهي جافة. يا سلام!

أعطينا أنفسنا الإذن باستخدام صابون المطعم لاستحمامنا أيضاً!

بعد شهرين اشترينا قميصين آخرين وحذاءين. قمصان متشابهة الشكل مختلفة الألوان، نلبس القميص يومين أو ثلاثة، بعده نغسله ونتركه في المطعم ليجفّ ونلبس الآخر. بعد ستة أشهر أصبحت لدينا حقيبة حديدية بطبلة ومفتاح، نضع فيها قمصاننا القليلة وملابسنا الداخلية المشتركة، نشتري اثنين بلونين مختلفين من كل شيء، ثم ننسى أيهما لـ إبراهومه وأيهما لي، نلبس كيفما اتفق، ألبس ملابسه، ويلبس ملابسي لا نفرِّق بين ملابسنا الداخلية، نلبس والسلام. هل لأنها داخلية يمكن أن تخلق فرقاً بيننا؟

مع كل شهر يمر تتحسّن هيئتنا، خاصة عندما نلبس أحدث ما اشتريناه ونتعطر، صحيح أنه عطر رخيص الثمن ولكنه عطر في النهاية. عطورنا نشتريها من باعة يقفون تحت الشمس، يضعون أمامهم كرتونة صغيرة مليئة بالعطور، أقصد بماء العطور، فهم يضعون القليل من العطر ويضيفون

الماء حتى تمتلئ القارورة، عندما يفتح المشتري غطاء الزجاجة يشم رائحة عطر فيشتريه بثمن بخس، وفي ظنه أنه خدع البائع وهو المخدوع في النهاية. نحن نشتري من هؤلاء، لكن حتى هذا الثمن البخس يُدفع مقابل خدعة أو وهم وليس مقابل عطر، هي رائحة عطر، (شَمْومة) عطر وليست عطراً بالمرة. نشتريها منهم ونتمتع فقط برائحة الزخة الأولى، وبعدها تذوب الرائحة في ذرات الهواء. نشم رائحة عرقه المرّ وعرقي الحامض بعدها بقليل وكأننا لم نفعل شيئاً. فيما بعد أصبحنا نشتري مزيل الرائحة الرخيص أيضاً، ولكنه لا يزيل أيّ شيء يعيش هو أيضاً في الدقائق الأولى فقط ثم يتطاير في الهواء، ربما أن رائحة عرقنا أقوى من أي عطر نشتريه.

بعدها تعرّفنا على العطور الزيتية، كان لـ إبراهومه ذوق عجيب فيها. إنه مغرم بتلك الروائح القوية التي تصيبك بالصداع، يختار لنفسه عطراً ويصِّر أن يختار لي بنفسه عطرا آخر ولكن له الصفات المزعجة ذاتها، تجادلنا في إحدى المرات في سوق (الأنبياء):

– يا برهوم دا ريحتو ما حلوة؟

– كيــف ياخــي، دا ريحتو عجيبــة يــاخ.. كان قاعد في آخــر الدنيا بتشمه.

– غايتو أنا ما عجبني.

– إنت ذوقك كعب في الريحة دي، لازم الزول يشم ريحتك قبل ما يشوفك.

– ضحكت وقلت له:

– أساساً ريحتنا مشمومة قبالنا.

– عشان كدا لازم نغيرها، عشان عرقنا قوي لازم نخوِّفه بريحة قوية.

وكوّر عضلات ذراعه:

فكرت: هل سيخاف العرق من هذه العضلات الهزيلة؟

صمت و لم أجبه، فالتفت إلى البائع:

– أدينا من دا واحد ومن دا واحد.

ثم أضاف موجهاً كلامه لي:

– أحمد الله إنو بقينا نشتري ريحة.

ضحك البائع ونظر إليّ شعرت به يقول لي شامتاً:

– غلبك.

اغتظت من إبراهومه وقلت له بعد خروجنا:

– تاني أي زول يشتري ريحتو براهو.

– مافي مشكلة يا فردة.

ولكنه ما زال يشتري لي رغم تذمري وعدم رضاي، وكنا نخوض الحوار ذاته في كل مرّة. الرائحة لم تكن تزعجني، لكنها لا تعجبني أيضاً،

لم أغيّر نوعية تلك الروائح المفروضة عليّ إلا بعد أن طلبتْ مني ناهد ذلك في أحد الأيام عندما قالت بكل بهائها الفتّاك:

– الريحة دي ما حلوة، ما تتريح بيها تاني. بتعمل لي صداع.

و لم أقربها مجدداً رغم محاولات إبراهومه التي لا تيأس أبداً.

سوق (الأنبياء) عبارة عن أكشاك صغيرة متجاورة، ومكتظة بالبضائع، البضائع المعلّقة خارج الكشك تساوي ما في الداخل على الرفوف أو العلّاقات. ممرات ضيقة بين الأكشاك المتقابلة. في كل محل جهاز تسجيل كبير يوضع على ناصية الرَّف الأقرب للباب. جميع الإيقاعات الحارّة والفاقعة والأغاني الشبابية، أغاني الحفلات الراقصة والرائجة، وأغاني أكون وبوب مارلي وشاكيرا، أغانٍ سوذانية وعربية، تستمع لكل هذه الألوان الغنائية المختلفة ولغيرها في تشكيلة مثل لحم الرأس، الشيء المشترك الوحيد في هذه التشكيلة هو الصوت المرتفع، الصوت الذي لن تسمع معه أو يسمعك من تتحدث إليه، كل الأكشاك تنبعث منها موسيقى بأعلى صوت، يرتج دماغك عندما تكون في ذلك السوق، لكن للحقِّ تجد فيه كل شيء، البضاعة المهربة، بل حتى المسروقة تكون معروضة في بعض الأكشاك. تجد الملابس التي تعجبنا ذات الألوان الحقيقية كالأحمر والأزرق والأخضر والأصفر والأخضر الزرعي، وليست تلك الألوان الباهتة المريضة. الملابس ذات الورود والرسومات والأشكال الواضحة، لا تلك الرسومات الخجولة التي تبحث عنها في القماش.

في سوق (الأنبياء) يحمل كل من هناك اسم نبي كما قال لي الدينمو:

– قميصك خطير، دا شنو الصّفق دا كلو؟

– قميص دِسِّيس موش كدا.

ضحك وتندر:

– دِسيِّس شنو يا حَبَّة، دا قميص ولا شجرة كلو صفق!

هاهاهاها

– من وين دا؟

سألني وما زالت ابتسامة تعتلي شفتيه.

– من سوق الأنبياء.

– لازم يكون من هناك. أنتو بتعرفو السُّوق داك كيف؟

– عادي، ليه؟

– عشان الدكاكين كلها اسمها زي بعض، والتُّجار زاتُن كل اساميهُن أسامي أنبياء، يعقوب، صالح، يحي، شعيب، موسى، كان ماشي لي لزول هناك بتتلخبط ياتو واحد فيهم!

– هاهاهاها

طبعا كان يبالغ في جملته الأخيرة، لكنه محقٌّ فكل من هناك يحمل اسم نبي وهم تقريباً من قبيلة واحدة، لذا تجد البضاعة المهربة بوفرة هناك.

نوعية اللبس أيضاً تغيرت بعد أن أحببت ناهد بنت عم محجوب، كانت

تريدني أن أبدو كما تحب وكنتُ أفعل ما يجعلني أبدو كما تحب، وناهد هذه دنيا لوحدها، دنيا كاملة.

من الأسـواق المميزة أيضـاً، التي نرتادها أحياناً سـوق (الله شـافك) داخل منطقة السوق الصغير أيضاً. مرّة عزمنا لالو، كتي، يعقوب وجمعة فيه. الله شـافك سـوق أكل، يمكنك أن تطلب ما تريد، كمونية، قوانص، كـوارع، (نيفة)، كمونيـة محمَّرة، جراد محمـر. طبيخ، أي نـوع: بامية، خضرة، قرع.

– فتحت معاكم، بقيتوا تعزمونا كمان!

– أُكل وإنت ساكت.

أنهر كُتِّي بمودة.

– لازم ياكل، دقس كان ما أكل.

يجيبني لالوْ، أعقل واحد فيهم.

– أيوه، كان ما أكلت دقست، أنا لاقي زول يعزمني.

يقول كُتي الذي ستقطع يده اليمنى لاحقاً، ويُنسى في السجن.

كان الصـغيران القـذران يتخاطفـان الأكل، ويحشـران اللقمـة إثـر الأخرى حتى يكتما النفس، فنضربهما على ظهريهما، لكنهما لا يتعظان. يجاريهما كُتي ولالو، أنظر إلى الصـغيرين، إنهما كرشان كبيرتان يعتليهما رأسـان. ابتسـم وأطلب المزيد من الطعام. لا أعرف مصيرهما الآن، لقد اختفيا بعد ذلك بسنة تقريباً، ولم نعثر على أيٍّ أثر لهما.

في ذاك السُّوق اطلب ما شئت، كُلّ، تمتَّع وتجشأ، لكنك لا تضمن ما يفعله ذاك الأكل فيك، الله (شافك) أيّ: أنقذك إن أكلت و لم تمت أو تذهب إلى المستشفى أو تصاب بإسهال يوصلك المقبرة.

هل كنا نخشى أن نموت؟ أكنا نخشى أن نأكل أكلا ملوثاً؟ لم نكن نهتم يا صديقي، لم نكن نهتم، و لم تخطر ببالنا مثل هذه الأوهام. ما كان يعنينا هو امتلاء المعدة بأيِّ شيء أيّاً كان حتى وإن كان قطّاً ميتاً، ترانا نسلخه ونأكله، لا تتعجب، ألم تفهم بعد يا صديقي ماذا كنا؟

بعد إنتهائنا من عملنا نقف على الطشت بالتناوب، نستحم ونبدّل ملابس العمل بتلك القمصان الزاخرة بالألوان. نرتدي الأحذية (الأديداس) الضخمة، ونمدّ ألسنتها خارج الرّباط، كأنها تمدُّ لسانها لحالنا في الماضي القريب ساخرةً منه، نختال في عرض الشارع وكلٌّ منا يحمل سيجارة بين إصبعيه وكأننا مَلَكْنا الدُّنيا. وكأننا أولاد ناس.

هذا الفخر لن يدوم عندما نذهب (الكرِّه) للنوم، نخلع القمصان والأحذية ونتوسدها، لا أمان لها سوى هناك تحت رؤوسنا، إذا تركنا الحذاء قربنا ثم انقلب أحدنا على جنبه لن نضمن أن ينظر كُتِّي إلى ذاك الحذاء ويتركه في مكانه، لن نضمن أبداً.

13

نبقة هي فتاتي السَّـوداء اللامعة كحبة باذنجان، فارعة، ممتلئة الشـفاه، ذات عينـين ناعسـتين. عيناها تشـعرني بخدرٍ لذيـذ، بانسـحاب كأنها تخطفنـي إليهـا، كأنها تناديـني ولا تنتظر تلبيتي للنداء، تجـرّني وتُدخلني إليها.

في مساء اليوم الذي انتقلنا فيه جمال وأنا، إلى المنزل بعد عامين من عملنا في المطعم صارت لدي حبيبة، حبيبة لي وحدي. في عالمنا ذاك كنا نتشارك الحبيبات والصبيان، لكن هنا أشعر بأنها لي وحدي أو ستكون لي وحدي. رأيتها في المساء، عندما خرجتُ للتعرف على الحي الذي انتقلنا إليه. كنتُ واقفاً أمام الباب بيدي سيجارة وأتكئ على الحائط، أتطلع إلى البيوت، إلى شكل بنائها وأبوابها. أراقب في ملل الداخلين والخارجين

وطارقي الأبواب، السائرين والأطفال الذين كانوا يلعبون في الشارع على أذيال ضوء الشمس الغاربة وضوء لمبة العمود التي أنيرت للتو، رغم أنها لم تظلم بعد، وكأن من أشعلها لا يريد قطع لعبهم، فسارع بإنارة اللمبة، لا أظن أنهم كانوا سيتوقفون على كل حال حتى لو أظلمت. كانوا يلعبون في صخب ويتنافسون في حماسة. كل منهم يربط حبلاً أو حزاماً في وسطه ويضع فيه قطعة طويلة من الحديد الصدئ وفي نهايتها صليب صغير، كانوا يلعبون لعبة الحرب، كل مجموعة شكّلت فريقاً، هزيمة الفريق تُحسب بعدد الساقطين على الأرض منه. هاع هاع.. هيع هيع.. جرى جرى.. الخواف جرى.. اقبضوا.. اقبضوا. يجرون ويلاحقون بعضهم بعضاً، يصرخون ويقعون على الأرض الترابية، ويصفِّقون بحماسٍ كلما وقع أحدهم.

كنت أنظر أيضاً للفتيات اللاتي يجئن ويذهبن من وإلى الدُّكان، أو يخرجن من بيتٍ لآخر وهن يتضاحكن ويتهامسن. فتيات صغيرات، نساء كبيرات، شابات..

ثم رأيتُها.

مرَّتْ أمامي وهي تحمل كانوناً وقُفَّةً كبيرة لمحتُ داخلها أواني القهوة. وقعت عيني في عينها أثناء مرورها. تركتُ يدي معلّقة بسيجارتها الخامسة أمام فمي المفتوح مشدوهاً أو منتظراً السيجارة، لا أدري أيّ الاحتمالين هو الصّحيح، لكنه كان مفتوحاً عندما انتبهتُ له وأسرعت بإغلاقه.

واصلتْ سيرها متوجّهة ناحية النَّاصية في أول الشارع، وضعتْ

حاجياتها ورتبتها. وضعتْ الكانون والقُفَّة وأخرجت منها فحماً وضعته على الكانون. أشعلت الفحم واشتعلت مشاعري، ثم عادتْ. عندما حاذتني نظرتْ إليّ مجدداً ووجدتْ عيني مغروزتين فيها بعناد. جارتني في عنادي و لم تبعد نظرها إلا بعد أن تخطتني بمترين تقريباً. ثم دخلتْ أحد البيوت المقابلة لبيتنا. كانت جميلة وكأنها خارجة من أحلامي، بل أجمل من أحلامي وأنضر.

البيت الذي دخلتَه يقع في شارع بيتنا. هل تسكن هنا؟ هل تبيع الشاي والقهوة هناك في الناصية؟ إذن سأكون زبونها الدائم.

خرجتْ بعد فترة تحمل مجموعة من المقاعد الحديدية الواطئة، ستة بل سبعة مقاعد، تضع واحداً على رأسها، وثلاثة في كل يد تمسك بقوائمها النحيلة. ركَّتْ فكرة على رأسي؛ أن أذهب وأساعدها في حملها فتُعجب بي وأتعرّف عليها، لكنني ما إن هممت باستعراض شهامتي وتقدمتُ نحوها مبتسماً ابتسامة عريضة، حتى خرجت امرأة وراءها تحمل مقاعد هي الأخرى وطاولة حديدية، رمقتني بنظرة تحذير قوية عندما شعرتْ بتوجهي نحو الفتاة. انحرفتُ في سيري ومضيتُ في الاتجاه المعاكس و لم ألتفت ورائي نهائياً، لكنني شعرتُ بأن نظرات المرأة تخترق ظهري. لعلها شعرتْ بأني غريب، معها حقّ فهي المرة الأولى التي تراني فيها، لكن نظرتها القوية النافذة توحي وكأنها عرفتْ ما خطر ببالي، لقد عرفتْ ما دار في ذهني تجاه الفتاة!

هل تمتُّ لها بصلة قرابة؟ أهي أمها يا ترى؟ ألم تجد المرأة سوى هذا

الوقت كي تخرج خلفها؟ ماذا لو أنها تأخرتْ قليلاً؟ أو ماذا لو أنها لم تخرج أصلاً؟ من هي أساساً حتى تجلدني بعينيها هكذا؟

تخيلتُ الفتاة وهي تضحك عليّ ضحكة مكتومة وشامتة. اغتظت فقد فشل مخططي، لكنني لن أيأس أبداً.

بعدما تأكدتُ من أن المرأة لم تعد تنظر إليّ، وبعد أن قطعتُ مسافة مبتعداً عدتُ أدراجي مجدداً. رأيتْ من بعيد المرأة وهي تهيء مجلسها، والفتاة وهي ترصّ الأكواب على الطاولة الحديدية. دخلتُ البيت مسرعاً، كان جمال خارجاً للتو من الحمام بادرته:

– برّه في غزال يقتل عديل كدا! أرح.. أرح.

– نمشي وين يا عمك؟

– تعال معاي نشرب شاي برّه وتشوف الغزال

– الغزال دا قاصد بيهو ست الشاي يعني؟

– لا، لا ما ست الشاي، واحدة تانية، صغيرة، ما عارف بتبقى ليها شنو.. بت عجيبة.. ألبس وتعال أوريك ليها.

بدلتُ ملابسي. لن تعرفني المرأة بهذه الملابس. لا أظنها حفظت وجهي أيضاً. وضعتُ المزيد من العطر الزيتي وأشعلتُ سيجارة أخرى وخرجنا.

كانت المرأة تجلس لوحدها، يا لهذا الحظ! أين القنبلة؟ أين ذهبت؟

التفتُ ناحية البيت الذي دخلتْ وخرجتْ منه، ليست هناك أيضاً.

– فاتت ياخ!

– فاتت وين؟ القاعدة ديك ما هي؟

– لا ياخ دي ما هي! شكلهم ساكنين البيت داك.

التفت وأشرت له للبيت.

– إمكن دي أمها.

– ما عارف والله. نرجع؟

أمسكني من يدي وواصل سيره:

– أرح ياخ نشرب كباية شاي ونشوف ناس الحي دا عاملين كيف.

استأت من ذهابها، ظننت أنها ستكون هنا ولكنها اختفت. حظي تعيس!

جاء رجلان آخران وجلسا على المقاعد مثلنا وطلب أحدهما قهوة:

– أدينا اتنين قهوة يا حوّاية.

– نبقة كيف؟ وينها؟

أتكون نبقة هي الفتاة التي رأيتها؟!

– بتسأل منها مالك؟ داير بيها شنو؟

كشّرت حوّاية في الرجل الذي يبدو أنه متعودُ على هذا العداء، لم يبالِ بتكشيرتها. وقال بهدوء:

– بسال ساكت، عاوز أطمّن عليها.

قالت وهي تصبّ القهوة:

– تطمّن عليها بصفتك شنو يعني، هوووووي أحسن ليك أبعد من نبقة بتِّي دي.

يعني بنتها؟ هذا الجزء لم يرحني، المرأة تبدو شرسة جداً.

تبادلنا النظر جمال وأنا. همس لي:

– المرة دي شطّة بس.. أبعد من البِت.

– أبعد وين يا فردة! ما ممكن.

همسُنا جذب اهتمام حوّاية وجعلها تعلّق أنها أول مرة ترانا فيها، و لم تسكت على ذلك بل لاحظت أنني غيرت ملابسي لأنها رأتني قبل قليل. التفت الرجلان إليّ بانتباه، تمتمتُ ببعض الكلمات التي لا تعني شيئاً، فأنقذني جمال وأخبرهم أننا نعمل مع عم محجوب في مطعمه، واليوم هو أول يوم نسكن فيه هنا.

تحادثنا معهم لوقت طويل. وعرفنا الكثير من أسرار الحي في تلك الجلسة، من خلال تلك النميمة للرجلين وحوّاية ست الشاي. كانوا يتحدثون عن الناس بشكل عادي أمامنا وكأننا لا نجلس معهم؛ يتحدثون

بكل ثقة وكأنهم يمدحون الناس لا يلوكون سيرتهم. انضم آخرون (للقطيعة)[1]، وشرب الشاي، والضحك وتبادل الشتائم وتقبُّلها وكأنها ونسة عادية.

كان مجلس حوّاية قرب الدُّكان لا يعفي أحداً، كل من يأتي للدُّكان أو يعبر أمامه راجلاً كان أو راكباً، أو كل من يمر بالشارع بل كل من يتواجد داخل بيته هو مثار لحديث الجلسة.

عرفنا أن هذا المجلس يعرف كل الأسرار، ويعرف ما بداخل البيوت والفضائح المتكتم عليها. هو مكان للقاء اليومي والونسة و(الشمارات) والكلام في كل شيء وعن كل شخص. نساء الحي، رجاله، أصحاب الدَّكاكين البخيل والكريم واللئيم واللص، فتيات الحي وغرامياتهن، فتيان الحي ومغامراتهم وأفعالهم.

مجلس لشرب الشاي والقهوة والنميمة والأخبار وتقضية الوقت. وهو المكان الذي سأمضي فيه كل أمسية من الشهور والسنوات اللاحقة. اكتشفت أنني أحب سيرة الناس، حتى الذين لا أعرفهم، أحب أسرارهم وخباياهم. أحب معرفة ما تخبئه الثياب والبنطالات والقمصان تحتها. أحب أن أراهم في عُريهم الكامل في ذاك المجلس ولا أعرف إن كان حقيقة ما يقال فيهم أم كذباً، لكنني أحب رؤيتهم كذلك، عُراة، بشعي المنظر وتلوكهم الألسنة. من قال إنهم أفضل منَّا؟ من قال إنهم أحسن منا؟ نحن أولاد الشمس، الشارع، أبناء اللاأحد.

(1) النميمة.

في ذاك المجلس لا يأمن رواده أنفسهم من النميمة، من يغادر أولاً هو نفسه يكون معرضاً لنبشه وأكل لحمه. من هو الآمن من النبش؟! عرفتُ أن لا أحد بلا أسرار. لا أحد بلا خطايا. لا أحد أبيض كالكفن، الكل ملوث وعلى الكل توجد بقع، بقع الطين، الفحم والدّم والعفن.

بعد أن تعبتُ من نظري المتواصل لباب البيت البعيد خرجتْ نبقة، كان قلبي ينطّ مع وقع أقدامها، مع كل خطوة حتى وصلت لأمها. نظرت إليّ وقتلتني مجدداً. لم تنسني، عرفتني، نعم عرفتني، شعرتُ بابتسامة في عينيها. هذا جواز مرور؟ هل تذكرت موقفي أمام أمها عندما رمقتني بتلك النظرة النارية؟ قَبِلتني؟ آه من هذه النظرة! آه من عيونك يا نبقة!

خاطبت أمها:

– يُمَّة جيبي قروش اللبن، دايرين ننوم.

– شيلي من أحمد دا، قولي ليهو أمي بتديك بعدين.

ياليتني كنت لبناً تشربينه يا نبقة.

نادت أمهُا على أحمد صاحب الدكان قبل أن تصله نبقة، وطلبت منه أن يعطي نبقة رطلين من اللبن، ولكن الرجل اللئيم صاح من خلال النافذة وذكرَّها بأنها لم تدفع بالأمس وطالبها بالدفع الفوري، فهاجت فيه وصرخت بأنها ستعطيه لاحقاً، وعليه أن يعامل زبائنه بطريقة أفضل وأن يترك بخله هذا، وإلا فإنها لن تشتري منه بعد الآن.

تمنيتُ لو قمت ودفعتُ ثمن اللبن الذي ستشربه نبقة ويستقر في بطنها

ويدخلِ في دمها. لكن هذه الفزَّاعة سترحلّني من البيت من أول يوم! ليت لكِ أماً غيرها يا نبقة.

لم تكتفِ بنظرتها تلك وهي تطلب من أمها ثمن اللبن، سترميني بها وهي عائدةَ تحمله. وسترميني بها كل يوم إلى أن يحدث القرب بيننا الذي بسببه هُددت حياتي وأوشكت أن تضيع.

14

بعد فترة من إقامتنا في بيت العمال ذاك، الكرِّه الحقيقية، تركنا غسل الأواني في المطعم. أصبح إبراهومه مساعد الطباخ خَلَفاً لـ عزو الذي ترك العمل. وأصبحتُ أنا من عمال جلب الطلبيات، بل الأساسي فيهم.

عزو قال إنه يودّ مواصلة دراسته، كان يدرس مساء ويعمل في الصباح. حلم عزو هو امتداد لرغبة أبيه المتوفي أن يدرس في الجامعة ويصير موظفاً أو مدرِّساً. أصرَّ على تحقيق هذا الحلم بمواصلة دراسته المسائية إلى أن تمَّ قبوله في كلية التربية.

قبل ذهابه أقمنا له احتفالاً صاخباً في المطبخ، غنى فيه الدينمو ضارباً على إحدى الحِلل بالمغرفة إيقاعاً (أشتراً)[1]، ورقص إبراهومه ورقصتُ

(1) غير متناغم مع اللحن.

أنا. فرح عزو فرحاً هادئاً وخجولاً مثله، وبكى عندما أعطاه الدينمو المبلغ الذي جمعناه له كهدية قبوله في الجامعة، ليشتري به ملابس تليق بطالب جامعي. أعطاه عم محجوب راتب ثلاثة أشهر كهدية وتعهد بدفع رسوم السنة الأولى أيضاً. قبّل عزو يده فسحبها عم محجوب وهو يقول: أستغفر الله.

– دا كرم عمري ما أنساه، شكرا ليكم.

ومضى في ذيل أحلامه، تمنيتُ لو أفعل مثله.

هدوء عزو كان يوازن بين صخب إبراهومه والدينمو، ضحكهم وسخريتهم المتواصلة. ابتعدتُ أنا عن المطبخ وغرفة الغسيل الملاصقة له تاركاً لهما مرحهما، ولكني آتيهما كلما كان ذلك ممكناً. ابتعدت بحكم عملي الجديد. أذهب إلى السوق كل يوم وأشتري كل ما ينقص، وأهتم بمتابعة نظافة المطعم، وامتلاء حافظات الماء البارد دوماً، وتوفير صابون الغسيل في المغاسل أو للأواني والنظافة. في البدء كنتُ أذهب مع عم محجوب ثلاثة أشهر متتالية. وفيما بعد صرتُ أذهب وحدي. وللحقّ فإن هذه الفرصة وفّرها لي الدينمو حينما طلب إعفاءه من المشتريات، قال إن صحته لم تعد تساعده على جولات التسوّق وتَرك عم محجوب يقوم بنفسه بذلك. ثم بعد فترة تركني عم محجوب أشتري وحدي ومعي مساعد لي.

ثقة كبيرة أولاها لي عم محجوب، لم يكن صارماً في تدقيق الحسابات ورائي، فإن قلتُ له لم أدوّن سعر هذه السلعة أو تلك لم يكن يثور أو يصرخ

وإنما يتقبل ذلك ببساطة. ويقول لي:

– ما مشكلة، بس المرة الجاية ما تنسى تكتبها وتجيب لي الورقة.

وفي كل مرة أنسى إحدى السلع وفي كل مرة يردد الجملة ذاتها.

لا، لا تعتقد أنني كنتُ أستغل هذا الكرم. على العكس كنت أحرص على أن يكون كل قرش في محله، وأن أجعله راضياً عني. حسناً، في الواقع فكرتُ أكثر من مرة في سرقته. أعترف بهذا ولن أنكره، وأظن أن ابن أخيه عثمان كان يحذّره مني. كان عثمان يرمقني بنظرات متشككة ويسألني أسئلة متلاحقة:

(عمي أداك كم؟)

(جبت دا بكم؟)

(فضّل معاك كم؟ وينو الباقي؟)

نعم، فكرتُ في سرقة عم محجوب، لكنني لم أستطع، لم يحدث أن زجرنا أبداً، أو أساء إلينا. لم يبخل علينا. شبعنا وزاد وزننا وتغيَّر شكلنا، وأصبح لنا بيت وعمل ومرتب وأكل وملابس.. لماذا أسرقه إذن؟ خطر لي وخطر لي أكثر من مرة إلا أنني في كل مرة أطرد الفكرة، إنه طيّب، كأبي. هل أبي طيّب! لا أعرف، المهم، إنه طيب ولن أسرقه. من الجيد أن نسكن في بيت ومن الجيد أن نأكل ومن الجيد أن نعيش الغد. لا، لن أسرق عم محجوب. فعلاً لن أسرقه، ردَّدتُ هذا لنفسي مراراً وأكدته معها: أنني لن أسرقه مهما ألحَّت السرقة.

لقد بذلتُ جهداً قبل أن أتوصل إلى هذا القرار، ليس سهلاً أن يكون في متناول يدك مالٌ ولا تسرقه، تحتاج لكوم كبير من الأمانة والنوايا الطيِّبة حتى لا تفعل ذلك، ربما لو حدث هذا قبلً أكثر من عامين وأمسكتُ في يدي هذا القدر من المال فأول شيء أفكر فيه هو سرقته والهرب ببساطة. آنذاك لا شيء يقف عائقاً بين ما أريده وما أفعله، لا قوانين ولا نوازع حسنة، العائق الوحيد قد يكون كيفية التنفيذ فقط، أما بيني وبين نفسي فالموضوع محسوم. لكنني مع مال عم محجوب لم أفعل. أدهشتني نفسي حقاً وكأنها لشابٍ آخر وليست لي! لكن صدقني صعب، صعب أن تُقيَّد بعدما كنت حراً من كل شيء. صعب للغاية.

خُصصت لي دراجة هوائية، أمام مقودها صندوق مفتوح الجوانب أضع فيه قُفة الرغيف الذي أحضره من الفرن مرتين في اليوم، ومرتين لأن الدينمو يصرُّ أن يكون الرغيف طازجاً وحبذا لو كان ساخناً؛ فهو يضيف لطهوه طعماً أحلى يقول:

– أنا واثق من طعم طبيخي لكن الرغيف البايت بخرب طعم (الملاح)، العيش لما يكون طازة بتاكُل وما بتحس بنفسك. إتعلَّم يا بَلِف!

نصائح كثيرة يعطيها لـ إبراهومه الذي يحب أن يناديه برهوم كما أناديه أنا أحياناً، وكان تلميذاً نجيباً، محباً للأكل ومحباً لصنعه.

الدَّراجة وفرّت لي فرصة كبيرة للحركة، غير مهام المطعم كنت أقودها في بعض الأمسيات أتجول بها في السوق، أو لمشاهدة المباريات في نادي الأهلي. أذهب إلى هذه المباريات وحدي؛ إبراهومه مشغول في حبه لـ نبقة

ونشرة أخبار المساء اليومية في جلسة الشاي. انشغل هو وصرت أمشي وحدي كثيراً. لم تكن تستهويني قصص الناس، أشرب كوب القهوة معهم وأعجِّل بالذهاب. أحببت قيادة الدراجة، وأصبحتُ بارعاً فيها بمرور الوقت، أصبح بإمكاني قيادتها واقفاً وفاتحاً ذراعي صاداً الريح.

كان عثمان يحتج على ترك الدراجة معي بعد العمل، لكن عم محجوب لم يهتم باحتجاجه وقال له:

– الزول دا بقى يدِّي اليمين، وبحتاج للعجلة معاهو على طول.

كنت أشعر بميل عم محجوب لي، وأصبح يرسلني إلى البيت لجلب شيء نسيه هناك أو لجلب الكسرة أو إحضار ما تمَّ حفظه في ثلاجات البيت من لحم أو كبدة أو دجاج، فما يفيض عن سعة ثلاجة المطعم يحفظ بالبيت. هذه المهمات كان يقوم بها عثمان ابن أخيه، لكنه لمرض أبيه لم يعد في الإمكان أن يبقى طوال اليوم في المطعم، واكتفى فقط بعمله في (الكاشير) في فترة معينة من اليوم. أظنني في طريقي لأخذ مكانه.

أول مرة ذهبت فيها إلى بيت عم محجوب أخطأتُ البيت، طرقتُ على بيت الجيران بثقة، فتحتْ الباب امرأة ربما في الأربعين أو أكثر، ممتلئة، واثقة النظرات، ترتدي قميص نوم قصير وعاري الذراعين.

خطر لي: دي زوجة عم محجوب! معقولة؟ حلوة شديد.

قلت لها وقد أربكتني خواطري:

– عم محجوب رسلني أجيب ليهو دفتر الشيكات.

ضحكت وهي تتفحصني بعينيها:

– لكن دا ما بيت عم محجوب.

– دا ما هو! معليش.

شعرتُ بالحرج والعري وهي تنظر إلي بتفحُص، أردفتُ:

– طيب وينو البيت؟

مدّت رأسها للخارج واقتربت مني شممتُ عطراً مثيراً، أشارت لي ناحيته وهي تقول: أهو البيت.

كان البيت المجاور!

وكان يمكنها أن تقول لي فقط: البيت المجاور على اليمين!

لكنها فضّلت أن تشممني عطرها الساحر. شكرتها فابتسمتْ ابتسامة كبيرة.

ذهبتُ للبيت الذي أشارت له، كانت زوجة عم محجوب امرأة كبيرة في السِّن، وتتلفع بثوبٍ أزرق غامق و(مشلَّخة)[1] طولياً على خديها. هناك فرق كبير بينها وبين جارتها التي ظننتها هي، لم تنظر إلي مثلها و لم تبتسم في وجهي، إنما سلّمتني دفتر الشيكات وأغلقت الباب خلفها.

منذ ذاك اليوم عرفتُ الدَّرب إلى بيت عم محجوب وعرفتُ دروباً غيره.

(1) وشم على الوجه للزينة.

بيت عم محجوب كان واسعاً. بيت رجل غني. يمرح فيه الخيل. يمكنك أن تتيه فيه إن لم تنتبه لكل باب تدخل وتخرج منه، وهذا ما حدث لي أول مرّة دخلته. كانت العمة خارج البيت، طرقتُ الباب بيدي، لم أكن أعلم بوجود الجرس. لم أدخل من قبل بيتاً فيه جرس! لم أدخل بيوتاً كثيرة على كل حال. فتحت الباب شابة نحيفة، متوسطة الجمال. كانت ترتدي بنطالاً أسود وبلوزة وردية قصيرة الأكمام. ابتسمتْ في وجهي وهي تسألني:

– إنت شغال في المطعم؟

– أيوه.

طلبتْ مني الدخول ومازالتْ الابتسامة على وجهها.

دخلت وراءها وأخذت اللحم ثقيل الوزن من الديب فريزر وخرجتُ بثقة. دخلتُ من باب، خرجتُ من آخر، ودرتُ حول المكان لأجد بنت عم محجوب أمامي وأجد نفسي قد عدتُ للمطبخ من جديد!

شعرتُ بالارتباك عندما سألتني:

– نسيت حاجة؟

تلعثمتُ والتفتُ ورائي مشيراً إلى لا شيء بعينه. قلت بعد تلعثم:

– شكلي نسيت باب الشارع بي وين؟

ضحكتْ ووضعتْ يدها على فمها وظلت تضحك وهي تقف

أمامي. ما هذا الموقف الذي أوقعتُ نفسي فيه؟ غبي! أكان يجب أن أنسى الباب حتى تضحك عليَّ هذه البنت! بعد أن أكملتْ نوبة ضحكها، اعتذرتْ:

– معليش، ما تزعل مني، بس موقفك بيضحِّك!

ابتسمتُ بارتباك، لم أرّد عليها رغم غيظي. سألتُ نفسي: هل يستحق كل هذا الضحك؟

– تعال وراي.

تبعتها إلى أن أوصلتني الباب و لم تنسَ أن تسألني عن اسمي.

شعرتُ بعد ذهابي بأنني بدوتُ مغفلاً حقيقياً. ماذا تقول عني الآن؟ و لَمَ سألتني عن اسمي؟ هل تريد أن تقصّ القصة على أبيها؟ تُرى هل ستسخر مني أمام الآخرين وتتندر عليّ؟ أحسست بالغيظ والغُبن. كل هذه السخرية تخرج من هذا الوجه الطيِّب! ثم هل كان على عم محجوب أن يجعل بيته مثل المتاهة لتسخر ابنته من الآخرين؟!

تباً للأغنياء!

عدتُ بعد يومين إلى بيت عم محجوب، لكنني لم أضع. أوصلتني ابنته حتى الباب، لم تضحك عليّ هذه المرة بل ابتسمت ابتسامة حلوة. صرتُ آتي في الوقت ذاته كل يوم لفترة من الوقت، وأحياناً مرتين في اليوم. كان الإقبال عن المطعم كبيراً، فكنا نشتري احتياجاتنا بكميات كبيرة. ثلاجات المطعم كانت ممتلئة لذا كنا نحفظ اللحم في إحدى ثلاجات

البيت، الواسعة، التي يمكنها أن تحوي عجلاً حياً وليس أجزاء منه فقط.

كانت البنتُ طيبة، هذا كل ما يمكنني أن أقوله، لم تكن جميلة جمالاً لافتاً، لم يلفت انتباهي جمالها بل طيبتها وابتسامتها التي تلازمها على الدوام. كان يدور في خاطري باستمرار: هل تبتسم للجميع أم لي فقط؟ ولِمَ تصرّ على توصيلي للباب كل يوم، ولِمَ هي من تفتح الباب وليست الشغالة؟

في أحد الأيام استمعتُ لطرف حوار بينها وبين أمها، كان صوتهما يأتيني من خارج باب المطبخ حيث كنتُ:

– قلت ليك خلي شماتي تفتح الباب، فتحتيهو إنتي ليه؟

قالت لها العمة بنبرة حادة.

– ما فيها حاجة يا أمي؟

– لا، فيها، هسي يقول شنو يعني؟ كل يوم تفتحي ليهو الباب!

لم ترد على أمها ودخلتْ المطبخ لتعطيني اللحم. للمرة الأولى تختفي ابتسامتها، حيث بدا الانزعاج على وجهها. صحيح، ماذا لو فتحتْ لي الباب؟ سيعضها الباب أم أنا؟!

لا عليك، لا تهتمي. قلتُ للبنت في سرِّي مواسياً.

لم تسألني عن شيء كما كانت تفعل، تعودتْ أن تسألني عن أشياء مختلفة، كيف يسير العمل؟ متى بدأتُ العمل في مطعمهم؟ ماذا كنتُ

أعمل؟ كم عامل في المطعم؟ هل لدي دراجة خاصة بي؟ لماذا أعمل في المطعم وليس في أي مكان آخر؟ ماذا طبخ الدينمو اليوم؟ هل أسعار الوجبات مناسبة؟ أسئلة لا تمهد لها قبل طرحها، لا أعرف الغاية منها ولا شيء يربط بينها، لكنها أسئلة فأجيب ونتبادل الكلام والابتسامات.

لم توصلني للباب، إنما ذهبتُ وحدي وشعرتُ باتساع المساحة في جانبي الشمال، حيث كانت ترافقني حتى الباب، وهي تسير بجانبي وتفتح لي الباب. عند وصولي باب الشارع أنزلت حمولتي على الأرض وفتحتُ الباب على آخره وانحنيتُ لرفع ما أنزلته من حمولة ثم تركتُه مفتوحاً نكايةً بالعمّة. تعالي وأقفليه بنفسكِ يا مفترية.

حينما هممتُ بركوب الدراجة خرجتْ جارتهم من بيتها، تلاقت أعيننا وابتسمت لي ابتسامة معرفة، هل تذكرتني؟ حيتني ثم دخلتْ بيت عم محجوب.

امرأة جذابة ومثيرة، وظريفة كذلك.

بعد فترة أخبرتني الفتاة في غفلة من العمة أن اسمها ناهد، وهي أكبر بنات عم محجوب وأنها تراني شخصاً لطيفاً.

فقلت لها:

– وإنتِ ابتسامتِك حلوة وعاجباني.

أشاحت بنظرها عني، واندهشتُ أنا من أين خرجت هذه العبارة؟ كيف تغزلت في بنت عم محجوب! ارتبكتُ وانسحبتُ سريعاً من المطبخ

ورغبتُ لو كنتُ أستطيع أن أسحب ما قلته من أذنها. لا تلعب بالنار، من أنت ومن هي؟ لكنها هي من قالت إنني ظريف! هي تقول، أما أنت فلا يحقُّ لك القول، هل غضبتْ من تعليقي؟ لا، لا أظن، لقد ابتسمتْ وخجلتْ مني، ابتسامتها حلوة فعلاً. ماذا يعني ذلك؟ هل قبلت مديحي لها؟ أن يمدحها شاب يعمل لديهم، هل هو أمر مقبول بالنسبة لها؟ إنها طيبة وجميلة؛ هي ليست جميلة جداً، ولكنها جميلة، أظنها قبلت مديحي، هل أخطأتُ؟ لكنها تبتسم لي على الدوام و..

يا إلهي!

كدتُ أصدم رجلاً بدراجتي!

قال الرجل بعصبية:

– إنت عميان ولا شنو؟

اعتذرت له سريعاً دون أن ألتفت.

وكأنها أصبحتْ تنتظرني قرب الباب، ما إن أرفع يدي عن الجرس الذي اكتشفت أنه اختراع مريح، حتى تفتح الباب. صرتُ لا أرتدي المريلة عندما آتي، بل أتعمّد أن أرتدي أنظف ملابسي وأتعطر بتلك العطور الزيتية النفاذة وكأنني لن أعود للمطعم بعد ذلك. إنها تعجبني، وتهتم بي، أشعر بهذا، كيف لك ألا تشعر بإنسانٍ يهتمُ بك! هذا شيء لا يخفى حتى على الكلب.

أطربني هذا الاهتمام ودغدغ غروري، ابنة عم محجوب تهتم بي أنا.. أنا.. من أنا؟ لن يصدقني أحد إن قلتُ هذا.

سألتني بصوتٍ خافت ومُحْرَج:

– المساء عندك شغل؟

نظرتُ إليها واستغربت سؤالها، مع أنها دائماً ما تطرح أسئلة، قلت:

– لا.

– عاوزة أطلع شوية من البيت، كان ما عندك حاجة نتلاقى؟

كانت مفاجأة عظيمة. تريد أن تلقاني أنا خارج البيت؟ جنَّت هذه البنت أم أنني لم أفهم. حاولتُ أن أرد، ولكني وجدت نفسي أكرِّر كلمة واحدة، و لم أدرِ ماذا أقول:

– لكن.. لكن.. لكن

– لكن شنو؟

– يعني عم محجوب إمكن ما يرضى!

– لا ما نكلمو، زهجت من قعدة البيت ونفسي أطلع حتى لو أحوم في الشوارع ساكت.

هل هذا اختبار؟ هل تمزح معي؟ عم محجوب طلب منها هذا ليتأكد من أخلاقي؟ ماذا أقول، أوافق أم أرفض، إن رفضت لن تطلب مني هذا مرة أخرى وأنا أريد لقاءها! أقبل، أرفض، أتهرب بأي حُجة! صمتُ. وقررتُ

أن أعتذر لكن لساني خذلني وقال:

– كويس، نتلاقى وين لكن؟

واتفقنا أن نلتقي قرب بقالة المارشيه بعد صلاة المغرب.

يبدو أنني للتّو طردتُ نفسي من العمل إلى غير رجعة!

خرجتُ قبل المغرب بكثير، تأنقتُ وتعطرتُ كأيِّ إنسان ذاهب إلى موعد، عدا أن فرحتي شابها بعض الهواجس من أن يكون هذا مقلباً، أو كميناً لي، لكن عليّ أن أصدق قلبي أليس كذلك؟ أميل لتصديقه وسأصدقه. قد أكون حذراً ومنتبهاً، كي لا أندم فيما بعد، لكن قلبي سعيد، والسعادة تلغي الحذر. إن ألغيتُ حذري قد يتم طردي، وإن طغى حذري قد أفقد ناهد!

سأقف وأنتظرها قرب البقالة، وإن طردوني فلا بأس لن يكون أول عمل أُطرد منه. وإن جاءت هي، وليس عم محجوب أو ابن عمها، سأكون محظوظاً أن تختارني فتاة مثلها، هل اختارتني أم أنها تريد من يرافقها فقط؟ أففففف!

وصلتُ وأشعلتُ سيجارة وشرعتُ في تأمل المارة قتلاً للوقت والتوتر. رجلٌ يسرع الخطى حاملاً إناء اللبن سيضعه ويذهب للجامع، سيحجز به نصيبه قبل أن ينفد اللبن. صبيتان سائرتان وتضحكان. امرأة تنادي على ابنها ليدخل من الشارع فالمغرب قد حلّ. رجل يتجادل مع آخر أمام الفرن المقابل للبقالة، وآخر جالس على الأرض يتوضأ من إبريق يعلق بأسفله كمٌّ وافرٌ من الطين.

امرأة تُجهِّز مقعدها وموقدها وإناء الزيت، أظنها تبيع الطعمية. ما علاقة باعة الطعمية بالأفران، كلما وجدت فرناً وجدت أمامه بائع طعمية أو بائعة؟! فكرتُ بأن أشتري لـ ناهد منها، يمكننا أن نتسلى بالطعمية أثناء سيرنا، لكنني لن أشتري لها رغيفاً، هي حتما ليست جائعة ولا أنا، لكن الطعمية ستخفف من توتر اللقاء الأول، ربما لا تقبل، سأقنعها. أول طعمية تخرج من هذا الصاج ستكون من نصيب ناهد إن جاءت.

نسيتُ الكمين ونسيتُ الحذر وأصبح كل تركيزي مع بائعة الطعمية، لدرجة أنني وددتُ لو ساعدتها في تجهيزها ورمي الطعمية معها. لم أرد أن تأتي ناهد قبل أن تجهز الطعمية. لن تنتظرني. عليّ أن أشتريها قبل مجيئها. ذهبتُ للمرأة وقلت لها بأنني في عجلة من أمري وجائع للغاية وأريدها أن تجهِّز الطعمية بأسرع وقت. تركتْ المرأة ما في يدها وصبّت الزيت في الصَّاج وبدأتْ تهبّ في الفحم ولم تكن بحاجة لهذا، هواء الشارع كفيل بإلهاب الجمر.

لفّتْ لي الطعمية في ورقة جريدة. في اللحظة التي تسلّمتُ فيها قرطاس الطعمية ظهرتْ هي، وحدها. سمّرتُ نظري في اتجاهها ربما ظهر خلفها أحد، ولكن لم يكن ثمة أحد. كانت هي فقط، جميلة، أنيقة، مبتسمة وتسير في اتجاهي بخطى ثابتة وهي داخل بنطلونها الأسود وبلوزتها السماوية وطرحة ملونة خفيفة وصغيرة تضعها على كتفيها بدلاً عن رأسها.

بادرتني:

- أرح نمشي.

- وين؟

- نلف في الشوارع شوية ونرجع.

مددتُ لها بقرطاس الطعمية الحارة، بقع من الزيت نزّت على الورق. ضحكتْ وقالتْ:

- دا شنو يا مجنون؟!

- طعمية.

ضحكنا معاً. سرنا طويلاً ونحن نقزقز الطعمية. سرنا وكأننا نعرف إلى أين نسير. تحدثنا طويلاً وضحكنا وتبادلنا النكات. أخبرتني أنها تحب الحياة، ولا تكترث لمال أبيها ولا تحب عثمان ابن عمها ثقيل الدّم. لقد تقدّم عثمان لخطبتها ورفضته، لكن أهلها يريدونها أن تتزوجه، هي لا تريده والموضوع معلّق. قالت لي إنه لا يضحك للنكتة، كيف يمكنها أن تتزوج شخصاً لا يضحك للنكتة الحلوة؟ كيف تثق بمن لا يضحك؟

هي فقط دوناً عن شقيقتيها يمكنها أن تحاجج أبويها وأن ترفض مقترحاتهما أيّا كانت، أختاها الأصغر سناً لا تجرؤان على ذلك أبداً وتنفذان ما تريده أمهما بالحرف. قالت: أشفقُ عليهما فهما لا تعرفان ما تريدانه، أنا أعرف ما أريد ويجب أن أحصل على ما أريد، إنها حياتي أنا لماذا أعيش حياتي وفقاً لقوانين شخصٍ آخر حتى وإن كان أبي أو أمي؟!

عندما عدتُ أخبرتُ إبراهومه بأن علاقة نشأت بيني وبين ناهد سألني

إلى أين يؤدي هذا؟ لم أجبه؛ لأني لم أكن أدري إلى أين يمكن لهذه العلاقة أن تصل، لكنني كنت سعيداً، سعيداً للغاية، واتفقنا أن نلتقي خارجاً يوماً بعد يوم.

15

في أحد الأيام عدتُ إلى البيت بعد التاسعة والنصف، قضيتُ كل الوقت منذ المغرب حتى موعد عودتي مع ناهد نتجول ونأكل أقراص الطعمية. تفاجأت بإبراهومه ونبقة يحضنان بعضهما في الحوش. عندما أحسَّا بي، انسحبتْ نبقة من حضنه وخرجتْ مسرعة. صرختُ فيه:

– إنت مجنون؟ دا شنو دا؟ ما عارف أمها وشياطينها؟

– عارف ياخ! لكن ما قدرت أسيطر على نفسي؟

– لازم تعمل حسابك يا برهوم.. نحن في الحي دا وسط أُسر بقتلونا عديل كدا، بضبحونا من الأضان للاضان!

نكس عينيه في الأرض، ولم يجبني.

– مالك سكتَّ؟

أدار وجهه عني. خفتُ مما خطر في فكري. أمسكته من كتفيه وأدرت وجهه إلي ناظراً إلى عينيه:

– عملتو حاجة؟

هزَّ رأسه إيجاباً!

– جنَّيت.. أكيد جنَّيت!

وهززته من كتفيه بشدة.

صرخ:

– أيوه جنَّيت! زي ما إنت جنيت ببتّ عم محجوب!

نظرتُ إليه مستغرباً، كان الرذاذ يتطاير من فمه وهو يصرخ، قلت له بغيظ ولكن بصوت خفيض:

– لكن ما حصل نمت معاها!

– أنا نمت. عندك كلام؟!

قال بتحدٍّ وكأنه سيضربني. لم أجبه وظللتُ أنظر إليه، جالتْ نظرة عينيه في المكان وقال:

– أنا ونبقة بنحب بعض ح نعمل شنو يعني، تعمل لي شاي ولا قهوة؟! لازم أبوسها وأحضنها وأنوم معاها.

وكأنه يصفعني بالحقيقة:

– وعلى فكرة دي ما أول مرة.

– أمها ح تقتلك!

– ما ح تقدر تقتلني، أنا ما اعتديت عليها، ولا غصبتها هي راضية وبتجيني براها لازم أبسطها ولا كيف يا فردة!

ضرب على كتفي وضحك.

– الله يجيب العواقب سليمة!

لكن العاقبة لم تكن كذلك. كانت إعصاراً. هجمتْ علينا أمها بعد ذلك بشهر أو أكثر، دفعت الباب من وسطه فانفتحت ضلفتاه.

كنا جوعى وكان صحن الفتة أمامنا على الأرض، تحلّقنا حوله جالسين على أمشاط أقدامنا أنا، إبراهومه، إدريس وحسن. عندما رأيناها وقفنا كلنا. كانت تحمل سكيناً بيدها. ثوبها منحسر حتى وسطها وجزء كبير منه تجره خلفها على التراب. فتحة واسعة على صدر فستانها وسط ثدييها الأسودين العامرين بداخله. عيناها الواسعتان تبخَّان حمماً من الشر. دخل وراءها رجلان من زبائنها، وخلفهم ثلاثة من أبنائها وبناتها يبكون ويمسكون بطرف ثوبها، صرختْ في إبراهومه ورذاذ لعابها يتطاير على وجوهنا من بين شفتيها الغليظتين:

– أنا حواية، تعمل في بتّي كدا يا ود الحرام؟

وهجمتْ عليه لتغرز السكين في بطنه.

كنتُ أقف يمين إبراهومه، تقدمتُ عليه خطوة وسارعتُ بدفع يدها ولكن السكين المندفعة بحزم جرحت جنبه الأيسر، أمسك إبراهومه الذي صرخ متألماً بجرحه، حذرتك و لم تسمع كلامي، هذه المرأة مجنونة ولا شيء يقف أمامها! أمسكنا بها وهي تتفلت وتصرخ بأعلى صوتها:

– خلوني.. خلوني أقطعها وأقتله.. تكورك يا جبان! عامل فيها راجل وتحمِّل بنات الناس استحمل البجيك يا ود الكلب، يا ود الحرام، يا مقطوع!

رشَّته بمقدار كبير من الشتائم والأوصاف ومازالت تتملص منا نحن ثلاثة رجال لتَقَطعها وتقتله كما قالت.

ما عرفت تلعب يا صاحبي! ما لقيت غير بت المجنونة دي تحبها وتحمِّلها كمان؟!

كنت أحاول أن أحكم عليها قبضتي ولكن أفكاري كانت مشتتة، حصل متين الكلام دا؟ وليه ما كلمتني يا فردة؟ طيب خليت أصحابنا الزمان والمجنونات ودخلت جُحر النمل دا مالك؟ دي نملة دي؟! دي عقرب. دي بتقتل عديل كدا يا عمك!

لا أدري كيف أخرجنا البقرة الهائجة تلك من البيت! وسط صراخ الأطفال وصراخ المرأة، والرجلين اللذين كانا يحاولان تهدئتها ويقولان: إن المكسور بتْجَبِر.

وجدتُ نفسي في الشارع، قميصي مفتوحاً وفردة شبشب واحدة في قدمي. لم يكن في القميص زرّ واحد. جيبه مشروط ومتدلٍ كلسان الكلب العطشان.

– المَرَة دي بتاكل شنو؟ القوة دي جاياها من وين؟ عافرتنا ودافرتنا وقطّعتْ هِدْومنا!

شرعتُ في تعديل قميصي فتذكرتُ إبراهومه. دخلتُ البيت ودخلتْ خلفي شتائم المرأة وسبابها ووعيدها الذي لم يتوقف:

– قاعدة ليكم هنا في خشم الباب دا، كان رجال واحد فيكم يطلع عشان تعرفوا حواية على حقيقتها!

تعثرتُ بثوبها ممرمطاً على الأرض، جمعته ورميته لها.

واصلت صراخها تريد أن يصل كلامها إلى إبراهومه:

– عاوز تبقيني لبانة في خشم الناس؟! تشرب وتضحك معاي وتطعني في ضهري؟! أنا؟

أردنا الذهاب إلى مستشفى الحوادث لتضميد جرح إبراهومه، لكن المرأة مرابطة على الأرض أمام الباب، وقد أقسمتْ أن تقطع رجولته ثم تقتله بعد ذلك. لم نستطع الخروج، إنما استخدمنا علاجاً بلدياً، وضعنا على الجرح قطرات من الليمون وذرات من الملح. وكان هو يصرخ ويشتم ويلعن حواية وأبا حواية وكل قبيلتها.

جنون حقيقي، كان الكل يصرخ ويسب، حواية تصرخ في الخارج، وإبراهومه في الداخل، الأطفال يصرخون، والرجال معها في الخارج يصرخون فيها تارة وفينا تارة أخرى، وأنا أصرخ في إبراهومه لائماً وشاتماً:

– المرة دي كانت ح تقتلك لو ما زحيت يدَّها. أنت عارفها ماشي هابش بتها ليه.. ح يطرودنا من البيت دا ونرجع الشارع تاني عاجبك كدا!

صرخ في وجهي قائلاً:

– إنت الدّخلك شنو؟ زحيت يدها ليه.. كان تخليها تطعني.

– أيوه غلطان عشان انقذتك من الموت.

– يا أخوانا روقوا المنقة.. خلونا نشوف نعمل شنو في المصيبة دي.

قال إدريس، ثم أمسكني من يدي وخرجنا من الغرفة تاركين إبراهومه وحسن، همس لي:

– لازم نتصرف بسرعة.. لو عم محجوب سمع بالكلام دا ما عندنا عِيشة معاهو وح نطَّرد من البيت.

– نعمل شنو لكن؟ المرة دي حالفة ما تمشي من هنا.

– نخليهو يعقد على نبقة وننتهي من الموضوع دا. هي أساساً بتعمل كدا عشان هو ما ينكر ويقول دا ما أنا، وبعدين تعرسها ليهو.

– كلام كويس، لكن نكلمها كيف؟ البطلع قالت بتطعنو.

– خلينا نقنع إبرهومه أول وبعدين نشوف.

دخلنا مرة أخرى وبدون مقدمات سأله إدريس:

– أسمع إنت بتحب نبقة؟

قال بحدِّة:

– أيوه.

لم يقترح عليه إنما أمره قائلاً:

– طيب عرِّسها.

ردَّ إبراهومه بالنبرة الحادة ذاتها:

– ما عندي مانع.

ابتسمنا، وقال إدريس:

– أها نكلم حوَّاية الماسكة سكينها دي كيف؟

ردَّ إبراهومه العارف بمفاتيحها قائلاً:

– حواية دي راسها زي الحجر، لكن أبو شنب بقنعها.

لم أجرؤ على فتح الباب، إنما ناديتُ على أبي شنب من فوق الحائط، وقلتُ له إنني أود التحدث معه، فأعطاني الأمان لفتح الباب. فتحتُ له مقدار ما يدخله فقط، حشر نفسه حشراً، ثم سددته راجعاً بالجنزير الذي

كنا قد أغلقنا به الباب مع طبلة سميكة كي لا تداهمنا حوَّاية مرة أخرى.

أبو شنب أحد الرجلين اللذين كانا مع حواية، وهو من شلة النميمة المسائية اليومية. أخبرته ما اتفقنا عليه واستعداد إبراهومه ليصحح خطأه ويتزوج نبقة، لكن عليه أن يقنع أمها الثائرة أولاً.

رفضتْ حواية الاقتراح، وقالت إنها تودّ تأديبه أولاً، وأنها تنتظره ليخرج حتى تنفذ وعيدها. كنا نستمع إلى حديثهم من خلف الباب، فقد كانوا يجلسون على الأرض تماماً أمام الباب.

بعد تحايل كبير من أبي شنب، وكلام عاقل عن السُّترة و لَم الموضوع، وكلام كثير عن حب إبراهومه لنبقة ورغبته الجادة في الزواج منها، وافقتْ حوَّاية ولكن بشرط.

– العقد بالليل.. لو اتأخر للصباح بكون قتلته.

– لكن بالليل دا نلقى مأذون وين يا حوَّاية؟

– ما عندي شغلة فيكم. دا كلامي وما عندي غيرو!

– طيب الزول دا دمو سايل يعقد كيفن؟!

– في زول قال ليهو هبِّش بنات الناس؟! عشان يتوب ويعرف الله واحد!

– كدي خليهم يودوهو الدكتور وبكرة الصباح نجيب المأذون ونعقد.

لكن حوَّاية وقفتْ (ألف أحمر) ورفضت تماماً الرضوخ لمحاولات أبو شنب تأجيل العقد حتى الغد، قالت بحسم نقطة على آخر السطر:

– أنا قلت كلامي، إبرهومه يعقد على بتّي بالليل دا، كان طلع قبل العقد من البيت بقتله بقتله. خليكم عارفين الكلام دا.

لم نكن بحاجة لدخول أبو شنب ليخبرنا قرارها، سمعناه من وراء الحائط.

العقد أو الموت لا خيار ثالث!

اقترح أبو شنب أن يذهب أحدنا لإحضار مأذون، دون تفكير سارعتُ بالقول:

– أنا ح أمشي أجيب مأذون.

خرجتُ بعد أن سمحتْ لي حوَّاية بذلك. لم أصدِّق ما رأيته، كل سكان الحيّ كانوا في الخارج، بعضهم يحمل سكاكين، وبعضهم عصي والصغار حجارة، ويقفون متأهبين للانقضاض على أي رأس يُمد خارجاً. بعضهم يجلس على الأرض، وثلاثة أو أربعة رجال يقفون أحدهم يتحدث بعصبية وآخر يدخن صامتاً وثالث يفرك يديه بتوتر. النساء أحضرن مقاعد وجلسن عليها، اثنتان تكركران الشيشة. امرأة أخرجت ثديها لترضع صغيرها الباكي. بعض الصغار يلعبون ويطاردون بعضهم بعضا. كانوا كأنهم في نزهة، عدا السكاكين والعصي والحجارة المتحفِّزة للانقضاض في أيةِ لحظة. يالك من مسكين يا صديقي!

كنت ستموت لا محالة إن خرجت، إن لم تمت بسكين حواية فبأيٍّ من هذه الأسلحة، بل ربما متَّ رعباً!

ونبقة، أين نبقة؟ سألتُ أبو شنب أثناء سيري. أخبرني أن المسكينة ربطتها أمها على السرير بعد أن أشبعتها ضرباً وعضّاً. قلبي معكِ يا نبقة، أنتِ طيبة وحنونة، لا تناسبك هذه الأم الصعبة. لماذا لا يشبه الآباء أولادهم؟ لو أنها مثلك يا نبقة!

انسللتُ سريعاً إلى الشارع الرئيس. عسى أن أجد من يدلني على مأذون، أين أجده؟ لا أعرف مأذوناً و لم أقابل مأذونا في حياتي، كيف أحضره الآن؟ أين يتواجدون أساساً؟ هل أذهب إلى المحكمة؟ لكنها لا تعمل ليلاً يا غبي! إذن أذهب للشرطة وأخبرهم بأن حياة صديقي مهددة بجيش ينتظره خارج البيت. نعم، سأذهب للشرطة ليحلوا هذه المشكلة ويضمنوا سلامة إبراهومه. لكن الشرطة ستحبسه بتهمة هتك العرض وستغرمه وتسجنه، وفي النهاية ستجعله يتزوج نبقة وهو لا يرفض الزواج، فكيف أتسبب في دخوله السجن إذن، طالما أنه سيتزوجها على كل حال؟

تحيرتُ، ماذا أفعل؟ لمن ألجأ؟ لا يمكنني الذهاب إلى عم محجوب، سيطردنا من البيت ومن العمل بالتأكيد إن عرف بهذه المشكلة، وطبعاً سيصله الخبر حتى لو لم أذهب أنا وأبلغه، ولن يرحمنا حينها. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

كنت محتاراً، أسير دون أن أدري إلى أين. كل الخواطر تزاحمت في

رأسي وكبست على دماغي حتى كاد ينفجر. أصابنيٍ نوع من الإعياء، تهالكت وقعدت على حجر قريب، عسى أن أهدأ وأفكر.

جلستُ على بعد شارعين من مكان الأحداث، اخرجت سيجارة و لم أجد ما يشعلها، هذا ما كان ينقصني! أرجعتها في مكانها وتعكّر مزاجي أكثر.

سمعتُ ضحكة الدينمو فيِ أذني! تلّفت حولي لم أجده، آه.. نعم الدينمو، كيف غاب عن بالي! لِمَ لم أفكر فيه؟ هذا هو المخرج. سأذهب إليه، لا بُدَّ أنه يعرف مأذوناً، لاَ بُدّ أنه يعرف أحداً وسيساعدني في حلٍّ هذه المشكلة. أجل، أجل سيساعدني. قمتُ من مكاني وتوجَّهتُ إلى بيت الدينمو.

بسرعة رويت القصة للدينمو، وضع يديه على رأسه، جلس محتاراً وقال:

– دي مشكلة شنو دي؟ إبراهومه دقس الدقسة دي كيف؟!

– أنا حذرته بس ما سمع كلامي.

– غلط غلطة كبيرة.

قلت له موجهاً تفكيره للبحث عن حل بدلاً من تفكيره في خطأ إبراهومه فقط:

– معاك حق، لكن المهم نعمل شنو هسى؟

سكت دقائق وقال:

- تعال معاي.

أخذني الدينمو إلى مأذون الحيِّ الذي حاول جاهداً تأجيل عقد القران حتى الغد، لكننا قلنا له لا بدَّ أن يتم العقد الآن لينقذ حياة إنسان، إنها مسألة حياة أو موت، وهو لن يقبل أن يموت إنسان بسبب كسله وعدم تعاونه معنا.

اضطر المأذون بعد إلحاحنا أن يرافقنا على مضض وهو يهز رأسه مردداً:

- العجلة من الشيطان.

عندما جئنا بالمأذون كانت الساعة الواحدة صباحاً. وجدنا الحشد في الخارج كما هو، حتى الصغار مازالوا مستيقظين!، بل ظننت أن من كان منهم نائماً أيقظوه لينضم إلى تلك النزهة المسلحة!

كلّفتْ حواية أبو شنب ليكون وكيلاً للعروس، في حين وكلَّ إبراهومه الدينمو. لم تستغرق مراسيم الزواج وقتاً، ولكن ضاق البيت بالمتواجدين، فكل من كان خارج بيتنا دخل ليحضر العقد، لا يمكن لـ إبراهومه الخروج وإجراء عقد القران في الشارع، حواية مازالت على قسمها أن تقتله إن خرج قبل أن يتزوج ابنتها.

تمَّ عقد قران إبراهومه ونبقة. صارا زوجين الآن، وانطلقت الزغاريد، وبدأ الناس في الخروج من البيت إلى الشارع مجدداً. غلب الانفعال

والحماسة أبا شنب فأجبر أحمد صاحب الدكان على فتح دكانه، واشترى البلح والحلوى ووزعها على الحاضرين، أحضرتْ إحدى النساء (دلوكةً) وشرعت في النَّقر عليها والغناء، وسرعان ما انضمت إليها بعض النسوة وشرعن في الغناء خلفها والتصفيق، ثم انضم إليهن الجمع تباعاً وتحولت النزهة المترقِبة المتحفزة إلى حفل غنائي راقص، حتى إبراهومه خرج ورقص في وسطهم رغم ألمه. أحضروا نبقة بعد حين متزينة وترتدي فستاناً أحمر لماعاً، رقصت في البدء مع عريسها بحياء، ثم اندمجت مع الإيقاع ونسيت كل شيء عدا فرحها بزواجها.

لم يغادر الدينمو مع المأذون، بل انضم إلى الراقصين. دفع للمأذون أجره وتركه يعود لوحده، وهو يهز رأسه جيئة وذهاباً، تعجباً أو استياءً. اعتذرت له وقلت له إن العريس صديق الدينمو ولا بُدّ أن يشاركه فرحته.

لم تكن في الحي سيارة واحدة حتى نعيده بها في هذا الوقت من الليل. وصلت معه حتى الشارع الرئيسي وعدتُ أدراجي مسرعاً.

جرّني الدينمو لوسط الساحة لأنضم إلى الراقصين الذين سارع بعضهم لاحتساء كؤوس العَرقي والمريسة، العريس نفسه شرب حتى الثمالة.

استمر الحفل حتى السادسة صباحاً.

قبل أن يغادر الجميع أحضرتْ حوّاية حقيبةً كبيرة وأمسكتْ بنتها من يدها وسلّمتها لـ إبراهومه:

— دي مرتك وإنت متكفل بيها.

– أوديها وين يعني هسى؟

– اتصرف، مشكلتك.

تدخل الدينمو قائلاً:

– طيب خليها في بيتك لحدي ما جرحو يبرأ ويشوف بيت يأجره وبعدين يسوقها.

– أنا قلت يسوقها هسى، ما عندي كلام تاني.

تدخلتُ قائلاً:

– يمشوا وين يعني؟

ردَّت بعناد:

– يمشوا البحر.. ما بهمني!

– يا حواية كدي روقي المنقة شوية.

قال أبو شنب عبارته الأثيرة، وأضاف:

– الزول دا هسى ما بكون عنده قروش يأجر بيت أو يفتح بيت، خليهو يجمِّع أطرافه ويشوف بيت كويس، يأجره ويفرشه وبعدين يجي يسوق البت معززة مكرمة من بيتها.

– بتِّي طول عمرها معززة مكرمة، ودي مرتو لو ما قادر على العرس عرّس ليه؟!

غاظني كلامها فأجبتُها بغلظة:

– عرّس عشان إنتي واقفة ليهو بالسكين في خشم الباب!

قالت بنبرة قوية:

– وقفت عشان قلّة أدبه ما عشان يعرِّس!

حضننتْ بنتها وتركتنا وذهبتْ و لم تعر مناداتنا لها أي أذن.

قال الدينمو للعريس:

– أدخل بعروسك جوّه لحدي ما نشوف نعمل شنو.

حملتُ الحقيبة ودخلتُ خلفهما، ثم تبعني الدينمو.

– العمل شنو؟ نقعد وين نحن؟

– ح أمشي أفتش ليكم بيت تأجروه.

– ننوم في الواطة يعني! البيت عاوز عفش وعِدّة ولوازم و..

صمتُ.

صمتنا جميعاً.

تأملتُ نبقة وإبراهومه، كانا جميلين ومحبين، متماسكين وينظران للأرض بقلة حيلة.

اقترح الدينمو اقتراحاً يشبهه:

– رايكم شنو تسكنوا هنا؟

سأله إبراهومه مستغرباً:

– في بيت العزابة؟!

– أيوه، مالو؟ بعفشو وحمامو وبابو وعدتو وأي حاجة موجودة.

لم يرُّد إبراهومه، ربما كان يفكِّر في اقتراح الدينمو.

قلتُ متسائلاً:

– فكرة حلوة بس عم محجوب بوافق؟

– أنا بقنعو ليكم، العرسان يسكنوا في الأوضة دي جنب باب الشارع، وإنتو تقعدوا في الأوضة الجوه والبرنده.

لم يكن لدي أي منا اعتراض، حتى العروس وافقت على اقتراح الدينمو، كان هو الحل الأنسب في ذلك اليوم.

ابتسم الدينمو معجباً بنفسه وقال:

– المشكلة إتّحلّت!

لم التقِ بناهد في مساء اليوم التالي، كنا مشغولين بترتيب وضع البيت الجديد، نقلنا حاجياتنا إدريس وحسن وأنا إلى الغرفة والبرنده في الداخل، وتركنا الغرفة الخارجية القريبة من باب الشارع ومن الحمام للعروسين.

ذهبتُ بعدها لأشتري سجائر من الدكان، كانت الشلة تجلس أمام حواية وموقدها يحتسون الشاي ويضحكون، وإبراهومه جالساً وسطهم، ضربته حواية على كتفه بمودة وهي تضحك! ثم مدّتْ له كوب الشاي. نظرتُ إلى وجوههم، لم أجد فيها أي أثر لما حدث بالأمس. كانت وجوهاً ضاحكة ليس إلا! اشتريت السجائر ثم سحبتُ مقعداً، انضممتُ إليهم مبتسماً وطلبتُ من حوَّاية كوباً من الشاي.



بـاب الوهـم



16

للخيانةِ طعمٌ مرٌّ. طعمٌ قبيحٌ يملؤني بعد كل مرة أخون فيها ناهد. كان نهاراً أسودَ ذاك الذي ولجتُ فيه بيت محاسن جارة ناس عم محجوب، المرأة التي تملك مفاتن لا قِبل لي بمقاومتها. أحسستُ أنها كانت تنتظرني كل يوم عندما آتي البيت، تقريباً كنت أراها كل يوم إما واقفة أمام الباب أو ستدخل بعدي بيت ناهد.

ذلك اليوم، وقبل أن أهمّ بقرع الجرس فَتحتْ بابها وطلبت مني مساعدتها في نقل أثاث إحدى الغرف لأخرى. لم أكن أستطيع الرفض، من ذا يستطيع رفض مساعدة امرأة مثلها؟!

هممتُ بالدخول وظننتها ستتنحى لأدخل، لكنها لم تتحرك من مكانها، فيما كانت تدعوني للدخول مرددة:

– اتفضل.. اتفضل.

تفضلتُ، واحتككتُ بها أثناء عبوري الباب، تعمّدتْ ذلك؟ أبعدتُ المس الكهربائي الذي اعتراني عن تفكيري سريعاً وسألتها:

– وين الأوضة؟

– تعال.

جرتني من يدي، وهي تواصل كلامها:

لم تتعمَّد هذا أيضاً؟

– عاوزة أشيل السراير والدولاب من الأوضة دي وأحولهم في الأوضة التانية ديك.

وأشارتْ إلى إحدى الغرف في بيتها الجميل الأنيق. ثم نظرتْ إليّ وسألتني السؤال الذي لم أتوقعه:

– بتعمل الشغلانة دي بكم؟

– لا لا، ما ممكن أشيل منك قروش، دي حاجة بسيطة ما تحتاج.

– خلاص طيب خليني أجيب ليك عصير قبل ما تبدأ. أقعد لمان أجيك.

هممتُ أن أقول لها سآتي فيما بعد، عليَّ العودة للمطعم، لكنها اقتربتْ مني ودفعتني من صدري فجلستُ على الكنبة ورائي.

ما بال هذه المرأة! بل ما الذي دهاني؟ ما هذه القشعريرة التي أحسّها الآن؟ ماذا تفعل بصوتها وعينيها. ما كل هذا الدلال وهذه الفتنة؟

لم تترك فرصة للاعتذار، لم تترك لي مجالاً للحديث، تتصرف وكأنها تدري أنني لن أقوى على القول أو الاعتراض.

يالها من امرأة! كم هي جميلة، وفاتنة!

كنتُ مأخوذاً لدرجة أنني لم أعِ أن لون الكنبة التي جلست عليها كان بنيًّا، والجدران مطلية بالبيج، وأن في مواجهتي صورة زفافها!

جلستْ قربي على الكنبة بعد أن أحضرتْ العصير. استرقتُ النظر إليها كانت ترتدي بلوزة حريرية حمراء قصيرة الأكمام، تنورة سوداء قصيرة، وسنسالاً ذهبياً رفيعاً يصل حتى مدخل الشق بين ثدييها، لقد عرف أن يركن.

كانـت جميلة التقاطيـع، كلها جميلة، وجهها، جسـدها، صـوتها، طريقة كلامها المثيرة، شفاهها، كل ما فيها جميل.

لم تبعد نظراتها عني، تدفق من نظراتها كلام كثير. ارتعشت يدي، انحنيتُ إلى الأمام لأضع كوب العصير على الطاولة أمامي، مسّتْ كتفي وقالت بصوتٍ متوتر:

– عارف إنك سمح شديد؟

اعتدلتُ في جلستي وابتسمتُ لها، فكرت: أنتِ كمان حلوة.

- شكراً.

هل قلتُ لها شكراً؟ حتى الآن لا أدري إذا كنتُ قد نطقتها أم فكرتُ فيها، أظنني قلتها، لا لم أقلها بل شعرتها، أو ربما قلتها.. لا أدري!

أخذت تمشِّط شعري بيدها، ثم انزلقت إلى عنقي بأطراف أنامها. شعرتُ بجيش من النمل يهجم علي جسدي، تسارعت ضربات قلبي وهي تتجول بأصابعها على خدي، وأنفي وشفتيّ. التفتُ إليها وقد انقطع نَفَسي، وجدتُ نظرة شبقة تواجهني. انحدرت عيناي إلى تحت، إلى عنقها، ثم صدرها الذي كان جزء منه يظهر من فتحة فستانها. وضعتُ يدي على صدرها. ما الذي أفعله؟ هذا جنون! هل يمكن أن أضاجع امرأة مثلها؟ كيف أفعل هذا بناهد! آه، ناهد، إنها تحبني وتثق فيّ، لا لا.. لا يمكن.

وقفتُ وقلت لها:

- معليش، ما بقدر!

أعطيتها ظهري متوجهاً نحو باب الغرفة، لم تجبني، وقفتْ والتصقتْ بي، صدرها العامر ملتصقاً بظهري ويدها في طريقها لما بين فخذيّ. شدتني إليها أكثر، كانت أقصر مني، شعرتُ بها تقف على أمشاط أصابعها لتقبّل عنقي. أنفاسها الحارة، ويدها التي استقرت في مكمنها أفقداني القدرة على الحركة، وطار صوابي.

كم هو شاسع الفرق بين هذه المرأة وبنات الشارع والمجنونات

والصبيان! لا أستطيع أن أقاومها. لا أريد أن أقاومها. لا أريد صدَّها. التفتُ إليها وقبلتها وقبلتني، وظللنا نقبِّل بعضنا وننزع عن بعضنا ملابسنا وارتمينا على الكنبة خلفنا، الكنبة التي شهدت ما أسميته لاحقاً تجربتي الأولى والحقيقية في الجنس، مع امرأة كاملة الأنوثة.

أول تجربة يعلق مذاقها بالحسِّ والعقل كل العمر، الحب الأول، ممارسة الجنس الحقيقية الأولى، الابن الأول، الوظيفة الأولى، الخطأ الأول، الخيانة الأولى، كل ما هو أول له طعم خاص، حتى لو جاءت بعده تجارب مؤثرة وكان أثرها أعمق على النفس، إلا أن الأول يظل أولاً، وكانت هي المرأة الأولى بحق.

كانت امرأة متزوجة، لكنني لم أسألها قط عن زوجها، أظن أنه يعمل خارج البلاد، وهل يهمني أن أعرف؟ لديها طفلان، الأكبر في العاشرة والثاني في الثامنة من عمره، كانا تلميذين في المدرسة. لا أعرف عمرها بالتحديد ربما في الأربعين أو تزيد قليلاً. كانت تحضنني وتقول إنني جميل وطازج كثمرة الليمون الخضراء في شجرة بيت عم محجوب. ثرية، شبقة، جذابة، وتجيد لعبة الجنس. كانت جنيَّة تعتصرني حتى آخر قطرة من المتعة، حتى أكاد أجن، تبتسم وكأنها تعرف ما بداخلي، وكأنها تقرأ أحاسيسي من عضلاتي وحركاتي ونظراتي، تظل تهيجني وتهتاج ويرتفع إيقاعنا المتناغم وكأننا متوافقان منذ الأزل، وكأن جسدينا يعرفان بعضهما منذ البدء، كانا يعزفان مقطوعة بديعة الجمال ومفعمة بالرغبة والألم والمتعة، مقطوعة تبدأ خافتة الإيقاع، بعيدة تلتقط نغماتها كأنك تقطف ثمار المانجو

البعيدة المتناثرة في أعلى فروع الشجرة، تجمعها ثمرة ثمرة وتضعها في السلة، ثم تحملها وتتحرك كل ثمار المانجو مع حركتك، تتلامس وتقترب ثم تبتعد ثم تحتك ببضعها ثم تبتعد وتقترب، وأنت تسير بخطواتك خطوةً تلو أخرى نحو هدفك المنشود.

هذا الإيقاع عذبني طويلاً، لم أستطع الانقطاع عنه، كما لم أتمكن من الركون الأبدي إليه. أمرٌ صعب أن تحب امرأة وتمارس الجنس مع أخرى، أن تكون لديك امرأتان واحدة للحب والأخرى للجنس، كم تجاذبني هذان الحرفان، الحاء والجيم، الفتحة والكسرة، النقاء والدَّنس، الطيبة والشبق! ناهد ومحاسن.

كنتُ أذهب إليها ظهراً حين يكون الأطفال بالمدرسة. أترك الدراجة في المطعم حتى لا ألفت الانتباه. أدخل من الباب الصغير المطل على الشارع الجانبي، في حين أتجنب الباب الملاصق لبيت ناهد. كانت تترك لي الباب مواربًا فأتسلل لأجدها تنتظرني كأنها تنتظر حبة أسبرين.

أعترف أنها أحبتني، أحبتني لدرجة أنها ما عادت تحتمل غيابي. ذات يوم جمعة جاءت إلى المطعم، كنتُ قد غبتُ عنها يومين، فباغتتني بمجيئها. لم تبالِ بأنها قد تلتقي بعم محجوب، و لم تهتم بما سيقوله عثمان الذي نظر إليها بازدراء وهي تسأل عني مدّعية إدعائها الأول الذي أغوتني بسببه: أنها تريد نقل الأثاث.

حين رأيتها لم أصدق عينيّ! ماذا تفعل هذه المجنونة هنا؟! هل تبحث

عني أم جـاءت من أجـل عم محجوب؟، اقتربتُ منها وعيناي تسـألانها: ما الذي جاء بك هنا؟

بادرتني قائلة:

– وعدتني أمبارح تجي تنقل لي العفش، مالك اتأخرت؟

والتفتتْ إلى عثمان موضحة:

– لاقيتو أمبارح في بيت عمك وكلمتو يجي.

حولتْ نظرها إلي وكأنها تقول لي: بدِّل ملابسك هذه وتعال معي سريعاً.

– كنت مشغول لكن ح أجي أحوَّلو ليك بعدين.

– هسى مالو؟

– لسه ما انتهيت؟

قلتُ لها، في حين أنني عنيتُ: إنتي مجنونة!

– ح أنتظرك هنا.

قالتها وهي تنظر في عينيّ بتحدٍ.

هذه المرأة ستتسبب لي بمصيبة كبيرة، ماذا أفعل معها؟

كل هذا وعثمان ينقل نظراته بيننا بتمعُّن محاولاً معرفة ما يدور فعلاً في رأسينا، ثم هزَّ رأسه تعجباً عندما لحقتُ بها في الخارج حيث انتظرتني.

- دا شنو العملتيهو دا؟!
- إنت غاطس وين ليك يومين! خليّه الشغل دا، أنا بديك العاوزو.
- أنا ما عاوز حاجة، لو عم محجوب شافك كنت ح تعملي شنو؟
- ولا حاجة، كنت ح أقول ليهو عاوزاك تشيل لي العفش.

ضحكتْ وضربتني على كتفي بدلال ثم مضت ومضيتُ خلفها نحو البيت.

17

تجمعاتٌ كبيرة من الناس احتوت السوق الصغير ذاك الصباح. الكل يتحدث عن شيءٍ واحد كبير وخطير، ولكل مجموعة قصة مختلفة عن الأخرى، كل شخص يروي القصة ليست كما حدثت وإنما كما يتخيلها، وكلما كان الراوي صاحب خيال واسع وغني تكون القصة زاخرة بالأحداث، محكمة الحبكة وتسيل الدماء بين جملها وفواصلها.

إنها قصة موت سالم، نعم، المعلم سالم صاحب المقهى. وليست قصة موته بل هي قصة مقتله التي حدثت ليل أمس في منزله.

كل المجموعات التي اختلفت في الأحداث وترتيبها وكيفية حدوثها، قد اتفقت على أن نهاية سالم كانت مرعبة ولا أحد يتمنى نهاية مثلها لحياته البائسة أو غير البائسة.

لكن، القصة الحقيقية برأيي، والتي اعتبرتها لسبب لا أدريه أنها القصة الحقيقة، هي قصة أبوزيد التي حكاها لي ظهر اليوم ذاته.

تفاجأتُ برؤيته يدخل المطعم وهو يعرج. لم يكن يعرف أننا نعمل فيه، مرّت عدة سنوات منذ رأيته آخر مرة، أين كان؟ وماذا يعمل الآن؟

نظرتُ إليه مازالت تلك الأمسية الماطرة حاضرة فيه، في رجله التي لم تلتئم قط، وتآكلت حتى أصبحت أقصر من الأخرى. لم يعرفني، أو ربما ما كان له أن يعرفني وقد أصبحتُ شاباً آخر، غير ذلك الصبي المشرّد الذي عمل معه فترة من حياته والذي اختلف معه دائماً، وتعاطف معه كثيراً في مصيبته بسبب ذلك الحادث. عبرني بنظرته التي مسحتْ كل أنحاء المطعم ومن فيه. لم تتوقف نظرته عليّ، بل تخطاني وكأنه لم يرَ هذا الوجه من قبل أبداً، كأنه وجه غريب يلتقيه في الحافلة أو الشارع أو طابور الرغيف. هل تغيرتُ إلى هذا الحد؟ توقعتُ أن يعود بنظرته إليّ، ربما تعرّف عليّ، يحدث عادة أن تنظر عرضاً لشخص، ثم تستدرك أنك تعرف هذا الشخص فتعود بنظرتك إليه وعلى وجهك ابتسامة معتذرة، أو خجلة، أو مندهشة كيف أنك لم تتعرف عليه في نظرتك الأولى له! انتظرتُ أن يبتسم تلك الابتسامة ويأتي ليسلّم عليّ ولكنه لم يفعل. ناديتُ عليه: أبو زيد.. أبوزيد التفت إليّ ومازال يجهلني، نهضتُ وذهبت إليه:

– شنو يا عمك! ما عرفتني؟

نظر إليّ مدققاً ثم صرخ مندهشاً:

– جمال؟ معقولة؟!

– أيوه، ياني أنا ذاتي يا فردة.

– مالك بقيت تشبه أولاد الناس كدا؟ سرقت ليك خزنة سمينة ولا شنو؟

ضحكتُ وقلت له:

– معاك حق، كم سنة ما اتلاقينا، لازم تستغرب.

– استغرب شنو، إنت واحد جديد عديل كدا، العمل فيك كدا شنو؟ وإبراهومه وين؟

– إبراهومه شغال معاي هنا. اشتغلت ونضفت واشتريت هدوم جديدة بس مافي حاجة غير كدا.

ضحك كثيراً ثم ضرب كفا بكف:

– البشوفك هسى ما يشوفك زمان. كنت كوشة ناقصاك الكدايس والكلاب بس.

ضايقني وصفه لي بالزبالة، لكنني لم أظهر له ذلك. قلت له مدارياً ضيقي:

– خليك مني، إنت عامل شنو؟ واشتغلت وين بعد ما طردك معلم سالم؟

– الراجل الجبان.

قال بحقد.

وأضاف:

– هو السبب في عرجتي دي، استكتر عليّ قروش الدكتور والعملية بعد ما عربيتو المعفنة ديك هرست لي كراعي.

– أيوه، نحن كلنا زعلنا من عملته دي. عملة شينة شديد!

– شينة ساي؟ دي ود الحرام ما بعملها.

– سمعت إنو اتقتل أمبارح، صحي الكلام دا؟

ابتسم وقال بشماتة:

– أيوه، صحي. مات ميتة شينة زي عمليتو معاي.

سحبته من يده وجلسنا على إحدى الطاولات، طلبتُ له غداءً بتوصية خاصة مني، أكل مثل الثور المجنون، كما كنا نأكل سابقاً، اللقمة تلي اللقمة دون فواصل مضغ أو ماء أو تنفس حتى وكأن الصحن سيطير أو سيأتي من يخطفه! آه، كم كنا جوعى! أتذكر هذا وكأنه حدث في حياة أخرى وليست هذه، أراه بعيداً جداً الآن، لا أنكره ولكنني لا أتمنى أن يعود.

كم هي مختلفة حياتي الآن، كم أحب حياتي الآنية عدا ساعات العذاب في الإحساس بالذنب وتأنيب الضمير من مغامراتي مع محاسن، تلك المرأة التي ما عدتُ أستطيع الابتعاد عنها، أو تجنبها حتى، وآتيها حالما

تناديني وكأنني أنتظر هذا النداء منذ البدء. يعذبني عجزي عن مقاومتها، مقاومة نداءاتها وصوتها وغنجها وشبقها وممارسة الجنس البديع معها. لقد أخذتني إلى درب آخر. درب ما ظننت أنني سأخوضه، حتى ناهد حبيبتي ما تصورتُ شكل علاقتي الجنسية بها. ناهد تعيش بقلبي وهي بين فخذي، هل أحببتُ حب ناهد لي، أم أحببت حب محاسن للجنس معي؟ الاثنتان تحبانني ولكن كل واحدة تحبني بطريقة مختلفة. لكن، أنا.. أنا أيهما أحب؟ هل أحبهما كلتيهما؟ أحب ناهد وأحب الجنس مع محاسن هل من فرق؟

أكمل أبوزيد غداءه. لم يلتقِ بإبراهومه الذي كان قد ذهب للطبيب مرافقاً زوجته. استغرب أبو زيد عندما عرف أنه تزوج! وعلّق بأننا أصبحنا أناساً آخرين غير من عرفهم سابقاً. سألته إن كان يعرف تفاصيل ما حدث للمعلم سالم؟ قصص مقتله مختلفة ولا أعرف أيها الصحيح!

حقدٌ كبير يحمله أبوزيد تجاه معلمه، (يستحق ما حدث له) قالت نظرته عندما سألته عن الحادثة. قصَّ عليَّ التفاصيل وكأنه كان هناك.

المعلم سالم وبعد أن أحضر اللبن من الدكان بعد العشاء ذهب إلى المطبخ ليسخنه ويتعشى به مع بعض البسكويت، رغم أنه ثري إلا أنه بخيل حتى على نفسه! قال. لو كنت مكانه لما اتخذت من اللبن والبسكويت عشاءً، لماذا خُلقت اللحوم، إن لم يأكلها من هم في مثل ثرائه؟

أعدته للقصة مجدداً، أنا الآن بحاجة لتفاصيل عملية القتل وليس لسماع آرائه عن بخل معلم سالم.

لا أتذكر الآن تلك التفاصيل الدقيقة التي حكاها، ما أذكره أنها كانت أمسية عادية بالنسبة لسالم قبل مقتله، ولكن تغيرت الحال إثر طرق عادي على الباب. نهض معلم سالم من البرنده حيث يشاهد التلفزيون ومضى إلى الباب، وعندما فتحه لم يقابله السلام ولا التحايا، إنما قابلته طعنة من سكين كبيرة في كرشه الضخمة، جعلته يصرخ صرخة داوية متوجعة. بسرعة دفعه القاتل، ربما القتلة إلى الداخل، وتم إغلاق الباب. تهاوى سالم وهو يمسك ببطنه المبقور ويواصل الصراخ، أسرع القاتل للتلفزيون ورفع صوته حتى مداه الأخير فتلاشت صرخات سالم في صوت التلفزيون.

ثم أُكملت بعد ذلك عملية القتل والتقطيع. كل من دخل بيت سالم في الصباح عند اكتشاف الجريمة تعثر بأجزائه، في كل متر تناثرت قطعة، من باب الشارع وحتى غرفة نومه، حيث وجدوا عضوه التناسلي يتوسد المخدة الأثيرة التي لم تكن تفارقه أبداً، والتي تحولتْ بكيسها الرمادي البالي الذي اختفت وروده الصغيرة، إلى جثة قطنية متشرِّبة بدماء حمراء ثخينة غطت معظمها.

لم ينسَ القاتل أن يمزّق فرش السيارة، ويشوِّه طلاءها الأصفر بخدوش سكينه الغادرة، راسماً خرائط غامضة عليها، ربما فعل هذا قبل أن يطرق على الباب، ربما بدأ عملية القتل من هناك.

ظل كوب اللبن الكبير والبسكويت على الطاولة، كانت هناك بسكويتة يتيمة واقعة على الأرض، غالباً كان يهمُّ بأكلها قبل أن يُطرق الباب، وربما وقعتْ عندما تشبث بالطاولة في لحظاته الأخيرة، ليجد الناس كوب اللبن

صباحاً في مكانه تسبح فيه ذبابتان.

ترك القاتل باب البيت مفتوحاً بعد أن أجهز على سالم. لم يكن الوقت الذي تمَّت فيه عملية القتل متأخراً، كان حوالي التاسعة ليلاً، ولكن الظلام وإقامة القتيل وحده في البيت هو ما أخَّر اكتشاف الحادثة حتى بعد بزوغ الشمس بقليل.

حاولت أن أعرف من أبو زيد الدافع وراء القتل، قلت:

– قالوا مافي قروش اتسرقت، الخزنة كانت مقفولة ومافي عليها أي آثار كسر.

ردَّ بنبرة العارف:

– القال ليك منو؟ ما تصدق البتسمعو كله.

– تفتكر العملها منو؟

عاين المتواجدين في المطعم والناس المارين في الشارع، ثم التفت إليّ مبتسماً نصف ابتسامة وقال:

– ممكن أي واحد من الناس الحايمين ديل.

نهض، ودَّعني ولم ينسَ أن يشكرني على الغداء المجاني، ثم مضى. وكانت تلك هي المرة الثانية والأخيرة التي أراه فيها بعد حادثة إصابة قدمه وطرد المعلم له من القهوة.

ظلَّ السؤال عالقاً في أذهان الجميع فترة طويلة، حتى الشرطة فشلت في إجابة سؤال: من القاتل؟

يقال إنه أحد الذين اعتدى عليهم جنسياً. ويقال إنها عملية سرقة بالأساس تحولت إلى عملية قتل. ويقال كذلك إن للقاتل أموالاً مع سالم رفض أن يردها له، لذلك جاء ليسترد حقه ليس مالاً وإنما بأخذ حياته. يقال أيضاً إنه لم يكن هو المقصود، بل جاره السياسي البارز.

لقد قيل الكثير وظلَّت الحقيقة غائبة بين حواشي القصص والحكايا والخيال، في حين انطوت صفحة سالم من دفتر الحياة، ذهب ومعه سرّ مقتله المباغت.

18

حدث تحولٌ آخر في حياتي، لم تعد الأمسيات التي لا ألتقي فيها بـ ناهد تمضي عبثاً، بل التحقت بمدرسة مسائية. أقنعتني حبيبتي أن أدرس وأتعلم. في البدء شعرتُ بأنها أرادت ذلك لأكون جديراً بها. علَّمتني الحياة ما لا يمكن لأي مدرسة أو جامعة أن تعلِّمني إياه. كنتُ أعرف الكثير ومررتُ بالكثير من التجارب التي أنضجتني وجعلت مني إنساناً صلب العود، لكنني قلت: لا بأس فهي تريدني كذلك. كانت هي متعلمة وأحسن مني وأغنى مني وبنت ناس، لذلك تعليمي سيُحسب لي، ويرفع مكانتي لديها ولدى أسرتها.

سأدرس حتى أكمل الجامعة، ثم أتوظف ولكن قبل ذلك عليّ الدراسة في المساء من الثالثة حتى السابعة، بعدها ألتحق بالجامعة. يبدو أنني أسير

على خطوات عزو وربما أصبح مُعلِّماً مثله. ليتني أصبح خطّاطاً مثل ذاك الفنان الذي رأيته في السوق، الذي يكتب العبارات بإحساسه لا قلمه، لكن خطي قبيح وسأحتاج دهراً حتى أجمّله.

رغم رغبتي الصادقة في الدراسة، إلا أنني لم أكن أذاكر في البيت بجدية، لم أكن أجد الوقت أو الطاقة، كنت ألتقي بمحاسن كل يوم، وبناهد يوماً بعد يوم، وأعمل وأذهب للمدرسة التي كنتُ أكبر طالب فيها حجماً وسناً.

إبراهومه سخر مني في البدء، ولكنه شجعني لاحقاً. لقد كبر فجأة وأصبح زوجاً وأباً لصبي أسود بعينين ناعستين كعيني أمه. لقد تغيرت حياتنا بعد سكن نبقة معنا في البيت، أصبحت تطبخ لنا عشاءنا بعد أن كان فتة فول من الدكان كل يوم. البيت صار أكثر ترتيباً ونظافة وتفوح منه على الدوام رائحة بخور. لم تكن تحصر اهتمامها ونظافتها بغرفتها فقط، بل تدخل غرفتنا وتنظفها وتنظف البرنده وتبخرهما. البيت من غير امرأة كالطعام بدون ملح، لا بل أكثر من ذلك، إنها روح البيت.

ابنهما كان قردنا الصغير الذي يُسلِّينا في البيت، كنتُ أنا عمه الكبير وإدريس الثاني وحسن عمه الأصغر. نجح صديقي وأنشأ أسرة، الأسرة التي حُرم منها باكراً وحُرمت منها كذلك.

في ذلك اليوم انتظرتُ ناهد كعادتي بالقرب من حليمة بائعة الطعمية أمام الفرن، ابتعت قرطاسي الطعمية وانتظرتها. لقد تأخرت عن موعدها أكثر من ساعة. أخبرتني عندما جاءت أن عثمان كان معهم في البيت،

لذلك لم تستطع أن تخرج بسهولة. كانت جميلة ذلك اليوم، أجمل يوم رأيتها فيه. لا أدري ماذا فعلت بنفسها، أم أنني الأعمى، لا أدري! خطفتْ قرطاس الطعمية وشرعت في الشكوى من عثمان:

– الثقيل دا جا وقال عاوز رد حاسم مني.

– أها قلتي ليهو شنو؟

– قدام أمي وأبوي وأبوه قلت ليهو أنا ما عاوزاك.. أمي وأبوي عاوزني أعرسك، لكن أنا ما عاوزاك لأني بحسَّ بيك زي أخوي.

– قلتي كدا قدام الناس؟

– أيوه، زهجت ياخ وحبيت أحسم الموضوع دا، ومافي طريقة غير إني أقول ليه كدا قدام الناس كلها عشان يحس ويعرف بالواضح إني ما عاوزاهو وعشان ناس أمي ما يقولوا ليهو بلساني إني موافقة.

– دي صدمة كبيرة، ح يكون زعلان شديد. بس يستاهل!

– يزعل زي ما يزعل، لكن ما ح أعرسه. خليت الدنيا مولعة وطلعت قلت ليهم ماشة لـ هدى صاحبتي.

سرنا كلٌّ منا يحمل طعميته. قالت لي إنها لا تعرف كيف يقبل عثمان لنفسه أن يتزوج بمن لا تحبه. لم يحدث أن أظهرت له الود الذي يكون عادة بين أبناء العمومة، هي من دون أخواتها لم يكن لها معه سوى سلام عابر، بعدها تذهب وتترك مسألة تسليته لأخواتها أو أمها أو أبيها. لا تعرف كيف تتزوج من شخص لا تحبه، ما الزواج سوى الحب؟ إن لم يكن

هناك حب فلا قيمة للورقة الرسمية التي تجمع بين رجل وامرأة.

قلتُ لها:

– لو كل الناس فكرت كدا ما ح يكون في طلاق أبداً.

– الطلاق ممكن يحصل حتى لو كان في حب، بس أنا بقول إنو الناس لما تتزوج لازم يكون الطرفين بحبوا بعض، بعد كدا المشاكل بتحصل، بس الحب لو قوى بحلها كلها، أساساً المشاكل اختبار حقيقي للحب. الحب غير المشروط، إنك تقبل الطرف التاني زي ماهو، عارف، أنا ما بهمني غيرك إنت، لا أهلك منو، ولا جيت من وين، ولا شغلك ولا حتى فقرك ولا غناك، البهمني هو قلبك، إذا قلبك معاي أحارب الدنيا كلها عشانك.

ثم سألتني سؤالاً أوشك أن يسدّ حلقي بحبة الطعمية التي كانت في فمي:

– إنت بتحبني موش كدا؟

ما هذا السؤال؟ لَم هذه المباغتة؟ هل عرفتْ بعلاقتي بمحاسن؟ معقول! عرفت ولا شك وإلا لَم سألتني؟ من أخبرها؟ من يعرف غيرنا أنا ومحاسن؟ أنا لم أخبرها، أخبرتهاَ تلك المرأة المجنونة، ولا شكّ. مَنْ غيرها؟. لكن، لا شيء يدل على أنها عرفت. لا، لا يمكن أن تكون عرفت، وإلا لما خاصمت أهلها وجاءتني! بل عرفت بالعلاقة. لا، لم تعرف. عرفت ولذلك سألتْ، لا، لم تعرف. عرفت، لم تعرف!

– سرحت وين؟

أجبتُ بسرعة:

– في سؤالك الغريب دا، يعني ما عارفة؟

– عارفة بس عاوزة أتأكد.

– طبعاً بحبك.. شديد.

– وأنا كمان بموت فيك.

كنا للتَّو دخلنا في الشارع الثاني في تسكعنا و...

– يا سلام!

التفتنا معاً في اللحظة ذاتها لنجد عثمان خلفنا بخطوة واحدة، واصل كلامه بغضب:

– بتموتي في الشَّمَّاشي دا، وأنا ود عمك، ود الحسب والنسب بترفضيني؟!

– أيوه، كان عجبك، اخترته ورفضتك إنت، لأني بحبه .. ه...و..

صفعها على وجهها بقوة جعلت الكلمة تتناثر في الهواء حرفاً حرفاً، كما تناثرت حبات الطعمية من القرطاس الذي تحمله.

أمسكتُ يده بيسراي وضربته بقبضة يدي اليمنى على صدغه، ضربة جعلته يترنح ويتعثر بحجرٍ خلفه فسقط لحظه العاثر.

نهض على قدميه وحاول أن يرد لكمتي له، تفاديتها وهممتُ بلكمه مجدداً وقفتْ ناهد أمامي وهي تصرخ:

– عاوز تضربه وتدخل السجن يعني؟ سيبه مافي داعي للضرب في نص الشارع.

لم أتركه ورفعت يدي مجدداً لأضربه، قالت لي بحزم:

– أنا ماشة البيت اتقاتلوا براكم.

قال لها عثمان:

– أنا عندي كلام مع عمي، نشوف ح يقدر يلمك ولا لأ ونشوف حكاية البناطلين دي شنو!

ثم وجه كلامه لي:

– وإنت أنا بعرف أأدبك كيف. من الليلة شوف ليك حتة تانية اشتغل فيها.

سبقتني ناهد، فلحقتها وتجاهلتُ كلامه، لم يهمني وقتها تهديده، كان كل همي أن أذهب مع ناهد حتى البيت كي لا يلحقها ويضربها مجدداً. ماذا سيفعل عم محجوب بها، سيضربها؟ هل يؤنبها؟ كيف سينظر إليّ؟ وماذا يقول عني؟ سيطردني أم يقبل بي؟ إنه طيب، لكن هل سيكون طيباً أيضاً بعد أن يعرف بعلاقتي بابنته؟ قلقتُ عليها، وعلى علاقتنا، وعلى نفسي. أنت حقير يا عثمان، أتمنى لو أقتلك.

لقد جاء اليوم الذي كنتُ أتحاشى التفكير فيه، اليوم الذي كنتُ أعرف أنه سيأتي لا محالة، ومع هذا تحاشيتُ التفكير فيه، لأنني خفتُ من التفكير، خفت من نتيجته وفشلت في رسم تصوَّر لنهايته. نحن نتحاشى ما نخاف منه، نظل نبعد ونهرب ونتظاهر بأن كل شيء جيد، لكن تبقى هناك تلك البؤرة من القلق موجودة داخلنا، البؤرة التي تفسد علينا أوقاتنا كلما اصطدمنا بها عفواً، فنبعد سريعاً عنها وهي لا تزال موجودة، ولا يزال التظاهر بأن كل شيء جيدا!، إلى أن يحدث ما ليس منه بُدّ، المواجهة. أن تقف وجهاً لوجه أمام خوفك، وعليك حينها أن تلزم يقينك وتجابِه خوفك العتيد.

جاء اليوم الذي تدخل فيه علاقتنا أنا وناهد درباً جديداً، درباً مليئاً بالأشواك والصعوبات والحواجز والجمر، درب الجمر. جاء الوقت لنختبر قوة علاقتنا وقوة حبنا، هل سنصمد؟ لا أدرى! قالت إنها ستقاتل من أجلي، هل ستفعل فعلاً؟ لكن قبل أن تفعل، هل أستحقها؟ أأستحق أن تقاتل من أجلي؟ من أنا؟! أنا الذي رباني الشارع، وعلمني الشارع، واحتضني الشارع. أنا من جئت من الشارع وإليه سأعود كما يبدو.

لم أحتط لهذا اليوم لخوفي منه. فعلاً لم أفكِّر فيه ولا في كيف ستكون نهاية هذا الحب. كنت مأخوذاً بهذا الذي يحصل أن تحبني ناهد وتعشقني محاسن. كنت مستمتعاً بهذه المشاعر، كانت ترضيني واكتفيت بهذا الرضا دون التفكير في شيء آخر.

سألتها بقلقٍ بائن:

- تفتكري أبوكي وأمك ح يعملوا شنو؟

قالت بثقة:

- ح يعملوا شنو يعني، ح أقول ليهم ما عاوزة زول غيرك.

- لكن ما ح يرضوا بي؟

توقفتْ عن السير، نظرت إليّ وأكدتْ:

- دي حياتي وأنا حرة فيها. وأنا كلمتك قبل كدا إني مستعدة أحارب الدنيا كلها عشانك. حتى لو أهلي رفضوا، وحتى لو نفوني أنا ما ح أتنازل عنك. أنا متوقِّعة إنو يحصل كدا وإنهم يرفضوا، لكن ما ح أستسلم، أبداً ما ح أستسلم.

ناهد الآن ستخوض حرباً بسببي. ستحارب أهلها من أجلي. لن يقبلوا. أنا أعرف أنهم لن يوافقوا، لن يتركوها لي. إن كانت هي ستحارب من أجلي، فسأحارب من أجلها أيضاً. لن أخذلها. نعم، لن أخذلها. لن أضيّع كل هذا الحب. الآن أعرف أنها أحبتني أكثر، أحبتني في حين كان بإمكانها أن تحب من تشاء، وأن يحبها من تشاء. أحبتني وها هي تدفع ثمن هذا الحب. أحبتني بينما كنتُ أخونها! أنا سافل وأناني. أنا الذي استمتعتُ بهذا الحب وفرحتُ به وتجاهلت التفكير فيما قد يليه.

قالتْ عندما وصلنا باب بيتهم.

- أشوفك بعد بكرة في المكان ذاته.

لم أكن أدري ماذا أقول أو أفعل. يزعجني شعور حاد بالذنب.

سألتها:

– أدخل معاك؟

– لا، بدخل براي، هسي عثمان ح يجي ويولّع الدنيا، أحسن ما تكون حاضر. أنا بدخل وبكلمهم بالحاصل، لكن تأكد لو وافقوا أو رفضوا أنا ما ح أسيبك.

– وأنا ما ح أتخلى عنِك مهما حصل.

احتضنتها فبكتْ، وقالتْ:

– أنا بحبك شديد.

ثم انزلقتْ من حضني وخطت نحو الباب. في تلك اللحظة ظهر عثمان في بداية الشارع، دخلت ناهد، أردتُ أن أضربه مجدداً، اقتربتُ منه مسرعاً وكان بي من الغضب ما سيقتله في حينه، لكنه تفاداني وجرى، ركضتُ وراءه، دفع الباب ودخل وأغلقه خلفه. الجبان كان يشغله إخبار عم محجوب أكثر من معاركتي. لم يشأ أن أعيقه. جبان! كيف لأي امرأة أن تتزوج مثله!

ظللتُ حائماً في الشوارع فترة طويلة، تجاذبتني الخواطر والهواجس، هل ستنجح ناهد في إقناعهم؟ إنها قوية، قوية جداً وتحبني، كم تحبني! أشعر بهذا الآن بقوة، أشعر وأدرك كم تحبني. يا روحي. يا روحي؟! يا روحي هذه عبارة محاسن التي تناديني بها. محاسن، أه محاسن، نسيتها، إنها

الجُرم الذي اقترفته في حقك يا ناهد، جرم؟ نعم خطأ كبير، ما كان عليّ أن اقترفه. كان عليَّ أن أقاوم أكثر، وأصمد أكثر مهما حاولتْ غوايتي. ولكن كيف لي مقاومتها؟ أعترف بأنني كنت ضعيفاً أمامها، ضعيفاً جداً، وهذا خطأي، خطأي الذي أندم عليه كثيراً. نادم على ما فعلته. نادم وأنا أعرف ما تفعلينه الآن يا حبيبتي للدفاع عن حبك. أنتِ أقوى مني. أنا لم أستطع أن أقاوم شهوتي في مقابل حبك الناصع. شهوتي انتصرت على حبك وظلت تنتصر كل يوم. كانت أكبر منه، للأسف كانت أكبر منه، وأدرك الآن كم كنتُ مخطئاً وخائناً وسافلاً وتافهاً وجاحداً إزاء هذا الحب الكبير الذي غمرتني به، والذي يخجلني الآن، ويجعلني صغيراً أمامك وأمام مرآتي. لا أستحقه. يعذبني، بل يعذبني ذنبي!

لن أسمح لها بعد الآن أن تغويني، هل أستطيع! لا، عليَّ ألا أسمح لها بذلك. لن أخونك بعد الآن. سآخذك ونذهب، نسكن بعيداً عن هنا. عن محاسن وعن عثمان وعن أمك وأبيك. سنكون أنا وأنتِ فقط، وسأجعلك سعيدة. تستحقين أن تكوني سعيدة. ستكون لنا أسرة سعيدة، مثل إبراهومه. فقط أطلب منك السماح سامحيني يا حبيبتي على ما لم أجرؤ على إخبارك به. أعدك، لَن أنظر لأيِّ امرأة غيرك، أنتِ كل النساء بالنسبة لي، كل النساء منذ الآن وحتى الموت.

فكرتُ في الذهاب إلى محاسن لأضع حدّاً لعلاقتنا، وأخبرها إنني لن أستطيع أن أواصل معها.

لكنني لم أذهب، عدّلتُ رأيي بعد برهة، لا يمكن أن أقول لها هذا

فجأةً، هكذا فقط؟ لا، لن تقبل بالتأكيد، هي أيضاً تعشقني.

إذن، سأتحاشاها حتى تنساني، لا بُدَ أنها ستنساني وتجد لها شاباً آخر يروي عطشها الدائم للجنس. لكن ماذا عن حبها لي؟ ستتعذب. وما دخلي أنا! ستنساني حتماً يوماً ما.

بعد أن شعرتُ بأن ضيقي خفَّ قليلاً ذهبتُ إلى البيت. لم تصدِّق عيناي ما رأتْ. كان كل أثاث إبراهومه في الشارع، والشارع مكتظ بالناس أمام البيت نبقة وحواية وأبو شنب وإدريس وحسن والجيران وصاحب الدكان، أسرعت الخطى وسألت:

– الحصل شنو؟ المرق العفش دا منو؟

– تعال معاي.

جرني إبراهومه من يدي وابتعدنا عدة خطوات من الحشد الواقف، سألني بجدية لم أعهدها فيه:

– إنت عملت شنو مع ناهد؟

– ما عملت حاجة؟ الحصل شنو؟

– جا عم محجوب هنا، ومعاهو عثمان وأبوهو، قلبوا الدنيا وجدَّعوا لينا العفش في الشارع وطردونا أنا ونبقة، سألوا عنك وعم محجوب قال لو شافك ح يقتلك أو يسلمك البوليس.

كنتُ أستمع لإبراهومه، ولا أصدق ما يقوله، عم محجوب؟ كيف

هذا؟ ماذا كنت تنتظر؟ ما فعلته ليس بالهيِّن. لكن ما ذنب هؤلاء؟ عندما سمعت كلمة البوليس سألتُه مستغرباً:

- البوليس ليه؟ أنا عملت شنو؟

- قال كيف تفكر في بتّه، كيف واحد زيك يفكِّر في بتّه؟!

أظن أنه محق، كيف أفكِّر في بنته! لكن هل هذه جريمة؟

قلتُ:

- طيب إنتو طردكم ليه، إنت ذنبكِ شنو؟

- عشان صاحبك وعشان قلت ليه بتَّك بتحبه، ضربني كف وقال إننا ما بنتساهل المعروف العملوه لينا، وإننا أولاد شوارع وأولاد حرام، وقال ما عاوز يشوف واحد مننا لا في المطعم ولا هنا ولا في الشارع ذاته.

- معقولة عم محجوب يعمل كدا؟!

- إنت ما شفته، كان جِنُّو طالع وهايج زي التور. والمعفن داك كان بحرِّش فيهو.

- أنا عارفو خسيس وجبان. عثمان الله يقتله.

سألني إبراهومه عمّا حدث، حكيتُ له القصة، متابعة عثمان لناهد وضربه لها عندما عرف أنها تحبني، ثم شجارنا وشتمه لي. لم يصدقني، هل هذا فعلا ما حدث؟ أخبرته أن هذا كل ما حدث. لقد ظنَّ أنني ربما نمتُ معها وأنها حملت مني لذا جن أبوها وفعل ما فعل!

قلقتُ وتساءلت عما نفعله الآن وأين نذهب؟

– تعالوا أقعدوا معانا في البيت؟

التفتنا لنجد كل الذين ابتعدنا عنهم يحيطون بنا! سمعوا كل الكلام دون أن نشعر بهم.

– شكراً يا حواية لكن البيت ضيِّق.

قلتُ لها وغير مصدِّق أنها تدعونا للسكن معها وهي التي لم تقبل أن تسكن معها نبقة بعد زواجها!

– كان النِّفوس اطَّايبت الأوضة بتشيل مِيَّة، ياللَّا دخلوا العفش دا جوَّه.

ما إن قالت حوّايَّة ذلك حتى حمل كل واحد وواحدة من الحاضرين شيئاً ليدخله في بيتها.

مدهشة هذه المرأة!

قالتْ لتواسيني:

– حريقة في محجوب وفي ود أخوه.. كان عاوز البت عرسها وطُز فيهم كلهم!

علَّق إبراهومه غامزاً:

- لو فكيت ليهم حوَّاية دي بتعرِّس ليك، صدقني.

ضحكتُ، وضحك الجميع.

- دا كلامك! كان خلِّيتهم عليّ أشيل سكيني دي وأبقى مارقة عليهم أخليهم يضَّايروا كلهم.

- لا، لا يا حواية، الناس ديل ما ساهلين بدخِّلوكي السِّجن ساكت.

كان بيت حوَّاية يتكون من غرفتين، عريشة من الحصير والقش تُستعمل كمطبخ ومكان للمقيل، حوْش وحمام. كان منزلاً منخفض السور، بل السور قصير جداً وآيل للسقوط، طوب الحائط بعضه منزوع وبعضه متخلخل مثل أسنان العجوز، الحائط ذاته منبعج وكأن حواية لكمته في وسطه بعنفها المشهود. يمكنك بدون جهد أن ترى من يقف داخل الحوش. باب الشارع كان ضلفة واحدة عبارة عن شريحة من الزنك الصدئ، لم يكن يُقفل بترباس، إنما نربطه بحبل بلاستيكي من أحد ثقوبه الكثيرة ونشبك الحبل على عودٍ صغير مثبت فيٍ شقٍّ في الحائط.

غرفة أُعطيت لإبراهومه ونبقة وابنهما، والأخرى لحواية وأبنائها الخمسة، العريشة في الليل تُركت لي، لكنني كنتُ أفضّل النوم في الحوش، حتى في منزل عم محجوب الذي كنا نقيم فيه كنتُ أنام خارجاً. لا أحب أن أنام تحت أيِّ سقف سوى السماء، أحب رؤية الفراغ الممتد بيني وبينها. أشعر بأن هناك خيوطاً لا مرئية تربطني بها، وأنني أسبح في هذا المدى الشاسع إلى ما لا نهاية. عندما أنام تحت سقف غرفة أشعر كأنني

داخل قبر، اختنق وكأن السقف يتقاصر إلى أن يجثم على صدري. حتى حين سكنّا في برندة الدكان المهجور، أحببتها لأنها كانت دون سقف، كانت منفتحة على السماء. كيف أطيق السقوف وأنا ابنُ العراء؟

في بيت حوَّاية كنا نقضي معظم وقتنا في النهار في العريشة، حيث تطبخ في جزء منها على موقد الفحم ذاته الذي تخرجه للشاي والقهوة، موقد مكون من جزأين، كانت تضع على جزء حلة الطبيخ والأخرى الشاي. في العريشة المسقوفة بالقش وجوالات الخيش ثلاثة أسرِّة، كرسيان بلاستيكيان، عدة مقاعد وزير ماء كبير مدفون حتى ثلثه في حفرة في الأرض مفروشة بالرمل، المنطقة قرب الزير كانت باردة ورطبة على الدوام، فالماء الناز من الزير يرطبها طول اليوم. نتناول إفطارنا فيها، نشرب الشاي و(نتونس) والعفاريت الصغار يقفزون حولنا ويصرخون.

توفي زوج حوّاية منذ أربع سنوات، ترك لها مهمة إعالة ستة، أكبرهم نبقة وأصغرهم طفل في الرابعة من عمره، عملتْ في بيع الشاي والقهوة وأصبحت أمّاً وأباً لصغارها. بيتها صغير، لكنه يحوي الجميع، فيه قدرٌ وافرٌ من الحب يجعله رحباً.

قضيتُ ليلتي تلك وما تلتها من ليالٍ عديدة فيه. لم أنم طيلة الليل. كنتُ قلقاً ومستاءً مما حدث، لم أتوقع أن يكون عم محجوب بهذا العنف، لطالما شعرتُ بأنه مثل أبي، أو مثل ما أظنه عن الأب، لم أعرف أبي ولا أعرف كيف هو الأب، لكن مما أعرفه وأسمعه فالأب طيِّب وحنون، وكان عم محجوب كذلك، طيباً وحنوناً.

هو عثمان من غيَّره وحشا قلبه بهذا الكره تجاهي، كما يكرهني هو. عثمان يكره كل إنسان حتى نفسه، ولا أظن أن رغبته الشديدة في الزواج من ناهد لأنه يحبها حقاً، بل لأنه يحبُّ مال أبيها. أبوه ليس غنياً كعم محجوب، يريد أن يتزوج ناهد كي يستولي على أعمال أبيها وأمواله بعد موته، فليس لعمه أولاد ذكور حتى يعملوا في التجارة والمطعم. عرفت الآن فقط لِمَ كان يدقِّق في كل قرش، ويحاسبني ويراجع فواتير المشتريات حتى بعد أن أسلّمها لعم محجوب، يأتي ويراجعها بعده مجدداً. هو ينظر لمالها وليس لها، هو يحب مالها، لا يحبها هي. ناهد تستحق أن تُحب، ولكنه لا يستطيع أن يحب. آلة الحب عنده معطلة، وآلة الضحك لديه كذلك. عقله هو الوحيد الذي يعمل فيه، وعقله يشغله مال عمه وكيف سيؤول إليه. لِمَ لا يتزوج إحدى أختيها إذن ويرحمها ويرحمني؟

أنا لستُ مثله، أنا أحبُّ ناهد لا يشغلني مال أبيها. الآن لا يشغلني ماله. كنتُ أفكر فيه لفترة، كان حبي مختلطاً بحبي لغنى والدها ومكانته، أعترف. لكن الآن، اليوم، الليلة، الساعة هذه لا يشغلني المال، ولا تشغلني محاسن كذلك ولا المتعة معها. اليوم ناهد تحتل كل تفكيري.

ما هذا؟!

وكأنني كنتُ منوَّماً، أو غائباً عن الإدراك، إدراك هذا الحب بهذه الطريقة، بهذه الحلاوة! أين كنتُ أنا؟ في أي بئر كنت غارقاً! لقد أثَّر ما حدث الليلة في حبي لناهد، فتح إحساسي على منطقة من الحس ما عرفتها مسبقاً، حتى مع تلك المرأة. جعلني أدرك مدى هذا الحب، وكأنه

سلّط بقعة ضوء على منطقة الحسِّ تلك، كأنه يقول لي: أيها الغافل أنظر هنا في هذه القشعريرة، أنظر لهذه المنطقة التي تجاوزتها في جريك وراء شهوتك. في رغبتك الدفينة في الغنى والجاه، وطرقك على أبواب طبقة ترفضك حياة وموتاً.

عليَّ أن أشكر عثمان على فعله إذن، سأشكره وأخبره بأنه لم يفصلني عن ناهد بما فعله بل أشعلني حباً فيها.

سنتجاوز هذه المحنة، سننتصر في النهاية، أثق في هذا وأثق في قوة شخصيتها. سأتزوجها وأحبها بقية عمري كله، وأعوضها عن غفلتي. أنتظرك يا حبيبتي لتشاركيني في الغد، قاتلي من أجلي وسأقاتل من أجلكِ، صدقيني.

في الصّباح أخبرت إبراهومه إنني ذاهب للمطعم لمقابلة عم محجوب. اتهمني بالجنون، فالرجل سيقتلك أو يسّلمك الشرطة. أصررتُ على الذهاب وحدي ورفضتُ أن يذهب معي. تحجج بأنه يريد لقاء الدينمو ويأخذ منه بعض المال، لكنني رفضتُ أيضاً، سأذهب وحدي وإن قتلني فليقْتلني.

مسكين صديقي، طُرد من عمله بسببي وفي رقبته نبقة وطفله!

ما إن رآني ذاك البغيض، حتى نهض كمن لسعته عقرب واستقبلني، في منتصف الصالة داخل المطعم وطلب مني الخروج فوراً.

قلتُ بحسم:

- ما طالع، عاوز عم محجوب، وأحسن ليك تزح من طريقي.

أبعدته عن طريقي، مسكني من قميصي محاولاً منعي، أبعدتُ يده بحدِّة، ضربني فضربته بقبضة يدي على وجهه، وسال خيط دم من شفته السفلى. أمسك شفته وحاول ضربي، تدخل الزبونان الوحيدان في المطعم وتدخل العمَّال، أمسكوني، وجدها فرصة، حمل كرسياً وضربني به. تفلّتُ منهم وهجمتُ عليه، ناوياً قتله، جاء عم محجوب في تلك اللحظة، أمسكني وضربني بكفه على وجهي وقال:

- عندك وش تجي هنا يا شمّاشي يا ود الحرام؟ تغش بتِّي أنا.

- أنا ما غشيتها، أنا بحبها وعاوز أعرِّسها.

ضربني مجدداً، وصرخ:

- تعرِّس منو يا كلب؟! تعرس ستّك يا ود الشوارع! ح تسكنّها وين، في الخور ولا في دكان مهجور؟

قلتُ وأنا أشعر بالإهانة والغضب:

- أيوه، نحن بنحب بعض وح نعرِّس كان رضيت كان أبيت، ح نعرس وح أسوقها ونخلي ليكم البلد كلها!

رفع يده ليضربني مجدداً، فأوقفتها في منتصف طريقها لصدغي وصرخت:

- كفاية! إنت فاكرني ما بشر. أنا أحسن من ود أخوك الجبان دا، نحن

صحي أولاد شوارع لكن قلبنا حديد، وضراعنا كمان.

– بتكورك فيني أنا، سيدك؟ اللَّميتك من الشارع وأكَّلتك لما شعبت وخليتك بني آدم؟، صحي الزِّيكم كدا ما بنفع. أنا بوريك ح أعمل فيك شنو.

نادى على عثمان، وطلب منه أن يذهب إلى قسم الشرطة، ويفتح بلاغاً بتهمة التهجُّم على أملاكه. وطلب من العمال أن يمسكوني معه، حاولتُ التفلّت منهم ولم أستطع، ماذا سيفعل هذا الرجل؟ سيدخلني الحبس؟!

– أنا مفروض أقتلك، لكن بعاين لبناتي ديل.

أضاف مستنكراً:

– عاوز تعرِّس ناهد؟ دا كلام عجيب لكن!

شعرتُ ببغضه لي، فقلتُ متحدياً:

– أقتلني لو بتقدر. أنا قدامك.

جاء شرطيان بسرعة مع عثمان، وقاداني إلى قسم الشرطة الذي لا يبعد عن المطعم كثيراً. قبل أن نغادر نادى محجوب أحدهما وأدخله مكتبه، تساءلتُ وقتها عن السبب، وأدركته فيما بعد.

أعرف الإقامة في الحبس، وهو ليس غريباً عليَّ، دخلته مراراً في حملات الشرطة. أعرف تلك الغرف البائسة متشققة الجدران، العفنة الباردة في الشتاء والخانقة في الصيف. أعرفها جيداً وها أنا أعود إليها.

أعود بعد أن تباعدت الدروب بيني وبينها و لم يعد هناك ما يجمعنا، أو هذا ما ظننته، فها هو درب يقودني إليها، درب مختلف تماماً عن تلك الدروب التي مشيتها وخبرتها والتي قادتني إلى أقسام الشرطة بالمدينة كلها تقريباً.

– كثَّرت المحلبية![1]

همستُ لنفسي، يبدو أنني فعلاً تجاوزتُ المسموح به. تجاوزتُ تلك الخطوط المرسومة بصلابة بيني وبين ناهد، بين عالمي وعالمها، بين قلبي وقلبها، رغم أنها قالت لي بأن لا حواجز بين القلوب، صدقتها لأني أردتُ تصديقها، ما أحلى الحُلم! لكن هذا ليس حُلماً، حبي لناهد حقيقة، حبها لي حقيقة وهذا يكفيني.

عرفتُ إجابة سؤالي، عندما دخل ذلك الشرطي الزنزانة وسحبني من ياقة قميصي وهو يركلني على مؤخرتي، ويدفعني إلى زنزانة أخرى، مستطيلة وضيقة جداً إن رقدت على جنبك لا تستطع أن تنقلب إلا أن تقوم وترقد مجدداً على جنبك الآخر! ظلَّ يضربني بعصاه وبحذائه الكبير في كل مكان من جسمي، وأنا لا يمكنني سوى أن أزحف في خط مستقيم إلى الخلف حتى التصقتُ بالجدار، وظللتُ أحمي وجهي ورأسي وهو يقف فوقي يضربني، ويضربني، ثم يضربني وأنا محشور هناك مثل الفأر في المصيدة، مهما تلجلج، ومهما حاول الفكاك لا خيار له سوى أن يظل هناك، صغيراً، وحيداً، منكسراً، منتظراً مصيره.

(1) المحلبية مادة تُستعمل مع الحناء. تقال العبارة عندما يبالغ الشخص في موقفه أو كلامه أو ردِّ فعله.

ما أبعد تلك الأيام التي عايشت فيها هذا، ظننتُ أنني كبرتُ على هذا، لكن كما يبدو مهما كبرتُ فإني صغير. ضربني ضرباً أفقدني الوعي، ثم تركني وذهب.

بقيتُ في الحبس أسبوعاً كاملاً، رغم أن الدينمو وإبراهومه دفعا ضمانتي منذ اليوم الثاني، إلا أن العساكر ماطلوا في إخراجي، وأخذوا عليّ تعهداً بعدم التعرُّض لعم محجوب أو بنته أو ابن أخيه أو الاقتراب من مطعمه أو أي من أملاكه.

أخبرني أحد العساكر ممن أعرفهم، أن ناهد جاءت لتزورني مرتين، ولكن أباها أمرهم أن يمنعوها من رؤيتي، حاول العسكري أن يخرجني ولكن العساكر المرتشين هددوه، إن فعل سيضعونه مكاني تحت أية تهمة يريدونها.

كل هذا يخرج منك يا رجل يا طيب! يا عمي!

بعد خروجي، اعتنت حوَّاية كثيراً بتغذيتي، فاستردتُ جزءاً من وزني الذي فقدته بتجويعي وضرب العساكر المتواصل لي. وجد الدينمو لإبراهومه عملاً كطباخ في مطعم صغير وكان يُحضِر معه ما تبقى من طبيخ.

قضيت في البيت أسبوعاً كاملاً، ذهبتُ بعده إلى المكان الذي كنت ألتقي فيه ناهد، حيث كنت أنتظرها قرب حليمة بائعة الطعمية، اشتريت قرطاساً واحداً من الطعمية، أشتاق لناهد الآن، وتمنيتُ لو أنني اشتريت

قرطاسي طعمية كما كنت أفعل. جلستُ قرب حليمة عندما طلبتْ مني ذلك، قالت لي:

– زولتك جات هنا قبل يومين وسألت عنك.

سعدتُ بهذا، كنت أعرف أنها لن تستلم، لقد زارتني في السجن، وها هي تسأل عني هنا.

– قالت ليك حاجة؟

– قالت بتجي تاني، لكن ما عارفة متين!

شكرتها ومضيت، وصرتُ آتي كل يوم وأجلس الجلسة ذاتها منتظراً إياها. بعد أربعة أيام وبمجرد وصولي قالت لي حليمة باستعجال من يزف بشرى مفرحة:

– أمبارح بعد إنت مشيت، ناهد جات وخلّت ليك وصية.

ظننتها وصية مثل التي قبلها قلت لها متشوقاً:

– قالت ليك شنو؟

ناولتني ظرفاً مغلقاً، فتحته بسرعة، ورقة صغيرة مكتوب فيها: (لاقيني بعد بكرة السَّاعة تسعة صباحاً في باب المحكمة، ح نعرِّس غصباً عنهم. لو أنا ما جيت معناه متَّ. بحبك كتير).

إذن، فشلت في إقناع أهلها، ومع ذلك، لم تستسلم. سنرى الآن كيف تتصرف يا عثمان! هل سترشي القاضي يا محجوب؟ بنتك لي الآن رغماً عنك.

لم أكن أرغب في اللجوء إلى هذا الحل، أن نتزوج في المحكمة. كنت أرغب في إقامة حفل عرس لكِ، لا أدري إن كنتُ سأستطيع تحمل التكاليف، ولكنها رغبتي، إنه حقكِ في أن تفرحي بعرسك وافرح بكِ ويفرح بنا كل من يحبوننا، للأسف سيكون فرحنا مكتوماً، لن تزغرد أمك ولن يفرح أبوك ولن نقيم حفلاً، ولكننا سنفرح بالرغم من كل شيء. بالرغم من هذه الحياة التي تغلق في وجه أمثالي كل كوى الفرح، إلا أننا سنعاندها ونفرح وتبتهج دواخلنا، ويوماً ما سأقيم لكِ فرحاً كبيراً تعويضاً لكِ ولي عن يوم عرسنا الصامت. سترقصين وأرقص ويرقص أبناؤنا القادمون.

قرأتُ الرسالة مرة أخرى لو لم تأتِ فهذا يعني أنها ماتت! أرعبتني الفكرة، هل يمكن أن تموت؟ هل تنوي أن تنتحر؟ لا يمكنني تحمُّل هذه الفكرة. موت ناهد يعني موتي، موت حبنا، موت أبنائنا المنتظرين؛ أبنائي، سيكون لديّ أبناء، وتكون لهم أسرة وبيت، سأحرص على ذلك، وسأعمل من أجلهم ومن أجلها. لا تموتي بل تعالي، تعالي إليّ ولنذهب من هنا. لا شيء يثنينا بعد الآن. لا شيء يحول بيننا. أنتظركِ فلا تتأخري.

صباح اليوم التالي، وكأنها كانت تقف على باب حُلمي، بمجرد أن فتَّحت عيني جاءتني مَنْ لم أتوقعها، تفوح منها رائحة الشبق، وبعينيها شوق كثيف. سألتْ عني في البيت الذي كنا نسكن فيه، فأخبروها أنني أقيم مع حوَّاية ودلّوها على البيت. لم تفكِّر أو تتوانَ عن طرق الباب والسؤال عني، هذه المرأة مجنونة بلا شك، ألم تفهم من غيابي عنها طيلة الأيام الفائتة! ألم تشعر أنني سليتها وفارقتُ دربها! كان عليَّ أن

أخبرها وجهاً لوجه، فمثلها لن تتوقف إلا بالحسم القاطع، دون مراعاة لمشاعرها.

لم أدعُها للدخول، بل وقفنا على باب الشارع، سألتني بتأنيب:

- كنت وين الأيام الفاتت دي؟

ألم تعرف بعد أين كنتُ؟

- كنت في الحراسة.

- ليه؟

- مشكلة مع عم محجوب.

لم تسألني ما المشكلة، إنما سألتْ:

- طيب بعد ما طلعت ما جيتني ليه؟

- ....

لم أعرف كيف أقولها لها.

تجاهلتْ صمتي وأمسكتْ يدي وحاولتْ جري للخارج:

- تعال معاي محتاجة ليك شديد.

سحبتُ يدي:

- ما بقدر أجي معاكِ.

نظرتْ إليّ بدهشة وكأنها تقول: لا يمكنك ألا تأتي.

تلعثمتُ وهي تغرز نظراتها في وجهي باحثة عن ردٍّ فيه. أشحت بصري عنها، قلتُ وأنا أنظر لشبشبي البلاستيكي:

– نحن لازم نوقِّف.

– ليه نوقف؟ إنت عارف إني ما بقدر أبعد عنك، ولا إنت بتقدر تعيش من غيري.

– بقدر أعيش. أنا بحب ناهد وما بقدرِ أخونها أكتر من كدا.

– كضاب أنت بتحبني أنا.

رفعتْ صوتها أكثر وهي تضيف:

– تخونها؟ دي خيانة؟ إنت ما بتخون إنت بتستمتع، صح ولا غلط؟

– أيوه صاح، لكن أنا ح أعرِّس ناهد وما عاوز أزعلها، أنا قررت إني ما أجيك ولا ألمسك بعد كدا.

قلتُ الجملة الأخيرة بحزم وعيني في عينها، أردتها أن تعرف جديتي، وأنني تركتها من أجل ناهد، لكنها أصرّت على أنني أحبها ولا أحب ناهد، وانني استمتع معها هي أكثر.

ما هذا الغرور؟ صحيح أنني استمتع معها ولكني لم أعد أرغب في هذه المتعة التي تمنحني إياها بعد الآن، أنا أريد الزواج من ناهد لأنني أحبها. بثقة قالت إنني اختار المرأة الخطأ، وأنا هي المرأة الوحيدة التي تسعدني وأنها تحبني ولن تستطيع الابتعاد عني.

عندما رأت إصراري حاولت أن تفاوضني بأن أبقى مع كلّ منهما، وأنها تسامحني على ما فعلته! مجنونة هذه أم ماذا؟ كيف ذلك؟ ناهد لن تقبل طبعاً.

واصلتُ رفضي لها ولمقترحاتها. حينها سألتني عما ستفعله ناهد إن عرفت بعلاقتي بها، لم أجبها ولكنني سألت نفسي ذات السؤال. حقاً ما الذي ستفعله ناهد؟

سأخبرها فيما بعد وستسامحني، نعم ستسامحني حتماً.

ثم حاولتْ إقناعي من مدخل آخر، هددتني إن لم أذهب معها ستخبر ناهد بكل شيء وأنها تعرف المشاكل في البيت بسببي!

ستخبرها؟ مجنونة هذه أم ماذا؟ ستفضح نفسها من أجل الحفاظ عليّ! توترتُ، لكنني لم أشأ أن أظهر لها توتري قلتُ:

– ما ح تكلميها، ولو كلمتيها ح تفضحي نفسك.

– ما بِهمّني، بتهمني إنت بس، لو رضيت تواصل معاي ما بكلمها.

فعلاً هذه المرأة مهووسة، تريدني حتى وهي تعرف أني أحبُّ غيرها!

أذهب؟

لقد اشتقت للنوم معها. أذهب معها الآن وأخبرها أن هذه آخر مرة، حسناً، آخر مرة ولن أكررها ثانية. آخر مرة وليس بعدها شيء بيننا، لكن

هل ستوافق بهذا؟ نعم ستوافق، عليها أن توافق.

لا، لا، لن تقبل بأن تتركني طوعاً، أعرف أنها لن تتوقف، لو رافقتها فهذه الخيانة لن تنتهي. لا لن أذهب معها، لا يمكنني أن أؤذي ناهد مرة أخرى. هي الآن تقاتل أهلها من أجلي. لا، لن أذهب معها ولتقع محاسن في البئر إن أرادت، هذا تهديد منها لا أكثر لن تجرؤ على إخبارها.

– أنا قلت ليك ما ماشي وخلاص انتهينا.

قلتُ لها هذا وأعطيتها ظهري، أمسكتني من قميصي وقالت بحقد دون أن ألتفت إليها:

– ح تندم، صدقني ح تندم!

قضينا ذلك اليوم في التجهيز لعرسي، ذهبتُ وإبراهومه للسوق واشترينا قميصين وبنطالين وملابس داخلية، وكاد أن يورطني في عطر أعجبه من تلك العطور الزيتية التي تسبب الصداع لناهد، فأصررتُ على أن اشتري عطراً توقعت أن يعجب ناهد. تناقشنا في أين نقضي شهر العسل، لا يمكننا البقاء في المدينة، بالتأكيد سيبحث أهلها عنها وأول مكان سيأتون إليه هو بيت حواية. لا بُدَّ أن نسافر، ولكن نحتاج لمبلغ كبير من المال يكفينا لنقيم في فندق رخيص لفترة محدودة، وسأبحث خلالها على عمل وبعدها نؤجر بيتاً ونقيم معاً. من أين نأتي بالمال إذن؟ كل ما لديّ ولديه اشترينا به الملابس.

- الدينمو ممكن يدَّينا قروش.

قال إبراهومه.

- لكن تفتكر ح يقبل، خاصة إننا ح نعرِّس غصباً عن محجوب؟

- أيوه ح يوافق، أساساً هو زعلان من حركة محجوب وعثمان معاك.

آخر عُقدة حُلَّت بفضل الدينمو، هو حلَّال عُقدنا العاطفية، في الأول أحضر المأذون بعد منتصف الليل ليزوِّج إبراهومه ونبقة، والآن يمنحني مبلغاً محترماً لأقضي شهر العسل مع ناهد بعد أن يزوجنا القاضي، ولم يكترث كون والدها يرفض زواجنا رغم أنه يعمل معه! ولو عرف محجوب بهذه المساعدة سيطرده ولا شكّ. الدينمو صديق حقيقي شهم وكريم.

وحوَّايَّة كذلك، رغم شدّتها وتصلبها وعنفها فهي كريمة وبنت بلد، لقد أصرّت على أن تضع الحناء على يديّ وقدميّ وأن تُقيم لي حفلاً وتدعو فيه كل سكان الحيّ، أخبرتها عن خطورة هذا، فربما سمع محجوب من أيٍّ من عماله الذين يسكنون قربنا بهذا الحفل أو من أيِّ أحدٍ آخر، وحينها لن يكون هناك عرس ولا يحزنون، علينا الحذر.

وافقتْ على مضض ولكنها أصرَّت أن تحنِّي يديّ لكن بهدوء، دون غناء ولا زغاريد.

في تلك اللحظة أحسستُ بها كأنها أمي وهي تضع الحناء الباردة على راحة كفي بحنان، قالت إنها سعيدة من أجلي، وتتمنى لي السعادة

والهناء، وهذا المحجوب مجنون ولا شكّ لأنه يرفضني كزوج لابنته! أخبرتها بأن من هم مثله لا يمكنهم قبول مثلي، لا يمكنهم إلا رؤية الفرق الشاسع بيننا وحسب.

كان الليل طويلاً ذلك اليوم، أطول من ساعاته العادية، لقد ظلَّ يطول ويطول ويمتد، وأنا أتقلّب في سريري وأنهض وأشرب الماء وأدخل وأخرج ولم ينته. كنتُ سعيداً للغاية وكنت خائفاً للغاية أيضاً، فماذا أفعل لو داهمنا محجوب وعثمان؟ كيف أتصرّف؟ سأضرب عثمان ولا شك، ولكن ماذا أفعل مع محجوب؟ لا يمكنني ضربه أمام ناهد فهو أبوها في النهاية. ماذا لو أحضروا معهم الشرطة وقبضت علي، سأُحبس لكن ليس هذا هو المهم، المهم أن هذا الزواج لن يتم في هذه الحالة. سأحمل معي سكيناً وأمسك بعثمان وأهدد بقتله إن اقتربت مني الشرطة، وسأصحب ناهد ونذهب. إذا أُضطررت سأطعنه فينشغلوا به ونهرب، سأطلب من إبراهومه أن يؤجر عربة تاكسي لتكون في انتظارنا. علينا أن نحتاط لكل شيء شيء.

وصلتُ المحكمة قبل الثامنة. وقفتُ على بابها في انتظار ناهد. إبراهومه والدينمو سيلحقان بي ويحضرا معهما عربة التاكسي وحقيبة ملابسي. كل خمس دقائق، كنت أعدِّل بسعادة هيئتي، متفقداً قميصي وبنطلوني، أو أمسح حذائي الذي يتغبر باستمرار مع كل هبة هواء.

أشعل سيجارة وراء أخرى، أنفخ دخانها إلى أعلى وأظل أنظر إليه متراقصاً مع الهواء وأفكر في ناهد. أخرج منديلي الجديد أيضاً وأمسح به على جبهتي فالسمشُ بدأت في بخ أنفاسها اللاسعة وأنا أقف تحتها مباشرة،

حتى ظل المبني انحسر و لم يعد يغطي رأسي. بعد انتظار دام أكثر من ساعة، بدأتُ أفرح حيناً، أقلق حيناً باحثاً عنها، وبدأ الخوف يتسلل إليّ.

ظلَّ الفرح والخوف يلازمانني في وقوفي القلِق الباحث في وجوه الجميع عن وجه أعرفه، أحبه وأتمناه. تخيلتها تأتي من خلفي، تمسّني في كتفي فألتفتُ نحوها، وأجد ابتسامتها الحلوة ترحب بي وتمسك بيدي لندخل. التفتُ فلم أجد أحداً ورائي!

تعدّت الساعة التاسعة بنصف ساعة و لم تأت. لا بأس، لا بأس من التأخير، ربما تأخرت في البيت ولكنها ستأتي في أيةِ لحظة، وستجدني هنا في انتظارها سعيداً ومتأنقاً أناقةً تليق بها.

هيا يا عمري تعالي قبل أن يكتشفوا خطتنا. تعالي لنذهب بعيداً من هنا، فقط أنا وأنتِ.. هيا تعالي. ما الذي أخركِ؟ أتركي كل شيء وتعالي.

ستأتين، صحيح؟ لا يمكنكِ ألا تأتي، أعرف أنكِ تحبينني كثيراً، أعرف أنكِ تستطيعين إزالة كل حائل يقف بيننا، مخالفة والدكِ وأمكِ وعثمان وعمكِ وعصيان أهلك والقتال من أجلي. أعرف، إذن تعالي فأنا هنا أقف منذ عمرٍ في انتظاركِ.

جاء إبراهومه بالتاكسي وعندما انتظر طويلاً صرفتُ التاكسي وصرفته لعمله بعد ممانعة كبيرة منه، أخذتُ منه الحقيبة وقلتُ له: إذهب لتفقُد عملك وعُد، ستجد ناهد هنا، لكن لا تتأخر حتى تشهد على عقدنا، بعدها نودعك ونمضي.

مرَّ الوقت و لم تأتِ ناهد.

ثلاث ساعات انقضت و لم تأتِ.

ما الذي أخرها؟ لم تتأخر من قبل في كل لقاءاتنا كل هذا القدر! هل عرفوا بما ننوي فعله فمنعوها الخروج أو حبسوها؟ لا يمكن لأحد أن يحبس ناهد، حتى لو حبسوها يمكنها أن تجد طريقة لتهرب بها. أو حتى ترسل لي رسالة لتخبرني. ماذا حدث إذن؟ أتكون محاسن أخبرتها؟! معقولة؟ هل تفعلها؟

لماذا لم تأتِ إذن؟ أذهب؟ أبقى؟ لكن أيعقل أن تخبرها؟!

لِمَ لا؟

تذكرتُ نظرة محاسن وكلماتها.

نعم، إنها هي، المرأة المجنونة، لا بُدّ أن تكون هي من أخبر ناهد لذا لم تأتِ إليّ.

محاسن قالت إنني سأندم. ظننتها لن تجرؤ على إخبارها بعلاقتي بها! لقد جرؤتْ كما يبدو! تفضح نفسها؟ مجنونة وتفعلها. كيف تورطتُ معها؟

ناهد لن تتأخر عني سوى لهذا، لن تموت إلا من خيانتي لها. إن لم تأتِ يعني أنها ماتت كما كتبتْ في تلك الرسالة. قتلتها خيانتي لها، الذنب الذي لن تغفره، لقد قتلتُ حبها لي، هذا الحب الذي لم أستحقه قط.

نظرتُ للحناء في يدي، حنة عرسي. لقد تفاءلتِ كثيراً يا حوَّاية بوضعها على كفي. كما ترين الآن ليس ثمة عرس، ليس ثمة فرح، ليس هناك أبناء وأسرة، ليست هناك حبيبتي، ليس سوى هذا الأثر.

ماذا فعلتُ بقلبها؟ ماذا فعلتِ يا محاسن بنا؟! قتلتِها وقتلتِني.

ملَّ الفرحُ ولم تأتِ.

تراكم الحزنُ ولم تأتِ ناهد.

بقيتُ واقفاً حتى أغلقت المحكمة أبوابها، لكن حبيبتي لم تأتِ قط.

مات حبها لي!

تركتُ كل شيء خلفي وذهبت. لم أعُد إلى ذاك الحي أو البيت أبداً. تركتُ صديقي وتركتُ البيت وصخب الصغار ونبقة وحوّاية. سرتُ طويلاً دون أن أدري إلى أين! قضيتُ أياماً وليالي، شهوراً وسنيناً وأنا أدور في الشوارع، منها أتيت وإليها أعود.

لا تحسبني أتذمر. لا. لا يمكنني التذمر، لقد عشتُ حياتي كما أريد، حياة طير حرّ، يمتلك الفضاء ومتعة التحليق.

ذهبتُ وتقاذفتني الدّروب، دربٌ يقذفني لدرب، إلى أن قادني دربي الأخير إليك يا كرم، في هذه الغرفة الباردة الصّامتة أحكي لك قصتي وتسمعني بقلبك وروحك وإن غاب صوتي.

19

ألفةٌ حميمة صافحته بمجرد أن أزاحَ الغطاء عن وجه جمال كما أسماه. دخوله المشرحة كان شيئاً حيوياً في حياة كرم، شيءٌ ضخ الدّم في مفاصلها. حظه غريب، أن يجد حياته في الموت! أن تكتسب حياتُه حياتها من موتِ شخصٍ آخر غارق في موته.

تعوَّد كرم صُحبة الجثث، تعوَّد سماع حكاياهم والتَّجوّل في طرقات حياتهم التي يرسمها لهم في خياله كأنهم عاشوها فعلاً، كما ارتأى وتخيل ورافقهم فيها بعد موتهم. حياة هذا الشاب الراقد في صمته الأبدي الصاخب بالحياة، مختلفة عن حياة بقية من صاحبهم في مهنته الغريبة في حراسة الجثث، بالأحرى مرافقة الجثث في محطتهم الأخيرة فوق الأرض قبل أن يصبحوا في جوفها، المرافقة والإنصات لمباغتة

الموت على وجوههم، أو مفاجأته، أو الخوف الزاعق منه، أو الاستسلام الراضي له، الإنصات للوجوه السادرة في صمتها، تأمُّل الآذان أشكالها واختلافات تعرجاتها وانحناءاتها، مرافقة أصحابها في حياتهم كما يقرأها على صفحات الوجوه، الآذان ورُقَع الجلود المتمددة في برودتها المجيدة أمامه.

أول ما رآه لم يره كميتٍ في مشرحة، بل رأى ماء الحياة فائضاً على وجهه وآذانه وجسده. غريبٌ وغامضٌ أمر الموت، مختلف حلوله في إنسان عن إنسان آخر. يختلف ميقاته ومكانه وطريقته. تختلف آثارِه التي يخلّفها بعد مروره العابر أو المقيم زمناً يطول أو يقصر، البعض يحلٍّ فيهم قطرة قطرة كقطرات الماء المتساقطة من صنبور متعطل، لا هي توقفت وهي هي ملأت ما تحتها من إناء، ويظل عذاب الانتظار حُرقة في الروح والجسد. حُلوله في جمال مبهر، فهو نائم لا ميت، هو سابح في بحور من الضياء، هو غارق في الطمأنينة، مبتسمٌ كملاك.

كرم أدرك أنها ليست الصدفة التي جعلته يعمل في مشرحة، ليس موت أبيه أو فقره، بل هو قدره الذي ساقه لها، فهو مثل الإناء أسفل الصنبور المتعطل، في انتظاره القلق لقطرات الحياة الشحيحة. أرهقته غربته منذ الأزل. غربة الطين عن الروح. لقد ظل دوماً واقفاً على حافة الموت كما على حافة الحياة، وإن كانت خيبة عشقه جعلته أقرب للانزلاق للموت منه للخوض في بحر الحياة.

سامية بقيت ندباً في القلب يلازمه طيلة حياته، عالج الزمن الجرح

المفتوح لسنين، إلا أن الندب لمّا يزال عالقاً على جدران القلب كنتوءٍ على صخرٍ أملس. كان محقّاً من قال إن الجروح تبرأ ولكن الندوب تلازمنا مدى العمر.

باغتته سامية مباغتة ألم ضرس حاد في ليلِ شتاء طويل، ألمٌ لم يخبره بوقت مجيئه، فالآلام لا تخبر أبداً أنها آتية، لا تَستأذنَ ولا تطرق الأبواب وإنما تداهم على غير توقع ولا انتظار. لم يتوقع خطبتها الخاطفة والسريعة التي تحولت إلى زواج سافرت بعده بأسبوعين إلى بيتها قبر حبه وحلمه وفرحه، تاركة علامة الاستفهام الكبيرة وراءها. كتب لها رسالة لم يرسلها، وتركت فيه سؤالاً لا إجابة له:

لم يهبني الله موهبة الاسترسال في الكلام والتعبير عما بداخلي، لكنه وهبني موهبة الإنصات أنصت لكل الأصوات مهما خفتت وأذهب معها بعيداً، أظنني أتحول إلى طاقة صوتية، أتماهى داخل تموجات الأصوات، داخل تكسرها أو طفوها بانسيابية وسلاسة، أجدني غارقاً في الإنصات لصوت قطرات الماء أسفل الزير، وهي تتجمع، تتكور، ثم تصطدم بمثيلاتها في الإناء، الإنصات لحفيف أوراق شجرة النيم في قعر حائط بيتنا، لصوت أنفاس أمي وهي تغط في النوم، لحركة كلبي وهو يحوم في الحوش، لتأوهات جارتنا الليلية، لصوت أفكاري، لخطواتك داخلي، الإنصات للصمت والسكون الذي يعم عمق الليل. ربما لهذا أحببت الآذان أكثر، لأنها تجعلني أتواصل مع العالم بحميمة وتفهم، لأنها تكشف لي تلك الطبقات المتراكمة في الآخرين طبقة بعد أخرى، لأنها مدخلي السري والغامض والاستثنائي لهم.

كنت أستأنس بصوت تأملاتي فيكِ، وصوت أحلامي بكِ. أحببتك حتى ملَّ الحب مني، وحتى مللتِ مني ورحلتِ.

هل مللتِ مني لذلك رحلتِ؟

لم تحتمليني لذلك رحلتِ؟

لم تحتملي صمتي وصبري ومواتي؟

أعرف أنني لست جذاباً، ولستُ مسلياً، ولستُ مرحاً، و لم أسمعكِ كلمات حب وعشق، و لم أقص عليكِ حكايتي معكِ وحكايتك فيني، حضورك فيني حكاية لا بدء لها و لا انتهاء.

أعرف أنني لم أصحبك إلى سينما، أو مطعم، أو منتزه.

أعرف أنني لم أقل لكِ كم أنتِ جميلة، وكم أنتِ مبهجة، وكم أنتِ امرأة ساحرة. أعرف أنني صمتُ وتركتُ خفقات قلبي تتحدث عوضاً عن لساني.

أعرف أنني جبنتُ، ولكن أعرف أيضاً أنني أحببتك حدّ أنني ألغيت نفسي وصرت أعيشك أنتِ لا سواكِ.

وماذا فعلتِ أنتِ؟ ماذا فعلتِ؟

تركتني يا سامية ورحلتِ.

لماذا رحلتِ؟ لماذا تركتني؟

أخبرته أمه أن العريس قريبها مغترب في الخليج جاء ليتزوج ويعود سريعاً، رغم غضبها على سامية لم يهُن عليها مقاطعة زواجها، فهي ابنة الغالية، ولم تتوقع هذا منها أبداً، لكنها لا تريد أن تزيد ألمه، حاولت أن تخفف عنه وتخبره أن نهى تسأل عنه. طلب من أمه ألا تخبره بأي شيء، ولا تخبره أي تفاصيل، لا تعنيه التفاصيل بل يعنيه الغدر، لقد غدرت به سامية وهذا ما يعنيه ويعييه بكامل حزنه وغبنه. لا يريد التفاصيل، فالتفاصيل تذهب به للأسباب، والأسباب تميِّع كثافة الظلم وتخفف فداحة الذنب، وهو لا يريد أن يجعلها سوى ما هي عليه، غادرة، ظالمة ولم ترع حبه ولم تقدّره. لا يريد سوى القبض على ألمه كله، وعذابه كله دون أن يوزعه على هذا السبب وذاك وذينك ولا يتبقى له في النهاية سوى الحنين.

ليس سوى هؤلاء الصامتين من يجعلوني أنسى. لا أحد سواهم، حتى كلبي مات، رفستُه في بطنه في مساء حزين بعد أن غادرتني سامية، انزوى ثلاثة أيام متألماً ثم مات، بكيتُ كثيراً وندمت على رفسه، ثم لعنت سامية ألف لعنة. كلبي كان صديقي، يقضي معي معظم الأمسيات، أطعمه الغداء بيدي، ويرافقني عندما أذهب للدكان لشراء اللبن والسكر بعد المغرب، ينتقل بين يميني ويساري وهو يهز ذيله بوتيرة ثابتة، ينتظرني بتأدب لحين شرائي حاجياتي، أصبُّ له بعض اللبن في صحنه، في حين نشرب أنا وأمي الشاي باللبن. عندما يراني حزيناً يأتي ويتمرغ في قدمي وكأنه يواسيني ويقول لي: أنا معك، وأشعر بك لا تحزن. وعندما أكون سعيداً يتقافز حولي برهة، ثم ينبطح على الأرض قبالتي وينظر إليّ كأنه يقول لي: أنا مطمئن عليك وسعيد.

ولكن بسبب سامية، بسبب خيانتها المباغتة، رفستُه، قتلته، وفقدت سنده لي. يا لتعاستي!

لا أحد يهتم بي، لا أحد يحبني سوى أمي. الكل يحب ذاته. الكل موّله بذاته، والكل يظن أنه يعرف نفسه، وفي أول موقف تجده يتصرَّف خلافاً لمعرفته تلك، ويقول لك لا أعرف كيف فعلت هذا الأمر أو ذاك! ويعجز عن الإتيان بتفسيرٍ لما فعله.

هذا الالتصاق الشديد بالذات، وهذا الحب الأعمى لها لا يسمح لنا بمعرفة ذواتنا كما هي، وليس كما نتمناها أن تكون، ونتوهم بالمثالية المضللة. لا يمكن معرفة الذات ما لم نفسح لمساحة الرؤيا أن تكون، فكيف ترى ما أغمضت عينيك عن رؤيته؟! كيف ترى وأنت لا تترك لنفسك مجالاً للرؤية؟! كيف ترى ما لا تريد رؤيته، تلك الحُجب الخبيئة، تلك البَقع المعتمة التي تتحاشى رؤيتها وتتوهم بأنك مثالي. تعيش في كذبة كبيرة، تعيش في زيف. هل أنت حقيقي؟ هل أنت نفسك حقًّا، أم أنك محض وهم؟. هل سألت نفسك هذا السؤال من قبل؟ إن لم تفعل اصفع نفسك بهذا السؤال من أجلي.

لم يجد سوى الموتى ليلوك حزنه معهم، يجتره كل يوم دون أن يملوا أو يتململوا في رقادهم، هم كعهده بهم صبورون منصتون ودودون في صمتهم وهدوئهم وثباتهم.

صداقةٌ حميمة تجمعه بهم، يسمعهم ويسمعونه، يحكون قصصهم

بصدق ويكشفون مشاعرهم بصدق ليس هناك ما يخافونه، يسمع ندمهم على ضياع لحظة حب، أو مخاصمة صديق، وضحكاتهم على أمجاد فتحت طاقة فرح في ناحية قصية من الروح. كل ما يفتقد إليه في حياته يسمعه منهم ويشاركهم فيه، يعيش مع كل منهم حياته، يعيش في حياة كل منهم ويضيف عليها ما يشاء من تفاصيل وأحداث وشخصيات.

كان كل يوم يأتي صباحاً ويسحب أحدث جثة من الثلاجة، أو يسحب الصديق الذي لم يكمل له قصة حياته بالأمس فيواصل تسلسها من حيث انقطعت، يسمعها من تأمُّل أذنه، ومن شكلها يمكنه التكهن ببؤس حياة صاحبها أو سعادته. موهبته في التعرُّف على دواخل الناس من شكل آذانهم لا تخبو أبداً، ولا تقتصر على الأحياء فقط، بل الأموات كذلك. يقرأ سيرة الميت منذ الميلاد حتى الممات من الآذان فقط! وهذا ما خلق تلك الحميمية والصداقة بينه وبينهم. لكن مع هذا الوافد الجديد فقد حاول ما هو أكثر من الونس معه.

لمدة ثلاثة أسابيع وهو يستمع إليه داخلاً في موته، لم يكن ثمة اسم على بطاقة التعريف المعلقة بإبهام قدمه اليمنى، بل كانت كالآتي:

الاسم: مجهول

العمر: 25 – 30

سبب الوفاة: نزيف داخلي سببه ضربة قوية بآلة حادة على الرأس.

وبقية التفاصيل من تاريخ الوفاة ولون العينين والطول. عندما بحث في ملابسه التي وُضعت في كيس بلاستيكي قرب الجثة وجد صورة فوتوغرافية صغيرة لشاب في العشرين من العمر تقريباً، أسود اللون، يميل إلى السمنة، صغير الأذن، أفطس الأنف، ضيِّق العيون، ولديه أثر جرح على خدِّه الأيمن. خلف الصورة كلمة واحدة، بل اسماً واحداً: **إبراهومه!**

ثلاثة أسابيع وهذا الشاب الوسيم راقد على إحدى كبائن ثلاجة المشرحة. يأتي كرم باكراً ويسحب الكابينة ويتحدث معه. لقد أصبح صديقه، صديقه الذي ألبسه كل شوقه للحياة، وكل ما يفتقده فيها عاشه من خلال قصة حياته. كان يتأمل حُسنه وبنيته المتينة. أعجبته أذنه، فأذنه رحبة كسهل ممتد، تعلوها نتوءات كتضاريس امرأة ثلاثينية مبتلة بالمطر. تجويف أذنه كجوف بئر عميقة، يمد صوته صارخاً في جوف البئر فيجرح صدى صوته خواطر الميت. وهناك في الأسفل استلقت محاسن في كامل حُسنها يملأ عينيها الشبق. شحمة أذنه لم تكن شحمةً ثخينة والتي يعرف كرم من خلالها بلادة حسّ أصحابها وجلافتهم، بل كانت شحمةٌ رقيقة رقة انسياب الإحساس للروح، رقة خطوات عاشقة تتجول في غرف القلب. رقة ناهد وهي تقول له: أحبك. انكفاء حافة الأذن انكفاء حنان، كانكفاء أمٍ على رضيعها، كانكفاء العوّاد على العود، كانكفاء الجفن على الحُلم.

كرم كان يعرف لو أنه التقاه من قبل لصارا صديقين كما هما الآن، كانت أذنه من أجمل ما رأى من آذان. لقد عشقها تماماً كما يعشق امرأة. يتناول قربه فطوره الذي يحضره معه كل يوم ويتأمل في الآذان ويستمع إليها، ترك تناول الفطور مع زملائه الذين كان يشاركهم إياه إبان انفتاحه على الحياة بحبه لـ سامية. يأكل بعد الفطور البلحات السبع تباعاً، يقرِّب كل واحدة للأذن التي تواجهه كأنه يتبرّك بها، كأنه يعطيها الفرصة لتلثم البلحة قبل أن يلثمها هو ثم يأكلها متلذذاً.

دوَّن كرم قصة الشاب الغارق في ريعان صمته، الشاب المجهول الذي أسماه جمالاً.

جمال اسم يناسبك يا صديقي، سأسميك جمالاً، أظن أن اسمك كان جمالاً، لا بُدّ أن يكون كذلك، بل أعرف أنه كذلك. لقد كتبتُ رحلتك كلها، ساعدني صديقك إبراهومه، وجدت صورته في جيبك. أنت الوحيد الذي كتبتُ رحلة حياته، الآخرين كتبت شذرات عنهم، كتبتها على قصاصات حملتها الريح أو انسحقت داخل غرفتي الأضيق من خرم، الأضيق من قبر، لكنك أنت صديقي، صديقي الوحيد القريب، ألم تقل لي إنني لا أعي معنى كلمة صديقي، الآن أدركتها معك.

لقد أعطتك الحياة الحب والمرأة والأصدقاء. ألبستك الحياة روحها التي تنزع للانفتاح والرحابة، وليس غريباً أنك عندما أردت أن تعيش حياة البشر العاديين، رفضت الحياة أن تقيِّدك، فأنت منذور للفضاءات، منذور للانطلاق.

وتلقاك الموتُ بشوق عجول، حتى الموت لم يضنِ بنفسه عليك، كم أغبطك! الموت الذي حاولتُ جاهداً إدراكه، إلا أنه تمنَّع عليّ و لم أسبر غوره رغم توقي.

أنا لا أشفق عليك، ولا أظنك ترضي بإشفاقي عليك، أنت نفسك لا ترثى على حالك، إنما أشفقُ على نفسي يا صديقي! أشفق على نفسي.

ما جدواي؟! ما الذي تحقَّق للوجود بي؟ من أنا أساساً! أشعر أن بموتي سأحقق وجودي، هذا الوجود الباهت الذي يستحي حتى من نفسه، التائه في ممرات الزمن المتهالكة. القلِق، الباحث عن معنى، أرأيت؟ إنما أشفق على نفسي، ليس إلا.

أخبرني إبراهومه عنك وعن نبقة. رأيتُ أذنه في الصورة، لم تكن جميلة على فكرة. أذنه لا تناسب وجهه البدين، حجمها صغير وملتصقة بالصدغ. لكنك تحبه، ولكنه صديقك.

خــرج كرم مــن حياتــه ليدخل في مــوت جمــال، دخولاً فاحصــاً، متلصصــاً، و لم يدرك أن هناك من يتلصــص على حياته ذاتها، وأن مذكرةً تُعْد عنه تمهيداً لتسليمه لمصحة الأمراض العقلية.

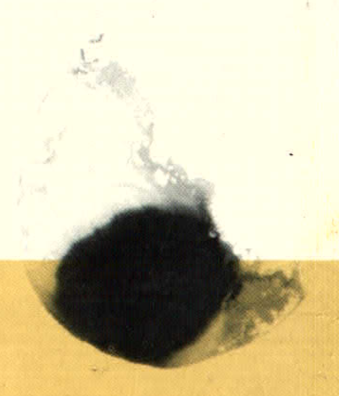
لقد أخذ كرم الدفتر الذي دوَّن عليه رحلة الميت المجهول وذهب به إلى مدير المشرحة مدَّعياً أنَّ جمال قد قُتل، ويعرف قاتله وعليهم مقاضاته. هذه هي قصة جمال التي أخبره بها. هذه هي حياته التي عاشها. إنَّها

حقيقة جمال التي لم يكتشفها العلم المادي، واكتشفها هو بما لا يمكن لعلمٍ أو لعينٍ أن تراه؛ فالحقيقة دوماً أوسع مما تراه العين.

أو هكذا قال!

ودمدني، 2011





ابن الشمس

تنتصب الوحدة أمامك تتحداك بصلف وغرور، لا تستطيع إلا أن تواجهها، لا تستطيع إلا أن تُهزم أمامها، لا مفر من تجاهلها، لا مفر من التّوهم بأنها غير موجودة، تذكّرك بذاتها في كل ثانية، تتقاسم معك كل لحظة تعيشها، كل ابتسامة تسرقها من حبور الوقت، كل طيف عَبرَ مُحمّلاً بالأماني القادمات. لا تترك لك خياراً سوى التعايش معها، قبولها أو رفضها هو حقك الذي لا تمارسه معها مطلقاً، بأيّ سلاح تحاربها وبأيّ منطق تتحاور معها؟ وأنّى لك أن تفعل وأنت تشعر بأنك جزءٌ، بأنك شطرٌ، بأن اكتمالك لم يتحقق بعد؟

تصميم الغلاف: إيمان شقاق



9 789774 902017

